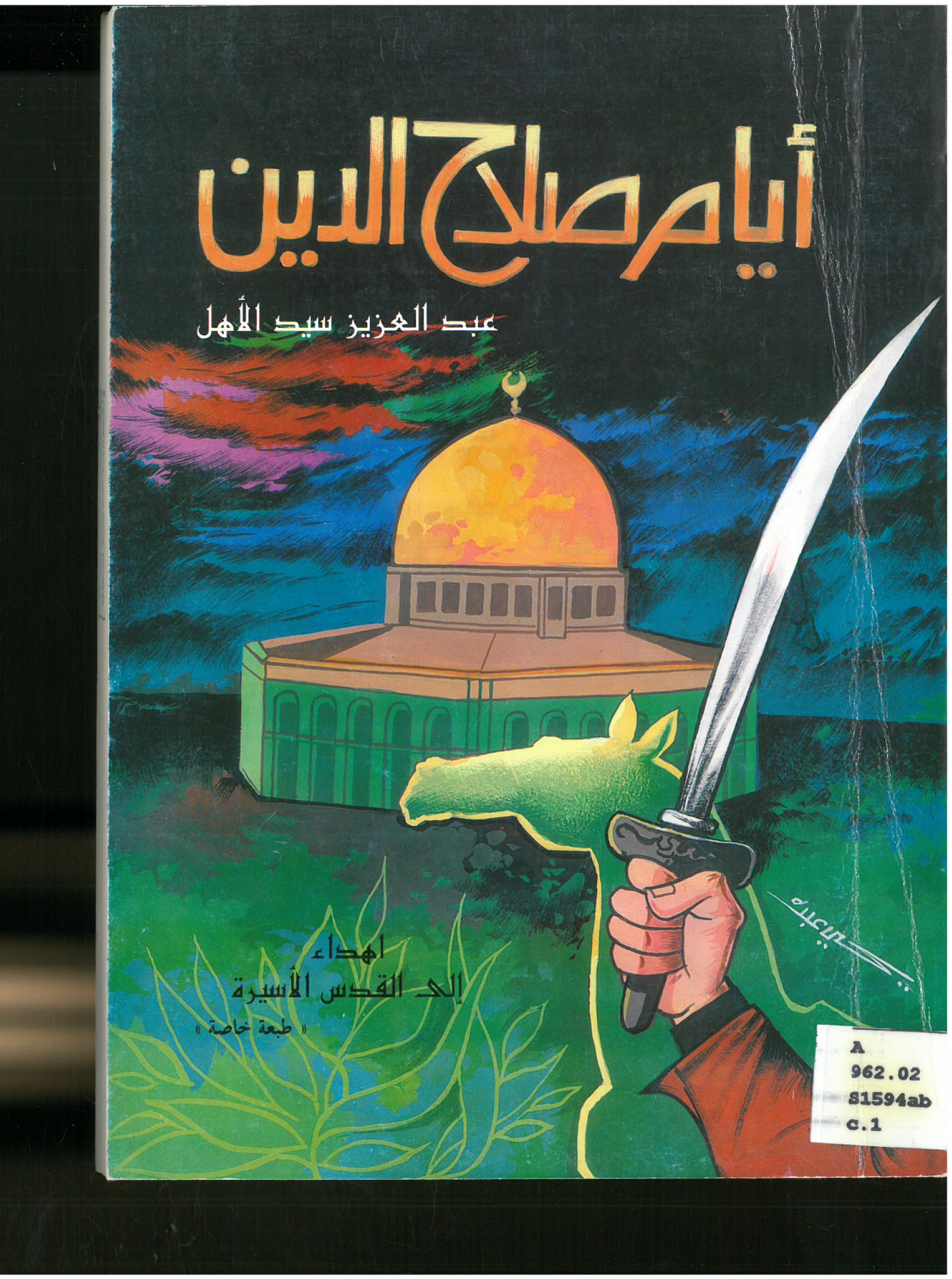

أيام صلاح الدين
عبد العزيز سيد الأهل
اهداء
إلى القدس الأسيرة
« طبعة خاصة »



تأليف

الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل



طبعة خاصة

(هدية للقدس الأسيرة)

مقدمة الطبعة الخاصة

في واحدة من زياراته الكثيرة **لمصر المحروسة** - كما أحب أن أسميها -وفي جلسة مشاغبة ممتعة ، عرج مختار العيتاني - وأحتار فيما أدعوه به - الأب أم الأخ أم الصديق ، وهو مزيج منها كلها ، إلي سيرة الوالد المرحوم **عبد العزيز سيد الاهل** وحكي عن ذكرياتهما معاً وما أكثرها وما أحلاها .

وبدأت - فجأة - نبراته تعلو وصوته يحتد وملامح الغضب تكسو وجهه عندما شرع يحكى لنا مايثار وسط بعض قطاعات اللبنانيين عن **البطل الناصر صلاح الدين الأيوبى** ، بطل حطين ومحرر القدس الشريف ، مما ينتقص من سيرة هذا البطل ويثير الشكوك حول دوره العظيم في رد حملات الصلبيين . وكما يقول المؤلف : « وكانوا قد غلبوا في أكثر الأنحاء واقتطعوا من أرض المشرق أقاليم أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس وساحل الشام كله كما قطعوا ما بين دمشق ومصر ، ودمشق والحجاز من طريقين : طريق عسقلان في الجنوب من يافا بالساحل - وطريق الكرك والشوبك من الداخل - فباتت البلاد الباقية في المنطقة بأيدي المسلمين أجزاء منفصلة تميل أن تتواصل فلا تستطيع » بل تجرأ أحد أمرائهم الأشرار بالتهديد بمحو الاسلام والمسلمين وتدمير مكة المكرمة والمدينة المنورة حتى تمكن الناصر صلاح الدين من تحرير القدس الشريف يوم ٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ بعد أن ظلت محتلة لمدة تقرب من ٨٨ عاماً وأمر بإعمار المسجد الأقصى وكتب فوق المحراب « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه سنة ٥٨٣ هـ . وهو يسأل إذاعة شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة » .

واستجابة للدعوة الكريمة من « مختار » بالتصدي لهذه الأباطيل باعادة طبع كتاب الوالد فيه ، واحياءاً لسيرة الوالد العظيم في ذكراه السادسة عشر ، فلقد

جاءت هذه الطبعة « الخاصة » هدية للشعب العربي من المحيط إلي الخليج لعله يذكر ويتذكر « **أيام صلاح الدين** » التي علا فيها شأن العرب وتحررت القدس من مغتصبيها كما أنها صرخة من القلب للشعب العربى كله - حكاما ومحكومين - لكي يفيق من سباته العميق قبل أن يضيع القدس الشريف - أولي القبلتين وثالث الحرمين الشريفين - من أيدي العرب إلي الأبد بداية بالمستوطنة اليهوديه في جبل أبو غنيم بالقدس .

١ مارس ١٩٩٧

عمر عبد العزيز سيد الاهل

تقديم

- بطل محارب
- ضوء من الماضى
- بلايا الداخل
- انتقاص الأرض
- صلاح الأمة
- مشاق الطريق
- مؤازرة الناس
- بعض الأخطاء
- قياس الأزمنة
- القدوة الحسنة
- كتابى فيه

بطل محارب :

صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بطل شرقى مسلم من أبطال الحروب ، وهو ان كان قد أحب السلام من كثرة ما كابد وما لقى فانه ليست له فى السلم أيام . ليس له منه يوم واحد ، حتى ولو سكن فيه الى هدنة أو راحة أو مرض ، لأنه كان فيه يستعد ويتجمع أو يستجم ، وسواء أوقعت الهدنة باتفاق مع عدوه أو وقعت ضرورة . لأن السلم فيها كان كأيام سلم القبائل المتعادية فى قصائد زهير ، حيث تتأهب فيها القبائل وتستعد للقاء جديد .

نعم ، ليس فى حياة صلاح الدين يوم واحد من السلم ، وهو منذ ولد لم يعرفه ، لم يعرفه قط ، فقد ارتحل — على ما قيل — محمولا فى رحل والديه من قلعة « تكريت » الى مدينة « الموصل » فى الليلة التى ولد فيها . فاذا صح هذا ، فقد ولد هذا البطل المجاهد قلقا على الرضاع ، ثم استمر قلقا حتى مات ، بل قلقا الى ما بعد الموت ، لأنه حمل معه ظنونا ومخاوف على بلده وأهله وقومه ، وكان يراها كأنها تتحقق — كما تحققت فيما بعد — عيانا ، فلم تكن ميتته هادئة ككثير من الناس ، وحتى من الأبطال ، الذين يكونون قد اطمأنوا وهدءوا وهم يودعون الدنيا .

وهل لوليد فى احدى القلاع أن يفكر فى السلم وهو يدرج بين المقاتلة وآلات الحرب وأصواتها وتدريب المدارس القائمة بين جدرانها ، كل يوم ، وفيما بين ذلك — وفى ذلك الزمان خاصة — تنتظر قلعته مثل كل القلاع مفاجآت الليالى ؟!

حتى منصب الشرطة الذى أضيف اليه فى دمشق وهو شاب كان منصبا ذا مشاكل : مع رئيسه الذى هو فوقه ، ومع العامة الذين هم تحته ، فقد كان رئيسه يعكس أغراضه ، لأنه كان يريد عدلا صافيا ، وكانوا هم فى حاجة لمن يؤدبهم بعقوبات ادارية خالصة ، فوقع صاحب

الشرطة الذى كانوا يطلقون عليه اسم « الشحنة » — وقع بين غضب رئيسه وغضب مرءوسيه : فوقع بين شقى الرحى !

فلما تولى وزارة مصر ثارت به العداوات وأرقته المؤامرات ، فحارب الحسد فى نفوس زملائه القدامى ، ثم حاربه فى نفوس أعدائه المحدثين ، بات طول لياليه — كما يقول القدماء — على جمر الغَضَا .

واذ تولى قيادة جانب من الجيش ثم كل الجيش طرح كل ما كان يتلهى به كأحد الضباط الشبان ، وصار ضابطا كبيرا رزينا قبل الأوان ، ثم خاض المعامع وشيكا . ولم يلبث أن ألقى عليه عبء المنطقة بأسرها ، فسهر لها حذرا مقداما يدارى سوس الداخل ويطرد غربان الخارج ، وظل يدفع ويمنع طول حياته ، لم يهدأ ولم يكل ، حتى قَضَى .

ضوء من الماضى :

وترك هذا الرجل سيرة أبهى من الضوء تنير الطريق لمن يريد أن يهتدى وأن يصل . يرى كل عابر طريقه فى هذه المنطقة أن يشعل منه قبسا ، حتى يستضىء فيهتدى ويصل . وهى مهمة التاريخ ، ووظيفة الاقتداء ، وحكمة الانتفاع بالقياس .

وينفرد صلاح الدين دون كثير من القادة والأبطال — بأنه كان ضرورة زمنه ، فلم يكن يعوضه فيه بطل آخر تقل صفاته عن الصفات التى جاء بها بين قومه ، وهم قومنا ، وفى أرضه ، وهى أرضنا ، وفى زمانه الذى هو أشبه بزماننا .

واشتعال قلبه بالحذر والذكاء وحب الجهاد ليحمى قومه وبلاده كان كذلك ضرورة ، فلم يكن يصلح مكانه قلب آخر ، فأتى صلاح الدين هو وقلبه وصفاته فى الوقت المناسب الذى يتطلبه وحده ويحدد ذاته

ويتلهف عليها ، لم يتقدم به الزمن ولم يتأخر ، فانفرد بالبطولة التى يكون بها — فى الظروف المناسبة لها — الاقتداء ، ويحسن منها الانتفاع .

وكان الوطن — اذا صح أن نذكر كلمة « الوطن » لتعبر عن الحمى الذى حماه — يدعو فى ذلك الزمان من يمد له يد المعونة — كما مدها — لينقذه من محنتيه : محنة الداخل ، ومحنة الخارج .

وليس معنى افراد صلاح الدين بهذه الصفات أن المنطقة قد عقمت عن خلق الرجال وولادة الأبطال فقد جاءت فى عصرنا برجل مقدام هز العالم كله من أقصاه الى أقصاه .

بلايا الداخل

أما فى الداخل فكان يقتسم الخلافة خليفتان : يقتسمانها فى أرض المشرق القريب ، أما المشرق البعيد فكان قد ضاع . وأما المغرب فكان عليه خلفاء آخرون . والخليفتان فى المشرق القريب لا شأن لهما بالمغرب ، ولا شأن للمغرب بهما ، وكان أحدهما بالقاهرة والآخر ببغداد ، ولا يرضى أى خليفة فى المشرق أو المغرب الا أن يُدعى — دون غيره — بأمير المؤمنين .

وكل من خليفتى القاهرة وبغداد قد صار فى ذيل دولة تلفظ النفس الأخير ، فلم يكونا الا كبقية زيت المصباح القديم ، تكاد تجف وتفنى فينطفىء السراج : خليفة القاهرة كان طرف الذيل فى دولة العبيديين ، وخليفة بغداد كان قد قارب طرف الذيل فى دولة العباسيين .

وكانا يصدران الأوامر ، ويعينان الوزراء ، ويبعثان الرسل والكتب ، ويهبان الهدايا ويخلعان الخلع ، ولكنهما كانا فى كل ذلك عن غير رأيهما ، فلا رأى لهما ولا خيار ، بل كانا مجبورين عليه ، وعليهما أن يطيعا .

وفى لقاء ما نزلا عنه من السلطان مدوا لهما فى أسباب الترف واللهو ، فسبحا فى قصريهما على الشهوات ، وتسرغا على مفاتن الدنيا من

الذهب والجوهر والأثاث والرياش ، وحشد لهما الخدم والحشم والعبيد والاماء . وحتى يكون لهما أمر فى العامة ينتفع به ان احتيج اليه ضُربت باسميهما النقود ووقعت الرسائل وخطب باسميهما على المنابر .

هذه بعض المشابه بين الخليفتين ، ولكنهما مختلفان : فخليفة بغداد سنى وخليفة القاهرة شيعى قد تطرف حتى خرج عن التشيع .

ووزراء بغداد سلاجقة أتراك انحدروا من قلب القارة واعتنقوا الاسلام فى غلظة ، واتبعوا مذهب السنة فى حدة . ووزراء القاهرة — مصريين أو غرباء — قد مزقوا شمل بلادهم فى فتن دامية انتهت باغتيال وزير يدعى « طلائع بن رزيك » كان قد استطاع أن يقر السلام فى وطنهم ، ولكنهم لم يتركوه غير فترة وجيزة ، فانتهى بانتهاء عهده السكون والسلام .

وكما تعادى الخليفتان تعادى الوزراء السلاجقة ووزراء مصر ، فما لبث السلاجقة أن استولوا على دمشق وانتزعوها من « العبيدية » ثم انتزعوا سوريا بأكملها ، فانتقلت منهم — شبه موحدة — الى ملك « الأتابكة » أولاد « عماد الدين زنكى » ، وانحسر سلطان العبيدية داخل مصر .

ودخل وزراء مصر بذلك فى منازعات عنيفة مع جيرانهم من حكام الشام ، واستعانوا الفرنجة عليهم ، ورضوا للفرنجة بما لم يرضوا به لجيرانهم ، فوقعت أبواب القاهرة ومداخلها فى يد حامية أجنبية ، وصار للفرنجة بمصر مفوض سام ، فضلا عن جزية ضخمة تؤدى اليهم .

وفى ظل ما يدعونه من تعادى المذاهب ، وفى حماية التطرف الضال استخدم الاتهازيون — الذين أبطنوا الشر — الدعوة لأنفسهم ، فصار لهم سلطان لا يقاوم ، وصارت لهم داخل الدولة دولة ، وبجانب حصونها حصون وقلاع ، وكان المظنون أن ينشروا سلطانهم حيث يحميهم التطرف ، وفى بلاد العبيديين وحسب ، ولكنهم نشروه فى البلاد التى تدين بالمذهب

السنى أيضا ، فاستطاع أولئك الاتهازيون أن ينشروا الذعر فى ربوع الشرق الأدنى كله سنوات طوالا .

وعلى مثل اختلاف الخلفاء والوزراء ، كان الولاة والعمال فى الولايات التى تتساقط من أملاك الدولتين أو تخف عنها قبضتهما ، يسوقون الناس لغاياتهم وتوسيع أملاكهم ، حتى حلت بالناس فى جميع الولايات مصائب الفقر والفساد والموت ، وتركت مدن بأسرها طعمة النيران .

انتقاص الارض :

ولم يبت الأمر مقصورا على أمراء الداخل يأكل بعضهم بعضا ، ويسقط الناس هلكى على حفافى الأرحاء الدائرة على أجسادهم فى معارك الأمراء ، ولكن الصليبيين كانوا قد غلبوا فى أكثر الأنحاء ، واقتطعوا من أرض هذا المشرق القريب — برغم ما حاول بعض الأمراء المخلصين دفعهم — أقاليم أنطاكية وطرابلس فى الشمال ، وبيت المقدس فى الوسط ، وساحل الشام كله فى الغرب .

وقطع الصليبيون ما بين دمشق ومصر ، ودمشق والحجاز ، من طريقين : طريق « عسقلان » — فى الجنوب من يافا — على شاطىء البحر ، وطريق « الكرك » و « الشوبك » من الداخل — فى الجنوب من بحيرة لوط — فباتت البلاد الباقية فى المنطقة بأيدى المسلمين أجزاء منفصلة تميل أن تتواصل فلا تستطيع .

وزاد النار ضراما واشتعالا أن الحملة الصليبية الثانية — وكانت باقية بثقلها — قد سلطت أحد أمرائها الأشرار على العهود والمواثيق فنقضها ومزقها ، ثم جاوز حده فأزمع أنه سيمحو الاسلام من الأرض وأنه سيسحق البلدين المقدسين نفسيهما : مكة والمدينة ، ولم يكن تجاوزه نية أو تهديدا وحسب ، ولكنه ساق فرقا من عساكره لتحقيق الأهداف الطائشة التى خيل له غروره أنه سيدركها .

صلاح الامة :

واذا كان حال بلادنا قد بلغ هـذه الغاية ، وكان الأمراء قد جعلوا أمر الأجنبى الدخيل أمرا ثانويا ، أهم منه أن يتقاتلوا ويدك بعضهم حصون بعض ، فان الأمة لم تكن قد فسدت كلها ، بل كانت تنطوى على كثير من الخير والفضائل التى لا يستطيع طمع الأمراء وفسادهم أن يطمسها أو يأتى عليها .

كان الناس فى الزمان الثالث — كما رتب الفلاسفة الأزمنة — كانوا قد صلحوا وفسد الأمراء ، فكانوا كالجسد الذى لم تزل فيه السلامة ، بينما فسد الرأس ، ولو فسدوا هم أيضا لبلغوا الزمان الرابع ، وهو أفسد أزمنة الأمم ووقت فنائها . ولو صلح الرأس كما صلحوا لبلغوا الزمان الأول ، وهو أصلح أزمنة الأمم ووقت بقائها . فلم يرض الناس فى أى بلد بما هو كائن ، وتمنوا فى كل وقت أن يجدوا مخلصا ينقذهم من المنحدر الذى هووا اليه ، فلما جاء « نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى » وفيه من الصفات والفضائل ما يعجبهم وينقذهم التفوا حوله ، فسهل عليه بمحبة الناس له تأديب كثير من الأمراء واخضاعهم لأمره ، ولكنه مع ذكائه وصلاحه كان ذا حظ قليل ، أو لم يصب الناس به حظا كبيرا ، فذهب ، وكان كالارهاص بين يدى المعجزة الآتية عن قريب .

واستطاع الصلاح الكائن فى الأمة أن يخلق الضرورة التى جاءت بزعيم ممهد لزعيم أقوى ، حتى يقضى — كما تود الأمة — على التصارع والتفرق ، ويجمع القوى ويوحد الفكرة والاتجاه ، ثم يدفع عدوان المغير ، جاعلا دفعه الهدف الأول ، وبغير كل ذلك فلن ترد للشعب كرامته ، ولن تصان له مقدساته .

وقد قضى صلاح الأمة الذى حدد صفات الزعيم المرجو بأنه من المستحيل أن لا يكون ، فقد كانت المنطقة كلها تريد أن تنفى عنها عيوبها

وتتخلص من بلاياها ، ولكنها لم تكن تجد الأداة ، أو كانت تجدها قديمة الفساد . ولم تكن تبصر الطريق ، أو كانت تجده ملتويا فتسير فيه على مشقة واضطراب ، فاصطنع القدر الأداة ، وهيأ الطريق ، وأرسل بطلا شحنه بكل القوى ليقود المعارك ضد البغى والعدوان ، وينصر أمته التى باتت ترقبه وهى تستحقه أن يكون .

وكان للناس أو لصلحائهم — على الأقل — آمال كبرى فى الزعيم القادم : كانوا يرجون أن يبتر ويقص ويمحو ويطرد ، ثم ينشىء ويبنى ويعلى ، وعليه فى أثناء ذلك أن يقوم باصلاح دينى نسبى غير عنيف ، يقضى على التطرف والانتهازية اللذين خلقا تحت ستار التشيع ، بل يشجع مذهبا لم يجر به تيار السلاجقة والأتابكة : مذهبا سليما وسطا ، فكان لابد من زعيم شجاع ذكى يتحين الفرصة لضرب التطرف ، ويحاول أن يجمع الناس أو معظمهم على رأى واحد ومذهب واحد ، ووطن واحد ، فى حرص وذكاء ورفق ، من غير حدة ولا عنف ، فان الاسلام لا يقبله . فلم يكن ذلك الذكى الشجاع المرجو الا صلاح الدين .

حقا ، انه لم يقم هو بالاصلاح الدينى أو ما أشبه الاصلاح ، لأنه لم يكن فقيها ، وانما هو اعتنقه ودعا اليه وناصره فنجحت دعوته وكتب لها الانتصار .

مشاق الطريق :

وكانت الطريق كثيرة الصعاب مسدودة المسالك ، لا تجدى فيها الحيلة وحدها ولا الحرب وحدها ، بل لابد منهما جميعا ، ضد أمراء الداخل وغزاة الخارج ، وهم وان كانوا فريقين فطالما كانوا فريقا واحدا : اذ كان يتصل بعضهم ببعض ، ويحمى بعضهم بعضا . وفى هذه المأساة الحزينة الدامية كان المغنم دائما وعلى وجه آكيد للأجنبى الدخيل .

فلما جاء صلاح الدين كان عليه أن يحارب باليدين ، ويقاتل الطائفتين ، منفردتين ومجتمعتين ، وقد قاتلهما وأظفره الله عليهما ، وما لبث أمراء الداخل أن خضعوا له حين غلبهم ، وخدموه حين أدبهم أو حاسنهم ، فلما اجتمعوا حوله استطاع أن يلقى أوروبا كلها ممثلة فى ملوكها وفرسانها ومحاربيها ، أو معظم دولها وأقواها .

واستمر صلاح الدين يلقى العدو لقاء بعد لقاء ، والعدو لا ينقطع ولا يخمد ، وكلما مضى به زمن جاء به زمن ، وكلما فنيت عدة أنشأ الأعداء عدة ، وهم على كل لون ، وبكل سبيل ، وكأن العداوة تنمو على الحصاد كأنها النبات — كما قال صلاح الدين نفسه — والبحر لا يمسك عن القذف بأمواجهم الى الساحل كأنهم تياره الذى لا يهدأ ولا ينام .

وكان نظام الاقطاع فى القرون الوسطى قد بنى قلاعا وحصونا ترهق بضخامتها ومنعتها جيوش الغزاة مهما قويت ، اذ كان كل حصن يعنى سلامة منطقة بأسرها ، فكانت الحصون تبنى مراكز للحراسة وترقب العدو وخزن الأسلحة والمؤن والأموال ، ولا سيما اذا قامت على أفواه المسالك بين الممالك ، كما قامت الحصون أيضا مدارس لتعليم فنون الحرب لمن يعيش فيها .

وقد قيل : ان حصنى الكرك والشوبك (١) كان بهما بعض الأحيان ما يقرب من خمسين ألف غرارة من الحبوب والأطعمة ذخيرة للحرب ، فاذا نشبت حملت منها الغرارات الى المدن والأمصار وجبهات القتال .

وكانت القلعة لذلك أعظم من ولاية بأسرها :

قال ياقوت :

قلعة « جعبر » على الضفة اليسرى من الفرات الأوسط ، كانت لشهاب الدين مالك بن على ، فعوضه نور الدين محمود بن زنكى عنها .

(١) لعل قرية الشوبك المصرية سميت بهذا الاسم لأن جالية من الشوبك الأردنية نزحت اليها .

سروج وأعمالها وملاحة حلب وباب بزاعة ، وعشرين ألف دينار ، فقيل لصاحبها : أيما أحب اليك : القلعة أم هذا العوض ؟ فقال : هذا أكثر مالا ، وأما العز ففقدناه بمفارقة القلعة ! .

وقال ابن العبرى :

ان صاحب حلب سلمها الى صلاح الدين وأخذ العوض عنها : سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج ، وجرت اليمين على ذلك ، فباعها صاحبها بأوكس الأثمان : أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضا قرى ومزارع ، فقبح الناس كلهم ، ما أتى به ! .

فلهذه الأوتاد القائمة فى طريق الجيوش اتخذ صلاح الدين العدد وآلات الحصار ، وأعد الجلد والصبر ، وحسب الزمن ، فاستطاع أن يتغلب على مناعتها ويتمكن من اخضاعها ، وكما أعد لها جهاز الهجوم أعد لها أيضا — اذا دعا الأمر — أدوات الاحراق وأساليب التدمير .

وكان هناك ضغث آخر ، فقد كان العصر عصر فروسية ، هنا وفى أوروبا . والفروسية مركب ذلول للحماسة العمياء ، ومن شأنها أن تبرز صفات الفارس الفرد وتظهر مزاياه . وقد فتحت العقائد الشائعة عندهم — حينذاك — منافذ الولوج للفرسان ، فبدءوا يسيرون مع المقاتلة لشراء أنصبتهم من الجنة ، وبدا الموت فى سبيل موطن المسيح سهلا محبوبا ، أما ما وراء ذلك من الأسباب : كامتلاك أقاليم آسيا الواسعة المملوءة حبا وثروة ، ورد الأتراك عن أبواب القسطنطينية ، فقد كان أمرا ثانويا بالنسبة لشراء نصيب فى الجنة بانقاذ بيت المقدس بحجة أنه مهد المسيح .

ولمعت هذه العقيدة — وكأنها جديدة — فى نظر القوم . أما بالنسبة للمسلمين فقد كان شراء الجنة عندهم قد صار عقيدة قديمة راسخة ، فهم أصحابها ، وقد حاربوا منذ الأول ليدخلوها ، وهم مطالبون دائما — فريضة محتومة — بالدفاع عن دينهم لتكون لهم بهذا الدفاع مفاتيح الجنة . وقد علموا فى الآثار التى حفظوها أن رجلا سأل نبيهم أن يدعو

له بأفضل ما عند الله لعبده ، فقال له النبى : « اذن تعقر فرسك وتموت شهيدا ! » .

هذه عقيدة المسلم وفريضة جهاده ، فاذا انضاف اليها أنهم مهاجمون فى ديارهم ، ومن أجل استلاب بيت المقدس منهم ، وعنده مسجدهم الأقصى ، فقد وجب الموت دون الدين ودون بيت المقدس ودون الأموال والديار .

وكانت الخيل لم تزل فى هذا المشرق مراكب العرب والمسلمين ، بل الخيل عندهم أجود وأكثر ، وقد جاء يقودهم فى معاركهم فارس نشأ من فرسان ، مؤمن بما آمنوا به ، بل هو يدعوهم الى الايمان . فلما التقى الجمعان التقوا فى حروب مقدسة ، عنـدهما معا ، اشتعلت عنيفة حامية الوطيس ، ينظر الفارس فيها الى الموت كأنه أحب الشهوات ، لأنها بدافع من الدين ، وبوسيلة من الفروسية ، وليس شىء يقحم الناس فى الموت مثل تلك الدوافع وتلك الوسائل !

مؤازرة الناس :

وكتب الله لصلاح الدين أن ينجح ، فساق اليه الناس زمرا ، من كل الأطراف ، يؤازرونه ويفدونه . حقا ، انه لم يحصل على مؤازرة كاملة من الناس الا بعد أن آمنوا به . والايمان برجـل صعب شديد ، وهو أكثر صعوبة وشدة من الحب ، ذلك أن حب الناس يمكن أن يجلب ببذل المال والتـودد ، ولكن الايمان لا يكون الا بمشـاهدة التوفيق يكتب للآراء والأعمال والتجارب ، ويحقق الناس به كثيرا من الآمال ويصيبون كثيرا من المرامى .

وكذلك أقبـل الناس عـلى صـلاح الدين — أول ما أقبلوا — مترددين ، ثم أحبوه حين تقـرب اليهم بالمودة والمال والانصاف ، فلما

انتصرت آراؤه ومواقعه ، وحققوا من ورائها كسبا للدين والوطن والمجد أقبلوا على الايمان به والثقة به .

وحين دعا صلاح الدين للحرب والاشتراك فى قتال مرير استجاب له الناس ، وأقبل عليه المتطوعة من كل مكان — ما عدا بغداد فقد غابت الا قليلا من محاربتها ورماة السهام فيها — وأقبل المتطوع بمحض ارادته وملء حريته ، حاملا معه — لو كان فارسـا — كفاية بيت بأسره لمدة شهور ، فاذا انتهت المعركة بانتصـار نقل معه حمله الى معركة أخرى ، واذا انتهت بهزيمة أحرق متـاعه وطعامه ، أو تركه نهبى ان لم يستطع له انقاذا أو احراقا .

وقد بدت معارك صلاح الدين كأنها كلها تطوع ، من غلبة المتطوعين فيها ، ومن النتائج التى جناها استمرارهم أو انسحابهم ، بسبب الحرية التى كانوا يتمتعون بها فى البقاء أو الانسـحاب ، ولكنهم — على كل حال — قد كثروا وغلبوا ، وأجابوا دعوة صلاح الدين ، وكانت كثرتهم فى جنده أهم مظهر لايمان الناس به واتباع مباديه .

وآزر صلاح الدين ما جاء به هؤلاء وغيرهم من المال ، فقد كفوا الدولة عبء الانفاق على كل المحاربين لو كانوا جندا دائما مجبورا ، وكان من لم يجد مالا من المطوعة اقترض وسار للمعركة ، حتى غلبت الناس الديون ، فكانت فى بعض الأحيان من أسباب التفرق فى المعارك وتركها بغير انحسام .

وظهرت فى مؤازرة صلاح الدين قوة هائلة ساحقة ، لا سبيل الى الغض منها أو التهوين من شأنها ، وتلك هى تمرد الجماهير على الأمراء والولاة الذين يعاندونه أو يحاربونه ، وثلاث حـوادث منها تكفى فى عرضنا هذا للدلالة القاطعة على مؤازرة الجماهير له وايمانهم به :

فقد حدث عند موت نور الدين أن تولى الوصاية على ابنه اسماعيل رجل يقال له « كمشتكين » فأخذ اسماعيل الى حلب فأقامه بها ، فلما بلغ

ذلك أهل دمشق خافوا « كمشتكين » فكاتبوا صلاح الدين أن يسير اليهم من مصر ، فسار اليهم فى جريدة من الخيل عليها سبعمائة فارس ، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها بالترحيب والتكبير ، وفرحوا به ، وسلموا اليه قلعتها .

وحدث عندما مات « شاه أرمن » صاحب « خلاط » أن دعاه أهل خلاط لامتلاك بلدهم ، دون غيره ، فلم ير صلاح الدين بدا من النزول على ما شاءوا ، فسار اليهم من الموصل مستجيبا لرجائهم ، وألحق بلدهم ببلاده وأهلها بقومه .

وحدث كذلك أن اشترك « ابن بيسان » صاحب آمد حين فتحها صلاح الدين وظهر عليه أن يحمل فى ثلاثة أيام من آمد ما يقدر عليه ، فأقره صلاح الدين على شرطه ، بل زاد فأعانه على نقل الأموال بالدواب والرجال ، ولكنه تعذر على ابن بيسان أن ينقل ما أراد ، فقد تخلى عنه الرجال وانصرف الناس ، ولم يعنه أحد منهم ، حتى من كانوا فى خدمته فتخلوا عنه ونهبوا أمواله .

أما خاصة رجال صلاح الدين الذين أحاطوا به من قرب : من القادة والعلماء والدعاة والمهندسين وغيرهم فى شتى المناصب والأعمال فقد آزروه بما يجل عن الأمثال ويعز عن الأضراب ، وكان معظم القادة من اخوته وأولاده وأصفى أصدقائه ، ومن الذين تعودوا اللقاء واستخفوا بالمعارك ، وقد اختار من العلماء أصدقهم وأوفاهم ، ومن المهندسين أدقهم فنا وأكثرهم نشاطا ، ومن الرسل أخبرهم وأكتمهم للسر. واذا لم يكن لصلاح الدين خيار فى اختيار أهله ، لأنه منهم ، فقد كان له الخيار فى اصطفاء الصلحاء من كل النواحى :

من حلب ودمشق وشيزر ، ومن غزة وعسقلان والأردن ، ومن مصر والاسكندرية ، ومن بغداد وأقصى البلدان . قوم تختلف شهرتهم فى السياسة والعلوم والآداب والفنون والحروب ، قد دعاهم اليه من كل

بلد ، فكان له من كل بلد معين وصديق . وتلك احدى فرائد صلاح الدين .

بعض الاخطاء

وليس من شك فى أن صلاح الدين كان متجردا — أو تجرد وهو سلطان — عن أى نزعة الى كسب شخصى ، وانما كان منصرفا كل الانصراف الى خدمة أمته ، ليس غير ، ومن يفعل مثل ذلك لا تذكر الناس له أخطاء .

ومن كل ما سبق لا تكاد تبدو على صلاح الدين غلطة أو هفوة ، ولكنه انسان ، وابن آدم لا يسلم من عيب ، فقد أخطأ فى الحرب أحيانا ، وقصر فى اجتناء النصر ، وأخطأ فى غير ذلك ، وسنعرض لأخطائه هذه وغيرها فى أثناء هذا الكتاب .

ولكنا نبادر فى هذا التقديم الى الكلام عن خطأ الاسراف ، فانه داؤه وداء آل أيوب جميعا ، وقد كان غلطته الدائمة التى طالما أوقعته فى قلق واضطراب ، ولم تفلح معه التجربة ولا العظة . وهذا شأن الكرماء ، لأنهم — كما يقال — لا تعلمهم التجارب .

وذلك أن صلاح الدين لم يمسك المال : لا ماله الخاص ، ولا مال الدولة العام ، بل كان ينفقه كله بغير مبالاة : كان كأحد ملوك العطاء فى أوصاف الشعراء : كان يهب الولايات ويمنح القلاع ويقطع الأرض ، وكان يفرق رءوس الخيل ويقسم الغنائم والأموال والأثاث والكتب ، وكان فى كل ذلك لا يبالى ، وكأنه أحد المسرفين المبددين .

وليس هذا قولنا فيه ، ولا ادراك المؤرخين من بعده ، وانما هو قول خزنة أمواله ، فقد حدث بعضهم أنه كان يخفى عنه ما فى خزائنه حتى لا يبدده . وقد شكاه أخوه من تبديد ألوف كثيرة فى ليلة واحدة

أرسلها اليه أخوه غب فتح القدس ، فأرسل اليه فى اليوم التالى يطلب غيرها ليفرقها ، فأرسل اليه .

وقد يكون لصـلاح الدين عذر فى أن يهب ويعطى غب المـواقع والانتصـارات حتى يجتذب الأمراء والولاة ، ويكافىء المطـوعة حين النصر ، أو يعوضهم حين الهزيمة ، ويقرب اليه قلوب الأعداء . كما قد يكون له عذر آخر : هو فلسفته فى الحياة ، اذ لا ضرورة — فى رأيه — لاقتناء المال ما دامت الدولة كلها له ، لأنه مهما طلب فانه سيجد ، أما اذا ذهبت الدولة منه لغيره فلن يبقى له شىء من عام أو خاص ، فلا ضرورة اذن للاقتناء . ولعله درس تعلمه من أسـاتذة دولته : زنكى وابنه نور الدين ، وسنعرض لهذا الدرس فى أثناء الكتاب .

قياس الازمنة :

هذا صلاح الدين ، وهذا عصره ، فهل عدنا اليوم كما كنا بالأمس ؟

يقول بعضهم : ان التاريخ لا يعيد نفسه ، ويقول آخرون : انه يعيد نفسه ، وأرى الثانى أصح الرأيين ، وعليه اجماع كبير . حقا ، انه لا يعيد نفســه بحيث تنطبق الحوادث فى زمنين مختـلفين تمام الانطباق كانطباق المثلثين فى علم الهندسة ، ولكنهما يتطابقان تطابقا ملموحا ، كما فى التشبيه اللغوى ، تكفى فيهما عدة وجوه ، أو وجه واحد لا غير .

غير أن حوادث الزمن عادت كما كانت ، وعلى الأرض نفســها ، ومن سوس الداخل وغربان الخـارج ، وهما مرة يفترقان ومرة يأتلفان ويتفقان ، وقد قرمت الشهوات ولمعت مطامع الدنيا ، ولكـن الأمة تضمن بين جوانحها صلحاء كثيرين ، وجمهور الناس يريد الخلاص .

ليس فى زمننا خلفاء ، ولكن فيه من يشبهونهم ، والامارات تسمى دولا ، ولو أطلقت أيدى ولاتها لتحاربوا ، ليوسع كل منهم فى رقعته

ويبسط سلطانه ، والعدو الأجنبى قد ملك جزءا كبيرا من الساحل ، وقطع الطريق بين دمشق والقاهرة قريبا من أرض عســقلان نفسها وقريبا من أرض الكرك والشوبك نفسهما ، وقد قام على الدعوة للوحدة والجهاد داع جديد .

غير أنه يختلف عن صلاح الدين ويتفق معه : يختلف عنه فى صلاته بأمراء الولايات وحكام الدويلات : ذلك أن صلاح الدين رأى أن يقاتل — فى سبيل الوحدة — كل من يتصدى لها ، حتى أستاذه بالأمس وابن أستاذه ، ولم يرجع عن خطته الا فى أخريات أيامه ، وقبل موته بست سنوات لا غير — حيث كانت الوحدة قد تمت بين الولايات العربية وقليل من غيرها — وقد نصح له مشيروه أن يقلع عن خطته فى محاربة أمراء المسلمين ، فنذر أن لا يحاربهم بعد ، ونذر مضطرا لأنه كان عليلا مريضا يلتمس الشفاء .

وكان آل أيوب على رأيه ، ما عدا أباه نجم الدين ، فانه كان لا يجيز أن تلتقى عساكر المسلمين فى حـروب بينها ، ولكنه لم يلتزم رأى أبيه هذا ، وكان ذات مرة قد فكر هو وآله أن يلقى نور الدين ، غير أن أباه ثناه عن رأيه وصده عن قصده .

أما داعى اليوم فانه رأى أن لا يقاتل عربى عربيا ولا مسلم مسلما ، مهما دعت الدواعى وألحت الخطوب . والزمن — فى رأيه — كفيل أن يردع الولاة ويجذب الخارجين ويقهر المعاندين .

أما العدو الأجنبى فلا يرى له الا لقاءه ومقاتلته ، فهو يخالف صلاح الدين فى علاج أمر الداخل الى أفضل مما رأى صـلاح الدين وعالج ، ويتفق معه فيما لابد منه من حرب الأجنبى وملاقاته ، فكأنه صلاح الدين .

القدوة الحسنة :

والغريب أن صلاح الدين مهما أخطأ فقد نسيت أخطاؤه ، وستر بياض انتصاراته سواد هزائمه ، وغريب كذلك أن يظل فى صلاح الدين — بعد موته بأجيال — سر من الجاذبية القوية يجذب القادة والأبطال الى قبره الساكن كما كانوا يلوذون به حيا فى خيمته المتحولة ، وسواء فى ذلك المنتصر أو المنهزم أو الزائر العابر .

وهكذا ظل اسمه لامعا ، ومحاسن سيرته متلوة ، فاستحق أن يكون أعلى قدوة ، وهو فى هذا الجانب يبدو حظا سعيدا لعصرنا اذ نرى فيه المقدمات والنتائج وما بينهما ، ونطمئن — حين نسير على ما يليق بنا من خطاه — الى أننا نسير على الخطة ونمشى على الجادة ، ولم نخطىء حين قلنا — من قبل فى هذا التقديم — انها مهمة التاريخ ، ووظيفة الاقتداء وحكمة الانتفاع بالقياس .

وأى فارس معلم مر فى حقيقته مرور أسطورة — وهو من آبائنا — يصلح أن يكون قدوة لنا غير صلاح الدين ؟ لقد كان وحده الفارس المعلم الذى يفتخر به قومه ويتغنون به كأسطورة خيالية حلوة التكرار ، وستظل حلوة فى أفواههم حتى غاية الأبد .

انه لفارس ارتبط بمتن فرسه ، ولم يفارقه كمنزل متنقل ، أكثر من ربع قرن ، حتى انه كان يمرض فيحملونه الى الخيمة فيثقل عليه المَرض ، حتى اذا شدوه الى ظهر حصانه اعتدل وعوفى أو نسى العلة ، لأنه سكن الى فراشه الوثير وركب صهوة ملكه وسلطانه .

ولقد اعوج ساقاه من كثرة ركوبه ، فكان اذا مشى على الأرض عرج ، فلم ير أن يراه الناس الا راكبا ، كما لم يره الناس منذ انفتحت عليه أبصارهم قد خلع لباس الجندى الا مرة واحدة فى دمشق ، وكانت قبل وفاته بأيام .

وكان أصعب من ركوب الفرس طريقه الذى يشقه ، وكثير من الناس والقراء لم يروا أرض الشام ولا جبال لبنان والأناضول ، وسيارات عصرنا تحترق آلاتها وتزل دواليبها وهى مصعدة فيها ومنحدرة ، والمتنبى وهو فارس دولة بنى حمدان يقول — وقد تردد أن يعبر بفرسه جبال لبنان فى الشتاء :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها   وهو الشتاء ، وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها على مسالكى   فكأنها ببياضها سوداء

أما طريق صلاح الدين فى هذه الجبال وتلك الوديان مصعدا أو مجرجما ، فكان كالنسر اذا نهض والقمة اذا انحدرت والعاصفة اذا هبت ، ومن حق الناس أن يصدقوا خيالات الأساطير اذا رأوها قد أصبحت حقائق فى حياة صلاح الدين !

وفرس صلاح الدين وأفراس أصحابه ، وهى لا تبلغ أقدار قطع من الأحجار فى جدران الحصون ، كانت تروع القلاع وتمنع عنها الكرى وتسلبها الحياة أكثر مما تفعل مدافع زماننا وأدوات قتالنا ، لأنها حملت فارسا صمم على أن يموت دون قومه ودينه أشرف الميتات ، ولم يتردد ولم يتحول حتى جاءه الموت ، وهو كماأراد .

كتابى فيه

وسيرة هذا البطل من أغنى السير بما كتب فيها ، بل تكاد تكون أغناها ، لأنه من أكثر وجوه الأبطال فتونا ، بل هو بطل رواية الفروسية الحقيقى ، ولم يخطىء الفرنجة حين فتنوا به فجعلته زوجة الملك فى احدى القصص الفرنسية مثال الرجولة الكاملة ، فأرادت من أجله الفرار من زوجها الملك اليه .

ومنذ كان صلاح الدين حيا سارت معه وفى أثره أقلام أصحابه ، فدونت كل ما رأته فى يوميات لم تهمل شيئا ، فلما جاء أبناؤهم تبعوهم فأكملوا ما فاتوا وبسـطوا ما أجملوا ، فلـما جاء عصرنا ونبهت ذكرى صلاح الدين واستيقظت مرة أخـرى — بوجود الرائد الجديد والقائد الشبيه — عاد الكتاب عليه ، بروح عصرنا ، يعرضـون قصته ويفصلون أسطورته ، ويشعلونها ضوءا وقدوة ، فصار لصـلاح الدين غنى جديد وذكر فريد ، حتى بعد موته بمئات السنين .

فلما نويت أن أجعل فيه كتابا ، ورأيت القدامى والمحدثين قد أوفوا على الغاية ، جانبت طريقتهم الى كتاب تبـدو فيه العبرة وتبين القدوة ، راميا الى الايجاز حينا والتفصيل حينا ، مقسما تاريخ صلاح الدين الى أقسام تتجاوز مجاراة الزمن ونظام السرد ، وقد رأيته أخف وأروح ، وذلك ظنى وقدر اجتهادى ، ولكل مجتهد نصيب .

كما أننى أردت أن يقع القارىء — فى دقة وسلامة — على وجوه الشبه بين أحداث زماننا وزمانه ، غير جاعل ، الا للبحث العلمى ، مشابه الحوادث ومنافع التجارب ، وعسى أن ينبىء الصـدق عما أقول فيكون للكتاب قيمة ما أردته له عند المنصفين .

وقد أتاح لى القدر حظا غير قراءة صـلاح الدين فى مراجعه التى أشرت اليها فى فهارس هذا الكتاب ، فقد رأيت المنطقة التى تمثلت عليها أيام صلاح الدين ، أو رأيت معظمها :

رأيت الساحل كله ، وقطعته ما بين مصر وحدود الأناضول ، وعبرت الأردن وفلسـطين ومنطقة القـدس ، وشـاهدت طبرية وعكا وصـور ومرجعيون وقلعة الشقيف ، ونزلت بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب ، وسلكت أفواه الجبال فى ساحل لبنان كله حيث كان فرسان الدروز العرب فى جيش صلاح الدين يحبسون الفرنجة الغزاة عند شط البحر ويصدونهم

عن الولوج ، ثم بقيت سلالاتهم الى اليوم تسـكن بعض هذه الأفواه ، وتفتخر بأنها حفظتها يوما ما من غزو المغيرين ، كما أنها تنتصر بقـوة الى الرائد الجديد .

وها هو ذا الكتاب ، فعسى الله أن يكتب له وينفع به ، فيكون عبرة من التجربة ، وقياسا للأزمنة ، وانتفاعا بالتاريخ . والله ولى التوفيق .

عبد العزيز سيد الاهل

عضو المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

يوسف بن أيوب

- مولد الأبطال
- قلعـــة تكريت
- نجم الدين أيوب
- يوسف بن أيوب
- فى الموصل وبعلبــك
- فى دمشق
- مع شيركوه
- شحنة دمشق
- يوسف وملاعبه
- سلم المجـــد
- منازل سكناه
- العظمة والألقـاب
- فى الوسط العربى

مولد الابطال :

لا ضرورة لأن يكون لكل قائد بطل شباب فذ غريب الأطوار ، أو طفولة عبقرية خارقة ، بحيث تؤدى الى نتائج محتومة بأسبابها ، كما يحاول كثير من المؤرخين أن يفعلوا ويصوروا ، وانما يكفى من صفاته — حين يتم أمره — أن يعرف ببعض المواهب ، وخير منها أن يلتزم الخطة التى يرسمها لنجاحه بوعى وبصيرة ، وأن يرسم طريقه التى يسلكها فى حذر ودون تردد أو انحراف .

وقد سبقنا نحن الى هذا الرأى ولكنا نزيده تفصيلا : فالذين يعنتون أنفسهم ليخلقوا للأبطال قصصا كرءوس الأغوال مخطئون ، فالهبات قد تكون جبلات مخلوقة ، وقد لا تظهر الا فى أوقات معينة من العمر ، وقد تظل مختفية فى أدوار أعمارهم الأولى فلا تظهر منها علامة ولا دليل . وكثير من الأبطال والقادة ، وحتى الأنبياء ، مرت فى بداية أعمارهم مقادير من الأزمنة منسية مجهولة ، حتى اذا ما استووا على الرسالة أدوها ، وهم فى القمة ، كما يجب أن تؤدى .

ويوسف بن نجم الدين أيوب كان أحد أولئك الذين درجوا كغيرهم من الشباب ، وكانت ميزته أنه يبدو على بعض الاعتدال ، أو يقبله اذا نبه اليه ، وهى ميزة تبشر بخير . حتى اذا استوت له الرياسة وهو ابن ثلاثين كان كفؤا لها قادرا عليها ، أقدر من كل من كان على الحكم والسلطان فى المنطقة كلها ، مع أن زملاءه لم يروا صلاحه للوزارة وهو فى هذه السن ، والذين استوزروه اختاروه لأنه كان فى نظرهم صغيرا يمكن التغلب عليه .

قلعة تكريت

ومنذ علا نجمه التفت أهل التنجيم بالحساب يرتدون مع تاريخ الأيام حتى يعرفوا مولده ، بمراجعة السنين التى قضاها بعد أن ترك « تكريت » . وقد كان مولده لا يعرف على التحديد .

فلما تتبع هؤلاء مولده — على قياس حسابهم — اقتضى ذلك أن يكون فى سنة (٥٣٢ هـ — ١١٣٧ م) . أما المكان الذى ولد فيه فكان قلعة تكريت . وتكريت كانت بلدة قديمة أقرب الى بغداد منها الى الموصل وقد قامت فى طرفها الأعلى قلعة حصينة راكبة على دجلة ، بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم ، وجعلوها مخازن للذخيرة ومراقب تكون بينهم وبين الروم لئلا يدهمهم من جهة الروم أمر على فجأة ، ثم افتتحها المسلمون فى السنة السادسة عشرة من الهجرة أيام عمر بن الخطاب (١) .

وظلت تكريت تتنقل تحت دول المسلمين حتى كانت تحت الدولة السلجوقية ، واتصل أيوب بن شاذى بأحد رجال « الشحنة » السلجوقية ببغداد واسمه « بهروز » فجعل أيوب حاكما على قلعة تكريت ، وجعل معه أخاه « شيركوه » أسد الدين ، فصار أيوب وهو يحكم القلعة أشبه بحاكم تكريت .

وكان هذان الأخوان قد قدما الى العراق من قرية فى أقصى حدود « آذربيجان » يقال لها « دوين » فى ناحية من اقليم « آران » . وكانا من الأكراد الروادية ، فنزلا تكريت وعملا فى شحنة بهروز . والحق ان أباهما « شاذى » كان أول من سار مع بهروز الى قلعة تكريت فى خدمة الدولة السلجوقية فلما مات شاذى ولى بهروز ابنه الأكبر أيوب أمر القلعة ، وكان قد تعلم حراسة القلاع وسياستها من أبيه ، فنهض بأمرها كما كان قد نهض أبوه .

والأكراد الروادية بطن من « الهذانية » وهى من أكبر القبائل الكردية ، وقيل : ان نجم الدين أيوب قد ولد بقرية على باب « دوين » اسمها « أجدانقان » وأخذ شاذى ولديه من هذه القرية وخرج بهما الى بغداد فتكريت حيث مات شاذى بها . فهى أسرة صغيرة ، لم يعرف من

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨ .

رجالها غير أب وولدين ، والابن الأكبر ، وان لم يؤسس دولة ، وانما أسسها أولاده وأحفاده ، فقد سميت باسمه ونسبت اليه .

وقد وقفوا بالنسب عند شاذى الجد ، ولكن بعضهم وصله بآباء من العرب فى سلسلة تنتهى عند مضر الذى ينتمى الى عدنان (١) ، فقالوا : انه عربى . وقد كان لهم عذر فى هذا الظن ، وحتى اذا صار محصورا فى المولد ، فان بعض قبائل العرب كانت قد سكنت نواحى تكريت ، فلم يكن كل سكانها من الأكراد ، وقد نزل العرب بها مهاجرين من حلب وما حولها أيام فتنة الأمين بن هرون الرشيد ، ونزل قوم منهم أيضا بأرمينية وفى بلدان كثيرة هناك ذكرها « البلاذرى » فى فتوحه (١) .

بل ان هذه المناطق حتى ما وراء « آذربيجان » لم تخل من العرب الذين استوطنوها منذ الفتوح الأولى . وقد أراد بعضهم أن يجعله تركيا ، ولكن المؤرخ « سيديو » يتعصب لكرديته ويسوق الأدلة عليها ويقول : فيوسف — على هذا — كردى الأصل — لا يمت بصلة الى العرق التركى (٢) .

نجم الدين أيوب :

وكان من حظ أيوب أن يكون الأشهر كما كان الأكبر ، على أنه يستحق حظه ، لأنه شب عاقلا رزينا ، وأدق ما وصف به آنه كان رجلا نزر الكلام ، فلا يتكلم الا عن ضرورة ، وهذه أشبه بصفات القضاة ، يسكتون حتى يجدوا طريق القول ، وينصتون حتى يحكموا وينصفوا ، والصمت أزين ما يتحلى به العقلاء .

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩١ — روضة المناظر ص ٧٧ — وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٣ ، ج ٦ ص ١٤٠ .
(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٢) تاريخ العرب لسيديو ص ٢٦٢ .

وكان أيوب مع صمته وعقله حسن السيرة منكبا على الفروسية باحثا عن أنساب الخيل ، ولعا بلعب الصوالج عليها ، بحيث يظن من يراه وهو يلعب بها وجواده يركض به كالعاصفة أنه ما يموت الا من وقوعه عن متن فرس . وكانت نبوءة تحققت ، فقد خرج أيوب راكبا الى باب النصر بالقاهرة فى يوم من أيام ذى الحجة سنة (٥٦٨ هـ — ١١٧٢ م) وركض بفرسه فجمحت ، فسقط عنها ، فحمل الى داره متوجعا ، ثم مات بعد بضعة أيام ، وكان ابنه على مصر سلطانا ، ولكنه كان حين ذلك خارج القاهرة : كان يحاصر « الكرك » فبلغه هناك خبر موت أبيه (١) .

وقد تولى نجم الدين أيوب منصب الحاكم على قلعة تكريت فحاكم قلعة « بعلبك » فقائدا من أكبر قواد نور الدين محمود بن زنكى فحاميا لدمشق فخازنا على بيت المال بمصر فى وزارة ابنه للخليفة العاضد ، فعرف بذلك أهم المناصب . وأهمها ما كان عسكريا أو يختص بادارة القلاع وحفظ الحصون .

يوسف بن أيوب

وحين كان نجم الدين أيوب على قلعة تكريت رزق بمولود أسماه « يوسف » ولا بد أن يكون ملحوظا من الآن أنه تشبه بيعقوب النبى حين سمى ابنه الصديق « يوسف » . الا أن مأساة هذا جرت مبكرة ، ففى الليلة التى ولد فيها حدث أمر مقلق لم يكن على بال ، ولعل تسمية الوليد بيوسف قد جاءت بعد أن وقعت المأساة :

ذلك أن عمه « شيركوه » أسد الدين قتل أحد قواد بهروز أو أحد غلمانه ، من أجل امرأة آذاها القائد أو الغلام ، فانتقم للخلق والمروءة

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٧ — النوادر السلطانية ص ٣٦ — ذيل النوادر ص ٢٦٧ .

حين استغاثت بفارس يمر فقتله ، والنخوة خلق الفارس ، ولكن أخاه أيوب حاكم القلعة وحاكم البلدة لم يهمل الجناية ، فأصدر أمره باعتقال أخيه فاعتقل ، ولكن بهروز وقع فى حيرة من شأنه وشأن ضيفيه : فقد خاف على نفسه من القواد أو الغلمان ، ورهب شيركوه لمجازفته ، ثم خاف على أيوب وأخيه أن يصيبهما الأذى ، وقد أحسنا اليه فى خدمته ، فجاء بهما مظهرا الخوف عليهما ، وطلب اليهما أن يخرجا فى ليلتهما من تكريت الى حيث يريدان ، وحيث يجدان رزقهما ، فخرج الرجلان يقصدان الموصل ، وقد حملا أسرتيهما ، وفى رحل نجم الدين يوسف ابنه الطفل المولود .

قال ابن خلكان :

ولم يقم والده بتكريت بعد ولادته الا مدة يسيرة ، ولعل خروجهما كان فى السنة التى ولد فيها ، أو فى السنة التى وليتها ، بل يقولون : انهم خرجوا من تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين ، فتشاءموا به وتطيروا منه ، فقال بعضهم : لعل فيه الخير ، وما تعلمون ! فكان كما قال (١) .

هذا ، ولم يذكر المؤرخون عن أمه شيئا سوى أنهم قالوا ان خاله هو « شهاب الدين الحارمى » فاذا كان منسوبا الى « حارم » التى كانت حصنا عند أنطاكية وهى اليوم من أقليم حلب ومن أقرب بلادها الى لواء الاسكندرون كان الأمل فى أن تكون أمه عربية أملا آخرا جديدا ، ولكن لفظ « الحارمى » جاء على غير صورة واحدة فى كتب التاريخ ، فبعضهم قال الحارمى (بالحاء والراء) وبعضهم قال الجارمى (بالجيم والراء) وبعضهم قال الحازمى (بالحاء والزاى) فكثر الاضطراب فى اسمه فلم نستطع أن نبت فيه برأى الا اذا ثبت أنه اللفظ الأول فيكون الظن فى أن تكون أمه الحارمية عربية قريبا .

(١) وفيات الأعيان ٦ ص ١٤٤ .

فى الموصل وبعلبك :

ولم يسر الطريدان المدلجان بعيدا فقد حطت رحالهما بالموصل من قريب ، ولم يطل بهما الشقاء ، فقد كانت لنجم الدين أيوب يد على صاحب الموصل ، فذهب اليه يستردها ، أو ذهب ليفىء فى ظل منها ، وكانت اليد عند رجل وارف الظلال :

كان عماد الدين زنكى صاحب الموصل قد حارب السلجوقية عند تكريت أيام كان بهروز الخادم الرومى الأبيض فى خدمتها ، وكان من أعوانه فى تلك الخدمة أيوب وأخوه شيركوه ، فانهزم عماد الدين وكاد يؤخذ ويؤسر ، ورأى نجم الدين حاكم القلعة أن عماد الدين أولى أن ينتصر أو ينجو ، لما كان قد عرف من حسن قصده وبعد غايته ، فلما رآه نجم الدين منهزما أحضر له سفنا فعبر بها دجلة ونجا هو وأصحابه ، فأبقاها عماد الدين يدا لآل أيوب ، وعلم بها بهروز فعدها عليهم ، ويقولون : انها السبب الأول فى طردهم ولكنه أبقاها فى نفسه حتى جاء سبب آخر هو قتل القائد أو الغلام (١) .

فلما بلغ الرجلان الموصل لقيهما عماد الدين بالترحاب ، وجازاهما على ما صنعا معه من الجميل عند تكريت ، فلما امتلك قلعة « بعلبك » فى بداية توحيد الاقليم السورى استخلف عليها نجم الدين ومكن له فيها ، فعمر بها أيوب دارا للصوفية وسماها « النجمية » وكان رجلا — كما قالوا — كثير الصلاح حسن الطوية (٢) . أما شيركوه فقد صار عند عماد الدين فى رتبة ابنه نور الدين ، بل كان نور الدين يندرج أحيانا فى عسكر « شيركوه » (٣) .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٤ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٤ .
(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٢ .

فى دمشـق :

فلما تولى نور الدين بعد موت أبيه انضم اليه الأخوان وعاوناه عرفانا له ووفاء لأبيه ، فقد بدأ نور الدين يشمر عن ساعديه لمدافعة الصليبيين ، ولأول مرة يلقى المعتدون فيه خصما عنيدا ، فأعجب بسلوكه أولاد شاذى كما أنه احتاج اليهما لعلمهما بالحرب وشئون الحصون .

ونصف المملكة الذى ورثه نور الدين عن أبيه كان الى الغرب من نصيب أخيه سيف الدين ، فكان مجاورا للصليبيين ، فكان لا بد من الاحتكاك بالعداوة ، فتعاون الثلاثة على الأمر ، وجعل ملك نور الدين يمتد ويتسع ويستتب ، وصار أمر الأخوين يعلو مع علو أمره وامتداد سلطانه ، فصار أيوب من أكبر أمرائه فى عسكر دمشق ، وصار شيركوه صاحب حمص والرحبة ، ومقدم عسكر نور الدين كله لما رأى من شجاعته وبأسه .

مع شيركوه :

واتصف شيركوه بمجازفته بنفسه عند القتال ، وكان التناسب وثيقا بين فعله ولقبه فسمى بحق « أسد الدين » ، كان كالفدائى الذى لا يفر من المعركة بل هو يطلبها ، ولا يقتل من جنوده واحد الا فداه بآحاد ، وحين لقى الفرنجة فى الحرب صار فى خيالهم غولا يعذرون الخائف اذا فر منه . وكان قد أتقن قديما شئون القلاع ، فلما لقى الفرنجة تعلم منهم ترتيب الجند ، والافتنان فى المكر والتدبير ، وعقد بلوائه النصر فلقب بالملك المجاهد (١) .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١١١ ، ١٢٢ — مفرج الكروب ج ٢ ص ٣١٢ .

وصحبه يوسف بن أخيه فتأثر بشجاعته ومجازفته ، وتدبيره وفنه ، وصار مثله ، فكان اذا انكسر جانب عمه فى الجيش حمـل (٢) بنفسه وجازف بها (١) فرد الهزيمة انتصارا .

وكما كان شيركوه ثبت الجنـان كان خارق الذكاء بارع الحيلة ، لا يحيط به الكرب الا اخترع له ما ينجيه منه . ومن طريف ما حكوه عن ذكائه : أنه لما قتل وزير مصر « شاور السعدى » وكان هو متهما به ، استدعاه الخليفة العاضد ليوليه الوزارة مكان شاور ، ولكنه ما كاد يجاوز خيمته ويدخل القاهرة فى اتجاه قصر الخليفة حتى رأى جموعا كثيرة من العامة تسـد الطريق ، فظن شيركوه أنهم من أصحاب شاور فحذر لنفسه ، ومضى فى طريقه لم يرجع ، فلما اقترب منهم نظروا اليه فابتدرهم قائلا :

ان مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور . فتفرق المجتمعون سريعا ومضوا الى نهبها ، ودخل هو على الخليفة ، فتلقاه بالتكريم والمهابة ، وأفاض عليه خلعة الوزارة ولقبه : « الملك المنصور أمير الجيوش » (٣) .

شحنة دمشق :

والشحنة منصب كمنصب الشرطة تجتمع فيه سلطة الاتهام والقبض والتأديب ، وقد مر على دمشق عند انتقالها الى حكم نور الدين زنكى زمن ملىء بالقلاقل والاضطرابات وعبث اللصوص ، وبات التجار عند كل صيحة يخفون بضائعهم فتقفر دمشق . وكان على شحنة دمشق أن يهدىء القلاقل ويضرب على أيدى اللصوص لتستقر الأمور .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٧ ، ج ٣ ص ١٧٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٠ .

وكان يوسف بن أيوب قد صار شابا ينتفع به ، فولاه نور الدين — حين وثق به وجربه — منصب الشحنة ، ولـكنه لم يكن فيه رئيسا صاحب أمر مطلق ، وانما كان عليه أن يتقيد برأى القاضى الذى يشرف على منصبه بحكم النظر فى المظالم والبت فيها ، وكان يدعى « كمال الدين الشهرزورى » ، فعلى يوسف الأيوبى أن يعمل تحت مشورة القاضى ورأيه ولا ينفرد فى منصبه بأمره .

واذ تولى يوسف العمل فى الشحنة جعل يخالف رئيسه ، فجعل القاضى يعكس مقاصده ويكسر أغراضه ، ويعترضه فى أوامره ، ومع أن كتب التاريخ لم ترو تفاصيل هذا الخلاف فانها تقول : ان القاضى كان يتوخى الأحكام الشرعية ويتعصب لها فحدثت بينهما المجافاة .

ويبدو أن يوسف بن أيوب — مثل كل الشبان الذين يعتزون بآرائهم فى أول ظهورهم — لم يكن يريد الا أن يعمل برأيه فى منصبه الذى اختير له ، وان ناقض هذا الرأى بعض أحكام الشرع ، أو قصر دونها ، ولعل يوسف كان يريد أن يقضى فى بعض الأمور بالظنة ، ويريد القاضى ألا يقضى فيها بغير الأدلة والشهود .

غير أن الطبقة العاقلة والتى تريد أن تستتب الأمور عاجلا ولو كان ذلك بأوامر ادارية ظنية قد فرحت بتولى يوسف منصب الشحنة ، ويبدو أنها كانت تعرف من صفاته لياقته له وقدرته عليه ، أو كانت ترى توليه أمر هذا المنصب ضرورة ملحة فى الوقت الذى أسنده اليه نور الدين .

ولعل حسان بن نمير المعروف « بعرقلة » الدمشقى يوضح فى فرحته بيوسف لشحنة بلده أسباب اسناد المنصب له ، وذلك حيث يقول :

رويدكم يا لصـوص الشـآم   فانى لـكم ناصح فى المقـال
أتاكم سـمى النبى الـكريـم   يوسف رب الحجا والجمال

فذاك يقطع أيدى النساء   وهذا يقطع أيدى الرجال (١)

وقد ذكر صاحب « كنوز الأجداد » أن سطو التركمان والحرامية على دمشق كان قد فشا وكثر منذ استيلاء نور الدين على دمشق (٢) والأطراف ، فانتهز الشر اضطراب الأحوال حين انتقال الملك وانطلق كما يريد ، وذلك برغم استقامة نور الدين وسهره على مصلحة الناس .

وقد أحب يوسف منصبه هذا فى دمشق برغم خلافه مع القاضى وآثره على غيره ، ويبدو أنه لقى فيه نجاحا فامتنع اللصوص أو قلوا واستتب الأمن ، حتى انه لما دعى ليخرج مع عمه شيركوه الى مصر فى المرة الثالثة لبى الدعوة مرغما وخرج من وظيفته بالشحنة مغضبا (٣) مع أنه كان قد تمنى أن تكون له مصر ، وكاشف بعض أصدقائه بأمنيته هذه وسيأتى الكلام عنها فى موضع من هذا الكتاب .

وقد ظهر — فيما بعد — أن يوسف بن أيوب لم يكن ذا قلب يحقد ، فانه لما صار سلطانا وصارت له دمشق مع مصر جاء برئيسه القاضى الشهرزورى وثبته فى قضائه ، ولم يؤاخذه على ما كان يصدر منه فى مخالفته وعكس مقاصده حين كان شحنة تحت رياسته ، بل أكرمه واستشاره ، وكأنما تحول يوسف الى تقبل الأحكام الشرعية حين نضج وجرب (٤) ، فأقر رأى رئيسه القديم ، وجعله من أصدقائه وقضاته ومستشاريه .

يوسف وملاعبه :

لقد وصفه عرقلة الدمشقى الشاعر بالجمال — كما رأيت — ولست أظنها ضرورة شعر ، فالصور المنقولة له والمتخيلة كلها تنطق بجماله وتشير

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٢٦ .
(٢) كنوز الأجداد ص ٢٩٦ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨ .
(٤) مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٠ .

اليه ، وان كانت الصور التى تعرف به قد رسمت وهو فى أخريات أيامه .

وقد لعب يوسف الشطرنج ، ومع أنه لم يدمن عليه ولم يتخذه حرفة ككل هواة الشطرنج ، فانه قد قهر فى اللعب به ، وكان يجتمع عليه أصحابه أحيانا عنده (١) فى دمشق للتسلية واللعب . كما أنه ركب للطرد واتخذ الصيد رياضة (٢) . وكلا اللعبتين قد أعانه ابان الحروب على قيادة الجند والتصرف فى المآزق تصرفا منجيا . وقد علمت أن رائد العرب اليوم يلعب الشطرنج ويفضل لعبته . ولكنى لم أعرف أنه يركب للصيد والطرد . ولعل ذلك يرجع الى الفرق بين القاهرة ودمشق ، حيث هناك فى دمشق مسارح الظباء والغزلان .

وقد قيل : ان التشاغل بالصيد يصرف عن النظر فى أمور الرعية ، وهو قول حق متى كان الطرد شاغلا دائما ولهية مستمرة ، وقد رأيته فى ولاة من أهل زماننا ، وقد جعلوا لهم يوما فى الأسبوع يصيدون فيه ويطردون ، وهم فى هذا اليوم لا يرعون للرعية شأنا ، فكيف بهم لو اتخذوه شاغل العمر ولهية الأيام ؟! أما اذا كان وسيلة من وسائل الفروسية فانه يكون حينئذ أمرا نافعا بل أمرا لازما .

وقد اتخذ يوسف الصيد وسيلة للفروسية ، اذ كان همه فى الخيل اكبر من همه فى الصيد ، لأنه أضاف اليه علمه بأنساب الخيل (١) ، وهو الدليل على ما نقول ، وقد يسر له أبوه معرفتهما : الفروسية والأنساب ، فكان شبه أبيه حين الركوب للصيد أو القتال ، من حيث علمه الشطرنج — على ما نظن — بعض خطط الوثوب .

ولقد كان العصر عصر فروسية وصيد وقلاع ، فاتخذ الفرسان الصيد واقتنوا آلاته وطيوره لارهاف الحاسة وسرعة البديهة وترقب الفرصة ،

(١) معجم الادباء ج ٥ ص ٢٠٣ .
(٢) جيش مصر أيام صلاح الدين ص ١٠٤ .
(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٨ .

فمكنت هذه الرياضة لكثير منهم أن ينجوا من المهالك اذا حضرتهم عقولهم وتجاربهم فيها .

وقد حكى أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار أن أحد فرسان المسلمين فى أيامه استقبله أسد ، فحاص به الحصان فرماه ، فجاءه الأسد وهو ملقى ، فرفع الفارس رجله اليه فتلقمها ، وبادره أصحابه فقتلوا الأسد واستخلصوه وهو سالم ، ثم قالوا له : لِم رفعت رجلك الى فم الأسد ؟ فقال : جسمى — كما ترون — ضعيف نحيل ، فقلت : أشغله بها عن أضلاعى أو يدى أو رأسى الى أن يفرج الله تعالى ! ويقول أسامة : فهذا حضره العقل فى موضع تزول فيه العقول (١) .

وكذلك كان يوسف بن أيوب : يحضره عقله حين تزول عقول من حوله ، ويثبت قلبه حين تخف قلوبهم وتطير ، ولم ينهب نفسه حزن اذا كان الحزن لا يجدى فى ازالة الكرب ، ولم يغير من مظهره اذا وجب أن يظل كما هو أمام العيون .

جاءه عند حلب خبر بقتل أخيه تاج الملوك ،وجاءه ابان هزيمة عكا خبر بموت أخيه الملك المظفر وكان من أعظم مهندسيه فى تحصين القلاع وتدبيرها وحراستها فلم يغير مظهره فى المعركتين حينما جاءه بريد السر بموت هذا وقتل ذاك .

سلم المجد :

ودأب يوسف على الصبر ، فخرج من معركة الى معركة ، لم يتأخر ولم يضعف ، وسواء أكان له النصر فى المعركة أو الهزيمة ، وكان أشد ما يكون اقبالا على التدبير اذا بلغ العدو مكان قدميه ، وكثيرا ما ثبت فعاد المنهزمون اليه يقاتلون معه من جديد .

(١) الاعتبار ص ٨٦ .

وأعظم ما حدث له من ذلك كان عند مرج عكا فقد انهزم جنده — ذات معركة — وتبددوا فانحاز فى نفر قليل منهم الى الجبل يجمع الجند ويردهم الى صفوفهم ، وما زال بهم حتى اجتمعوا وعادوا للقتال ، ثم انتصروا فى يومهم ذاته واستردوا ما ضاع منهم وغنموا أكثر منه .

ومنذ وطئت قدم يوسف بن نجم الدين أيوب طريق المجد ظهر كأنه أحد الأفذاذ الذين تحلوا بصفات البطولة طبعا وتعلما ، ولم يفارق ما لزمه من هذه الطباع فى حالى صحته ومرضه ، وفى يومى نصره وهزيمته ، وفى أمرى ضيقه وميسرته . بل كان أسمى ما تعلو صفاته اذا كان فى الحرب واشتدت الكريهة وضاقت حوله حلقة الحديد ، فكان حينئذ يطوف بصفوف جنده ويخترقها عليهم فى المعارك ، وربما شارف العدو وجاوز مرمى سهامه .

وعلى قدر ما كان الناس على شجاعة فى حروبهم حين ذاك فقد أثر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأثر بنو أيوب فى أصحابهم وجنودهم والأمة الاسلامية كلها أعظم تأثير ، فحارب معهم الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء والمعلمون ، ثم الصبية والنساء ، لم يتخلف أحد قط يستطيع أن يجد له منفذا الى القتال فانتصروا :

هزم شيركوه أعداءه المشارقة والفرنجة فى جملة مواقع ، وهزم تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب عشرين ألفا عند حصن « رعبان » بألف فارس ، وجعل يفتخر ويقول : هزمت بألف عشرين ألفا ! (١) وفتح توران شاه بن أيوب النوبة واليمن ، وفتح بهاء الدين قراقوش ساحل أفريقية ، وهد الملك المظفر أحصن القلاع ، وامتلك أولاد صلاح الدين أمنع الحصون ، وصار على طرازهم من الأمة الشجعان والفرسان والفدائيون ، وكان كل ذلك اقتداء بصلاح الدين .

(١) ذيل النوادر ص ٢٧٦ .

منازل سكناه

كان عماد الدين زنكى والد نور الدين حين تم له الملك واتسع ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، ويقولون فيه بسبب ذلك : انه كان سيدا يعرف معنى السيادة ، فكان يقول لهم : اذا كانت البلاد لنا فأى حاجة بكم الى الأملاك ؟ فان الاقطاعات تغنى عنها . وان خرجت البلاد من أيدينا فان الأملاك تذهب معها . ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها !

كان هذا رأى زنكى وفلسفته فى حيازة الأمراء للأملاك ، وقد صار رأى ابنه نور الدين ، ثم صار رأى صلاح الدين ، وكأنه درس تلقنه ووعاه ، فليس ينساه أبدا ، فصار لا يملك الأرض ولا يملكها ، الا على سبيل الاقطاع ، فتغل لصاحبها حتى يموت أو يخلع ، ثم لا تكون ارثا ، بل تعود ملكا للدولة يتصرف فى أمرها السلطان أو يردها الى بيت المال اذا شاء .

وقد طلب اليه أخوه العادل — ذات مرة — أن يملكه نواحى حلب : يكتب له بها كتابا كأنه بيع وشراء ، فامتنع صلاح الدين وقال له : انما تكون اقطاعا ، والبلاد لأهلها والمرابطين بهـا ، ونحن خزنة للمسلمين ودعاة للدين .

وملخص القول فى فقه الاقطاع قديما أن الاقطاع مختص بما جاز فيه تصرف السلطان ، ولا يصح فيما تعين فيه مالكه بحق وتميز مستحقه ، وهو ضربان : اقطاع تمليك واقطاع استغلال ، والأول لايجوز للسلطان الا بحق، وانما الذى يجوز فهو الثانى ، وهو مالم يزل مواتا من الأرض على قديم الدهر ، فلم تجر فيه عمارة ولم يثبت عليه ملك ، فهذا الذى يجوز للسلطان أن يقطعه لمن يعمره ومن يحييه (١) ، وكانت هذه عادة الاسلام من قديم .

(١) الأحكام السلطانية ص ١٦٨ .

ولم يعن صلاح الدين بعمارة القصور والدور ، ولم يدع أحدا يعنى بها ، ولعل غرقه فى الحروب والهجرة وراء مواقعها كل يوم كان له الأثر الأكبر فى مزاجه هذا ، مضافا الى اقتـدائه بزنكى وأولاده ، حتى ان « الصفى بن القابض » لما تولى خزانة دمشق فى عهده فبنى دارا مشرفة على قلعة دمشق ، وأنفق عليها مالا جما ، وبالغ فى تزيينها وتحسينها ، ظنا منه أنها تقع من السلطان بموقع ، ثم دعاه اليها ، لم يستحسن السلطان ما فعل خازن ماله ، ولم يعر داره طرفا ، بل كانت من جملة ذنوبه عنـده فأوجبت عزله عن الديوان .

وكان صـلاح الدين على حق فى فلسـفته والعزوف عن البنـاء والتشييد الخاص فى زمانه ، فانه لم ينزل بمكان الا توقع فيه الموت من مرض أو قتل ، وكان دائما يقول : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعى والسعادة وما جئنا لنقيم ! (١) .

وهناك درس آخر تلقاه صلاح الدين عن نور الدين : فان نور الدين حين كان سـائرا من حصن الأكراد الى طرابلس ليحاصر الفرنجة فيهـا كبسه الفرنجة على غرة ، فانهزم عسكره ، ونجا هو ، فنزل على بحيرة حمص ، وحلف بالله أن لا يظله سقف حتى يأخذ بالثأر ، ثم شرع يجمع عسكره للانتقام ، ثم أخذ بثأره بعد عام فأخذ منهم « حارم » وأخرجهم منها بعد أن امتلكوها ستة عشر عاما .

فاذا كان نور الدين قد بقى عاما لا يظله سقف حتى يأخذ بثأره من الفرنجة فان صلاح الدين تبع فلسفة نور الدين أكثر منه اذ ظل أكثر من ربع قرن لا يظله سقف الا قليلا ، وكان مسكنه الدائم خيمة متنقـلة أو صهوة جواد .

والدور التى نزلها قليلا : دار لأبيه نجم الدين كان قد اتخذها بدمشق كأنها ناد يجمع الناس ، وكانت من قبل دارا للشريف العقيقى عنـد باب

(١) غوطة دمشق ص ٢٣٢ .

البريد بدمشق فى القرن الرابع الهجرى يؤمها الناس ويقصدون سيدها الشريف العقيقى أحد أمراء دمشق وينشدون الشعر بين يديه (١) .

ودار أخرى فى قرية يقال لها « شفر عم » (٢) بينها وبين عكا ثلاثة أميال ، ولم تكن دارا على الحقيقة ، وانما كانت قاعدة قيادته حين كان عند عكا سنة (٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م) لمحاربة الفرنجة حين حاصروها .

ودار ثالثة بساحة «بزة» فى حلب ، اتخذها بين دور الشحنة للحفاظ عليه مدة اقامته ببلدهم ، فلم تكن دار اقامة . وتلك الدور سوى دار عمه شيركوه بمصر فقد سكنها حينما صار وزيرا .

هذه دوره التى عرفت ، وكأنهـا خانات يستريح بهـا المسافر فى الطريق ، أما داره التى سكنها ولم يخلها فهى الخيمة ومتن الفرس ، وقد ظل سابحا عليهما ما عاش ، ففضل بذلك بطرس الناسك نفسه الذى كان أول داعية لحرب الصليب ، ثم اشترك فى حروبها الأولى ، فلمـا حميت الحروب واشتدت المواقع تركها وفر هاربا ، أما صلاح الدين فقد أقام ولم يفر حتى مات .

ولم يكن نور الدين محمود قد اتخذ الحجاب على بابه اقتداء بعمر ابن عبد العزيز ، فأراد صلاح الدين أن يقلده ، ولكنه رجع من قريب ، فخفف من ملاقاة النـاس وأقام الحرس والحجـاب حين أكثروا عليـه واجترءوا .

العظمة والالقاب :

ولم يكد يوسف صـلاح الدين يخطو فى طريق المجد ويربح فى معاركه وتجاربه حتى أضاف اليه الناس الألقاب وأكثروا له الكنى ، وقد

(١) الناصر صلاح الدين ص ٧٧ .
(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٣ .

تسابق فى ذلك الرؤساء والعامة ، وظلت هذه الألقاب والكنى تتعالى كلما تعالى حظـه وتوافر نصره : فسمى أبا المظفر والسلطان النـاصر وخادم الحـرمين ومنقـذ بيت المقـدس وصـلاح الدين ، ودعاه نور الدين « الاسفهسلار » أى مقدم الأمراء ، ولكن كنية صلاح الدين غلبت عليه فاشتهر بها ، حتى كادت تغطى على اسمه الأول ، بل استطاعت وصـارت عليه علما .

وقد ظل صلاح الدين يتعالى حتى بلغ من العظمة ما لم يبلغه ملك عربى أو فرنجى فى زمانه ، وأحاطه الأمراء والملوك بالاعظام والاجلال ، وصاروا معه كأنهم من أتبـاعه . وقد حكوا أنه خرج ذات يوم لتوديع « قيصر شاه » بن « قلج أرسلان » صاحب الروم ، وكان قد جاء لزيارته ، فلما ركب السلطان لتوديعه ترجل قيصر شاه فترجل السلطان تعظيما له وجبرا لخاطره ، ثم هم السلطان بالركوب ، فتقدم منه قيصر شاه وسانده من عضده حتى ركب ، وكان السلطان « علاء الدين زنكى » صـاحب الموصل حاضرا ، فتقدم هو أيضا يسوى ثياب صلاح الدين ، فقال بعض الحاضرين :

ما بقيت تبالى يا ابن أيوب بأى ميتة تموت ! يركبك ملك سلجوقى ، ويصلح ثيابك ابن أتابك زنكى ! (١)

وهذا كان رأى الناس فيه ، أما هو فكان أعظم مما قالوا : كان لا يرى العظمة فى الركوب واصلاح الثياب ، بل كان لا يراها الا أن يموت أشرف الميتات (٢) .

وبين نظر الأبطال الى نفوسهم ونظر الناس اليهم خلاف :

فالناس — ولا سيما كبراؤهم — ينظرون من عيون الحسد وقلوب الغيرة والبغض ، ولكن الأبطال ينظرون الى نفوسهم من خلال الواجب

(١) روضة المناظر ص ٩٨ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٣ .

الذى يؤدونه والمنافع التى يحققونها والتبعات التى تثقل كواهلهم ، وهذا فى كل زمان وكل مكان عند من يستحقون لقب الأبطال .

•

وكان اسم نور الدين قد علا وطوف فى الأرجاء قبل صلاح الدين ، ولم يبق اسم أحد يعلوه أو يساويه ، بفضل خلقه وسياسته وعدله ودينه ، وأصبح من العسير على أحد أن يغطى على اسمه الا بأفعال خارقة تحول الجماهير عنه ، فقد كان حب الناس له ايمانا فى قلوبها لا يخلعه الا ايمان مثله أو أكثر منه .

ولكن صلاح الدين استطاع أن يفعل ، وشاء له حظه أن ينال ، ولكن لم يكن من السهل أن يتأثر به الناس فى الأعمال التى عملها لسيطرته ونفوذه ، بل ربما لاموه من أجلها أو كرهوه وحسدوه ، وانما تأثروا بالأعمال التى صنعها خالصة لذات المجد ، وكانت وقائعه مع العدو فى قمة هذه الأعمال ، وقد بلغ ولوع الناس به ولا سيما فى أيامه الأخيرة وعندما مات ، حدا لا تطيقه الصدور .

وقد وصفه عبد اللطيف البغدادى رحالة زمانه حين رآه لأول مرة فى القدس فكان مما قال : فرأيت ملكا عظيما يملأ العيون روعة والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا مجيبا ، وأصحابه يتشبهون به ويتسابقون الى المعروف ، كما قال تعالى : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » (١) .

هذا ، وقد عرف صلاح الدين فى مجلسه رجلا مجدا لا يهزل ، عف اللسان لا يهجو ، نبيل القلب فلا يحقد ، لا يتكلم فى انسان بغير الخير ولم يسمع وشاية لأحد .

فى الوسط العربى :

ومن غير ما نزاع فان شخصية صلاح الدين ظهرت فى الوسط العربى ونمت ، ولولا العرب الذين أحاطوا به ، أو لولا الأرض العربية التى

(١) كنوز الأجداد ص ٣٢٧ .

عمل عليها ما ظهر اسمه كما ظهر ، ولا علا نجمه كما علا ، فان لجيل العرب من الصفات ما ميز صلاح الدين حين صاروا من جنده وعسكره وجند أهله وعسكرهم ، وحين صنع مجده بينهم وفى أحيائهم وبلادهم وبأيديهم ، ولذلك اذا قيل ان صلاح الدين كردى المولد قيل انه عربى النجدة والمجد والانتصار .

وكان صلاح الدين عربى اللسان والأدب والعلم والدين ، عربى الصحبة والدار ، وحتى الطعام والشراب والعادة عليهما ، كان كل ذلك عربيا محضا ، وليس شىء فى صلاح الدين الا وهو عربى أصيل .

وجاء صلاح الدين فى عقب نور الدين الذى نبغ فى العرب أيضا ، بل ان أتابك زنكى والد نور الدين كان قد أجاد العربية ونادمه أدباؤها وشعراؤها . وقد صار للعربية مكانها عند الأمراء كما كان عند سكان هذه الأقاليم ، وصار التركى أو الكردى أو الفارسى ، وحتى الفرنجى الذى ينزل فى ديار العرب ويتبلد فيها يدغم فى العربية ويتعالى فيها حتى يقول الشعر ، كما قاله طلائع بن رزيك وأجاد فيه(١) .

وأغرب من ذلك ما قاله ياقوت فى بعض أقواله ، قال :

ان أكثر الشعر الذى فى ديوان طلائع بن رزيك وزير مصر انما هو من عمل الشاعر ابن المهذب ، وقد حصل له من ابن رزيك بسببه مال جم ، ولم ينفق عنده أحد مثله (٢) . فاذا صح هذا الخبر فان الالتصاق بالعربية أو الالتصاق بعلمها وأدبها كان أمراً يشرف المنتسب اليه ويعليه ويمكن له ، ولعل ذلك ما فعله ابن رزيك .

وكما ازدهت الأيوبية بالعرب وعلت بهم كان بنو سلجوق وكان الأتابكة ، ومن قبلهم كان بنو بويه وكان كثير من الأعاجم . ولا شك فى

(١) انظر ، ة ابن رزيك فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٨ .
(٢) معجم دباء ج ٩ ص ٤٩ .

أن القوة العربية من شأنها أن تسرع فى تعريب ضيوفها ، يتعلمون دينها ولغتها ، ويصير منهم قادة" لها فى أمور السياسة والحرب واللغة والدين ، أو كائدين لها اذا تعلموا لغتها وعرفوا عاداتها ، فيكونون يداً للمستعمر عليها كما هو معروف فى أيامنا مشهور فى زماننا .

سياسة السلطان

- نظام الأسرة
- التولية والعزل
- القسوة واللين
- المداراة والاحتجاب
- القدوة الطيبة
- مكافحة الشر
- الخلاص من الضرغام
- الخلاص من شاور
- وزارة مصـــر
- خلع الخليفة
- الحذر والحيطة
- حظ جـــديد
- دمشق وحلب
- موت اسماعيل
- الباطنية
- القبائل المتطرفة
- توحيد البلاد
- مواصلة المغرب

نظام الاسرة :

لم يشتهر من الخارجين من قلعة تكريت سـوى رجلين من أسرة شاذى ، هما نجم الدين وشيركوه ، وقد كان معهما أولاد لهما ، ولكن لم يشتهر أحد" منهم الا بعد أن علا نجم صـلاح الدين بن أيوب ، وقد نسبت الأسرة كلها الى اسم أبيه مجاوزة اسمى شيركوه وشاذى .

وقد وضح فيما مضى أنها كانت أسرة صـغيرة ، وحتى لو كانت منتمية الى احدى القبائل الكردية الكبيرة — كما قيل — فانه لم يعرف من أقاربهم أحد سـوى من رحلوا من تكريت ثم جاءوا الى الموصـل فالشام ومصر .

وقد مات منها وشيكا كبارها : فمات شاذى الجد بتكريت ، ومات شيركوه ونجم الدين بمصر : أولهما مات حتف أنفه ، وثانيهما دقت عظامه حين سقط عن متن فرس ، ثم مات الأخوان تاج الملوك والملك المظفر تقى الدين : أحدهما قتيلا عند حلب ، والثـانى فى وخم عكا ابان الهزيمة عندها .

ولم يبق كبيرا لهذه الأسرة الا صلاح الدين ، حتى وأولئك أحياء ، فيما عدا عمه شيركوه . وكما وضح اسمه من بين أسماء أهله فقد صار أكبر مسؤول فيها اثر موت عمه شيركوه ، فكان عليه أن ينظر لأسرته أن تنمو حتى يستقر لها الأمر ويدوم فيها الملك الى أجل طويل .

وقد رسم صلاح الدين لأسرته طريق النمو والتجمع والتساند ، حتى اذا كانت قوة فى ذاتها أصـبحت قوة أمام غـيرها ، وكثير من الكبار والصـغار يمزقون أسرهم ولا يفعلون فعل صـلاح الدين فيذوبوا من قريب ، ولكن صلاح الدين لم ينس أن يكون العصبية التى تشد ظهور الرجال ، فزوج شبانها من بناتها ، وزوجهم صغارا ليكثروا ، وأكثر من ذلك التزويج عند كل هدنة أو صلح أو انتصار فى معركة ، وتولى بنفسه

عقد الزواج . ومن العقود التى تولاها عقد بين الملك الظاهر واحدى بنات الملك العادل (١) ، وعقد بين الملك الأفضل وبنت ناصر الدين محمد بن شيركوه .

وعود أسرته التحاب والتعاطف بما كان يفعله هو من توقير كبارها والحنو على صغارها ، فكان يلقى الكبار لقاء الملوك ، ويلقى الصغار بالتقبيل ومسح الرءوس ، كما يفعل كل أب لم تشغله أبهة الملك عن الطبع المخلوق فى الأبوة ، ولم يكن أفضل منهم عنده غير الجهاد ، فكان اذا دعاه لبى وترك للفراق أن يضرب بينهم وبينه بأمنع الأسوار .

وقد خلع صلاح الدين على الرجال من أهله ألقاب الملوك ووزع عليهم الرتب ، كل بما يستحق ، ولم يكن عليه فى ذلك لوم ، ولم يكونوا بما أوتوا فى موضع حسد ، فانه وجههم جميعاً الى جبهات القتال ، ولم يترك عزيزاً منهم دون أن يؤدى فريضة الجهاد ، ويكون فى الصف قبل أن يكون الجنود من الناس .

فكبرت الأسرة بهذا ونمت ، ووقعت لها المهابة فى الناس ، وكافأته على اهتمامه بها فرضخت لطاعته ، ولم يحدث أن خرج أحد منها عاصياً ، الا من أطغاه الدلال أو فساد الرأى ، وكان ذلك قليلا نادراً ، بل مرة واحدة لم تتكرر ، فعله واحد ، ولكنه عاد الى سيده طائعاً راضياً .

وظهر من الأسرة قواد عظماء ، منهم غير عمه شيركوه ، اخوته : توران شاه شمس الدولة ، والملك العادل أبو بكر ، والملك المظفر تقى الدين ، وتاج الملوك . وظهر من أولاده : الملك الأفضل على ، والملك الظاهر ، والملك العزيز . كما كان أولاد عمهم قادةً مظفرين ، وكانوا كما قال الشاعر :

بكل فتى من آل أيوب لم يزل   دفاعا لخطب أو سداداً على ثغر

---

(١) النوادر السلطانية ص ٥٩ .

التولية والعزل :

وحين أصبحت ولايات المنطقة كلها محكومة بصلاح الدين أناب عنه الأمراء والولاة من أهله وأولاده ومن غيرهم ، ولم يكن يرعى فى التولية والعزل غير صالح الأمة ، لا تأخذه فى ذلك شفقة ولا لوم ، وقد كان من أحب أبنائه الى قلبه الملك الظاهر صاحب حلب : كان هذا الابن فطنا كيسا فولاه حلب فغفل وتلهى ، وشغف بالملك وأحبه ، فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه أبواب الذكاء والفطنة وحسن الخدمة ، فصرفه عن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل ، فلم يسنعه حبه لابنه وطاعة ابنه له أن يعزله (١) .

القسوة واللين :

ولم يمنع صلاح الدين أحدا — حين احتجب عن العامة — أن يصل الى مجلس قضائه الذى يحضره القضاة والفقهاء والعلماء حتى ولو كان خصماً له ، ولكنه كثيراً ما تأخر عن مجلسه هذا فتأجلت بعض الحقوق عن أصحابها ، فلما بلغته مظالمهم كان ندبا مغيثا . وقصة المظلوم الذى لاذ بقبر نور الدين ، وصرخ مستغيثا به ، فأنصفه صلاح الدين معروفة مكررة فى كتب التاريخ ، وقد قامت دليلا على أن صلاح الدين ما كان يهمل أمراً أهمله قومه والمحيطون به لو رفع اليه أو سمع به .

ويتحدثون عن تواضعه ، ويستشهدون بقصص كثيرة ، والحق انه تواضع للناس حتى اجترءوا عليه وتعاوروه بالقصص والأحاديث (٢) ، وقد شكا هو نفسه من ذلك ، ولكنه لم ينزل عما طبع عليه من رقة القلب ولين الجانب .

---

(١) النوادر السلطانية ص ٥١ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧٧ .

ولقد ظن الناس أحيانا أنه متهاون ، وقد حدث ذات مرة أن أفلت لباس القدم من جندى رمى به زميله فأصاب طرف ثياب صلاح الدين ، فأدار وجهه وتغافل تغافل الملوك عن صغيرة الجندى ، فالتفت اليه أستاذه الحافظ الدمشقى ابن عساكر وكلمه كلاما فيه بعض اللوم على الحلم وقال له :

انه كان أيام سلفه نور الدين يروى الحديث فيستمع له كل من فى الدار كأن على رءوسهم الطير (١) !.

ولم يبرم صلاح الدين بمصاحبة أحد متى عرفه مخلصا ، حتى ثقلاء الناس ، لم يدعهم ولم يهرب منهم ، وقد حدث حين كان باحدى دور حماة مع ثقيل يسمى عبيدا أن وقعت زلزلة هائلة هدمت أنحاء المدينة ، ما عدا هذا البيت وبعض البيوت ، فلم يمس صلاح الدين ولا صاحبه أذى فقال عرقلة الشاعر :

قل لصلاح الدين رب الندى   بلغ عبيدا كل ما أمله

بثقله لما تصاحبتما   سلمك الله من الزلزله (٢) !.

وكان كثير الرقة لعدوه كما كان لقومه : جاءوا اليه فى مرج عكا برجل طاعن فى السن فسأله : ما الذى جاء بك ؟ قال : جئت للحج لا للحرب (٣) ، فأمر باطلاقه على فرس الى معسكر العدو . وقدموا بين يديه بأسير فرنجي يرتجف ، فسأله عن سبب جزعه وارتجافه ، فألهم الأسير أن يقول : لا أخاف شيئاً وقد رأيت وجهك ، فهش له صلاح الدين وأطلقه . وقصة المرأة الفرنجية التى خطف طفلها فأعاده اليها حين استغاثت به أشهر من أن تعاد .

(١) كنوز الأجداد ص ٣٠٨ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ .
(٣) النوادر السلطانية ص ١٤٢ .

ولكن هذا المتواضع الرقيق القلب كان أقسى الرجال وأعنفهم ، فاذا غضب — وكان الغضب حقاً — وعلى خارج أو معتد أو ناقض عهد فانه كان حينئذ لا يدع القصاص . وقد طرد عن بابه المجترئين عليه ، وقضى على العاضد ووزرائه حين كانوا عملاء الفرنجة ، وصلب ثائرين عليه فى قفط ، وضرب الباطنية وفرق الحشاشين وقوض حصونهم ، وقتل فى مرج عكا جماعة من الفرنجة قسوا على المسلمين ومثلوا بقتلاهم ، وطعن بخنجره أميرا فرنجياً فحل كتفه ، وأباد فرق الهيكليين وضياف الغرباء حين عبثوا بأرواح المسلمين . وحين قبل صلاح الدين قول عرقلة الشاعر فى زلزال حماة وضحك له لم يقبل أن يهجو الشاعر « ابن عنين » أصحابه ورجاله فى دمشق فنفاه ، فخبط فى البلاد ولم يرجع الى دمشق الا بعد أن خلت دمشق والدنيا من صلاح الدين .

وحين بر صلاح الدين بابنة نور الدين ووهب لها كثيرا مما طلبت لم ينخدع بما فعله بعض الأمراء من سوقهم النساء اليه بالشفاعة ، فقد حدث عند حصاره الموصل أن سيقت اليه طائفة من الفتيات الأتابكيات يشفعن عنده ليكف عن الموصل ويرحل عنها ، فردهن معتذراً اليهن ، ومضى فى الحصار .

وهكذا كان صلاح الدين مع تواضعه ورقة قلبه رجلا قاسياً ماضياً لا يتردد أن يعاقب وأن تكون عقوبته موارد الموت .

المداراة والاحتجاب :

وجرب صلاح الدين أن يصارح الناس وأن يداريهم فأفلحت معه المداراة وأكسبته رضاهم ، ويقول هو فى ذلك : لم أبلغ ما بلغت فى الناس الا بمداراتهم (١) .

(١) ذيل النوادر ص ٢٤١ .

وكان الناس يتكاثرون عليه فيـدنيهم ويدنو منهم ويتحبب اليهم ، ولكنـه ما لبث أن أقلع عن عادته هـذه ، وأقلع عنها مضطراً ، فامتنع واحتجب ، ولم يعد يلقى أحدا عن قرب الا من أراده هو وضرب للقائه موعداً . وكان حقا عليه أن يمتنع ويحتجب ، بل كان ذلك عليه واجباً ، فانه لم يصر ملك نفسه ، وانما صار ملك الناس وحصن المسلمين . وقد وقع منه التمنع والاحتجاب حين اعتدت عليه طائفة الحشاشين مرتين : مرة فى حلب على جبل جوشن فى المكان الذى كانت عليه مدينة سيف الدولة قديماً ، وعلى طرفيه اليوم الكلية الأمريكية والكلية الاسلامية ، وهو فى غربى حلب الحالية . ومرة أخرى فى « عزاز » قرب حلب ، فاحتجب عن العامة احتياطاً ، الا فى المواقع ، وقد أمن من حوله ، فقد صار يضرب حـول سرادقه سرادقات من الخشـب المعقود المغطى باللبـد ، ويوقف الحراس (١) ، وكأنها الأسلاك الشائكة فى زماننا .

ومن قبل ذلك كان يعتزل بعض الناس اذا غضب وغضبوا ثم يعود اليهم اذا هدأ وهدءوا : وقد حسب الأكراد حينا قرابتهم له ، فكانوا أجرأ الناس عليه ، فأغضبوه كثيراً ، فكان يلقى عتابهم وعنفهم عليه بالبعد عنهم حتى يهدأ فيعود اليهم اذا رأى أن يعود (٢) .

وانه لمن حق كل زعيم صارت للناس عليه جرأة أو لم تصر أن يمتنع ويحتجب ، ولا سيما حين يصير ملك الناس وحصن آمالهم ، وان ذلك وان كان يظهر فيه بعض الترفع والكبرياء فانه من خيرهم وصالح بلادهم ومستقبل أيامهم .

القدوة الطيبة :

وبرغم امتناع صلاح الدين عن العامة واحتجابه ، فقد لقيهم وسط حراسه عند الأمور الملزمة وفى الأزمات الجامعة ، وعمل بيده فى البناء

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٥ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٢٣ .

والانشاء ، وعمل معه أولاده وأمراؤه وأجناده ، لم يتخلف منهم أحد اذا دعا الأمر : وقد شـوهدوا جميعاً يعملون فى عمـارة القدس وتحصين أسواره وحفر خنادقه ، ومعهم العلماء والفقهاء والقضـاة . وحين أصدر صلاح الدين أمره للعسكر بنقل الحجارة جعل هو يعاونهم وينقل بيده على فرسه ، بل قيـل : كان يحمل على كتفـه ، فحمى العسكر وحمى الناس ، فكان يجتمع لدى العمال والبنائين من الحجارة ومواد البناء ما يكفيهم للعمل عدة أيام .

وقد رآه الرحـالة البغـدادى وهو يشـارك النـاس فى بنـاء سور القدس وحفر خندقه فقال : يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس : الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل .

وكما كان صلاح الدين قدوة فى البناء والتحصـين كان قدوة فى الاحراق والتخريب ، متى دعت الأسباب .

وأعظم من ذلك كله أنه استطاع بعمله فى القدوة أن يوجه الناس فى المنطقة التى سـادها الى ما يريد ، فاتبعوه وأقبـلوا على دعوته هم وأولادهم وأموالهم بلا تردد ، وكأنما لم يتخلف عنه فى المنطقة انسان . ولولا ضيق نفوسهم وأيديهم عند بعض الهزائم لم يتركوه قط ، مع أنه لم يكن له عليهم جبر ولا قهر .

مكافحة الشر :

وكانت الـدولة قبيـل زمانه قد ماجت بالشر وحفلت بالأشرار : فحكمها رؤساء لا هم لهم الا شـهواتهم ولو أدوا عنها الجزية من مهج الأمة ودمائها . وتمردت بها قبائل لا تنقطع عن العدوان والبغي ، وأحاط بها مكرة يختطفون مناصب الوزارات بالقوة والرشـا وعصابات القتلة

والختالين . وامتلأت القصور بنساء من أشباه نساء العباسيين قد درجت نفوسهن فى مدارج الدس ومهرت أيديهن فى اصطناع السموم .

وفشت فرق المتعصبة للرأى والدين فى أرجاء البلاد الاسلامية وقويت شوكتها فاحتلت القلاع القديمة ثم انشأت لها قلاعاً جديدة برضا الدولة أو على كره منها ، لتحمى بها باطلها وسمعتها ، ولم تر بأسا أن تعاون المستعمر المغير ، ولو سلمته هذه الحصون .

ولمعت مفاتن الدنيا ، ورخصت أثمان الخيانة ، فلم يكن لدى بعض الناس من بأس أن يتقاضوا الفرنجة بضعة دراهم فيدلوه على الثغور الضعيفة فى الجيش ، أو يسلكوا به طرائق البلاد ويعرفوه مسالكها . وليس ذلك غريباً على النفوس الواهنة الغبية فقد رأينا فى زماننا أشباه هؤلاء ، وكلما باد منهم نفر ظهر نفر ، وقد رأيت فى احدى البلاد التى زرتها من يتقاضى مرتبات من سفارات الأجانب ليدلوهم ويخدموهم ، فلما أخذهم الناس بالملامة قالوا — ليبرئوا أنفسهم — انما يأخذونها منهم جزية لأنهم أهل ذمة ، وهو منطق مقلوب وعقل عجيب .

وحتى الأدب كان قد مال جانب منه ميلا جائرا نحو البغى الخلقى والتحريض على الفساد وتمزيق الأعراض ، وحتى يكون له قدر فقد تناول ذوى الشرف والأقدار ، ووجد صانعوه استقبالا من الكبار : اما خوفا منهم واما تقديراً لفنهم ، وقد نال « ابن عنين » الشاعر الهجاء وزارة للأيوبيين بعد صلاح الدين بجملة من قصائد المدح بعد عمر طويل قضاه فى هجائهم وهجاء كل كبير فى دولتهم بلا استثناء ، وكان هجاؤه كله افكا وبهتانا .

ولكن كان فى البلاد صلحاء ، وكان مجموع الأمة يتلهف على قائد صالح يتبعه ، لأن الصلاح كامن فيها ، وهى لا تحتاج الا الى من يثير فيها صفات الشرف التى تعرفها وتنطوى عليها : قد كمن فيها الخير كما

تكمن الحياة فى حبات البذور ، تريد الماء والأرض والضوء لتستيقظ من سباتها وتنهض من سكوتها .

وكثر فى الأمة الأئمة والقراء ومسندو الحديث والعباد والعلماء والمفكرون ، والصناع المهرة والمخترعون والأطباء والمعلمون والفرسان والبحارة ، ولكن أسماء الأشرار طغت على أسماء الأخيار ، والدنيا تلف لأولئك وتقضى على هؤلاء ، فأمسك الأئمة الأذكياء عن الكلام والتزموا الكتمان ، لتقلقل الدولة وتحولها ، فمن فاطمية وعباسية الى سلجوقية وزنكية وأيوبية ، وهم لا يعرفون لمن تتم الغلبة ، فأمسكوا عن الكلام لئلا تطحنهم الأحداث (١) .

وجاء صلاح الدين فرأى الأرض تنفلت من تحت الأقدام ، والأجنبى المغير يتقدم لاحتلالها ويوشك أن يلتهمها جميعا ، وقوى الشر تتطاحن وتعاونه ، اللهم الا بعض قادة صلحاء جاء بهم الزمن متفرقين ثم ذهبوا ، نخاف صلاح الدين .

وكان من حقه أن يخاف ، فقد حاربه فى الاسكندرية وهو يحميها من الفرنجة جند وزير مصرى انتهز غياب عمه « شيركوه » عنه فى أرض الصعيد وحاصره بمشاركة الفرنجة ، فلقى فى الحصار شقاء عظيماً . وكان ألمه النفسانى من تضافر المسلمين عليه مع أعدائهم أبلغ وأعمق من جوع الحصار وحبسه ، ولم يكن يعمل غير انقاذ ثغرهم وحمايته ، وكان أهل الاسكندرية معه — كشأنهم عند كل فزع — يحمون ثغرهم ، بينما كان أقرباؤهم واخوانهم من خارجها يرمونهم بالنبال ويقذفونهم بالنار .

وعزم صلاح الدين ألا يعود ! فكره أن يعود الى مصر ، وكره أن يحارب ، ولولا عمه شيركوه ومولاه نور الدين الذى أمره أن يمضى مع عمه لانقاذ مصر ما مضى . وقد قال صلاح الدين نفسه فى ذلك :

(١) انظر اخبار ابن القلانسى فى كنوز الأجداد ص ٢٩٦ .

أمرنى نور الدين بالمسير مع عمى شيركوه ، وكان قد قال لى شيركوه بحضرته : يا يوسف ، تجهز للمسير ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساه أبدا . فقال عمى لنور الدين : لابد من سيره معى . فأمرنى نور الدين وأنا أستقيل . فقال نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك ! فشكوت الضائقة ، فأعطانى ما تجهزت به ، فكأنما أساق الى الموت (١) .

كان صلاح الدين متأثراً بالحصار ولكنه تعلم منه درساً . وحتى لو كان الفرنجة وحدهم هم الذين حاصروه بالاسكندرية فقد كان درساً له تعلم منه آلام الحصار ومكايده ، وعرف منه كيف يقضى على أسبابه . وكأنه درس حصار الفالوجة فى زماننا حيث خلق حصارها أبطالا حذرين واعين ، ولم يتعلموا منه فنون الخلاص من المحاصرة الضيقة وحسب ، وانما انطلقوا يفكون عنهم وعن وطنهم كل حصار ، وكان أن كتب لهم الانتصار .

وسرعان مارجع صلاح الدين الى العظة والعبرة أكثر مما مضى نحو التردد والخوف ، فجاء مع عمه الى مصر وقد نوى أن يقضى فيها على كل شر ، وأول شر راح يقضى عليه كان فى نفسه : فقد كان قليلا ما يشرب ويلهو ويقضى بعض وقته فارغاً يتسلى ، فجنب نفسه هذا العبث ونفى عن وقته الفراغ ، ثم ألقى بنفسه الى الجد ومضى فيه ولم يلتفت وراءه أبدا .

ومن الموثوق به أنه انقلب الى حياة الجد وارادته والتصميم عليه وهو بدمشق ، وان كان بعض المؤرخين يرون أن هذا الانقلاب قد حدث حين استوزره العاضد بعد موت عمه شيركوه ، فان هناك أدلة راسخة فى الأدب قد غفل عنها المؤرخون تدل دلالة لا شبهة فيها على أن صلاح الدين قد نوى ذلك وعمله وهو فى دمشق بعد انفكاكه من حصار الاسكندرية ، فقد تمنى أن يحكم مصر ، وملك جوانبه الطموح ، ولعله كان يسوق

(١) ذيل النوادر ص ٢٦٠ .

العلل لنور الدين حتى لا يذهب مع عمه ليصمم نور الدين أن يذهب وليلزم نور الدين الحجة ان كره بقاءه فى مصر فى الغد القادم .

وقد كشف صلاح الدين لبعض أصدقائه الدمشقيين عن أمنيته ونيته ، وكان ممن كشف لهم عن نفسه من الأصدقاء « حسان بن نمير » المعروف بعرقلة : كان صاحباً وجليساً لصلاح الدين منذ صباه ، ووعده صلاح الدين حين كان فى دمشق على شحنتها أو أميراً من أمرائها أنه ان ملك مصر أعطاه ألف دينار عاضدية ، وقد عينها عاضدية لا صورية لأنها أوفى من تلك ذهباً وأغلى ، فلما ملكها لم يرسل الى عرقلة ما وعده به فأرسل اليه عرقلة يقول :

قل للصلاح مغيثى بعد اعسارى   يا ألف مولاى ، أين الألف دينار ؟
أخشى من الأسر ان وافيت أرضكم   وما تفى جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات موفرة   من بعض ما خلف الطاغى أخو العار
حمرا كأسيافكم غرا كخيلكم   عتقا ثقالا كأعدائى وأطمارى (١)

فهذه الأبيات تقطع بما أثبتناه من تحول صلاح الدين الى الجد قبل أن يغادر دمشق ، وهى كنقوش الأحجار الثابتة التى هى من دعائم التأريخ ، وليس يغض منها ألا يلتفت اليها مؤرخ جاف يسرد الحقائق ويتجانف عن مختلف الأدلة المخطوطة فى الطريق .

على أن عرقلة أضاف اليها لوحة تاريخ أخرى حين ماطله صلاح الدين فلم يرسل اليه ما وعده به فأرسل اليه مرة أخرى يقول :

اليك صلاح الدين مولاى اشتكى   زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التى كنت واعدى   بها فى يدى قبل الممات تصير

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٢٢ .

وهيهات والأفرنج بينى وبينكم سياج ، قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى بمصر وانى فى دمشق فقير (١)

فسير له صلاح الدين ألفا ، وأخذ من اخوته مثلها .

الخلاص من الضرغام :

وسار صلاح الدين مع عمه الى مصر مقدما على عسكره ليعيدا « شاوراً السعدى » لوزارة العاضد ضد خصمه المدعو « بالضرغام » فأبدى صلاح الدين فى حركاته العسكرية ما عقد لرايته النصر ، فالتفت عمه اليه أكثر من ذى قبل ، وصار لا يقضى فى أمر دون رأيه ومشورته .

كان شاور السعدى قد سطا على وزارة العاضد اثر مقتل طلائع بن رزيك فى سنة ٥٥٨ هـ — ١١٦٢ م) فجمع له الضرغام جموعا كثيرة وسار اليه وغلبه وطرده من القاهرة وقتل بعض ولده واستولى على الوزارة ، فأقره الخليفة العاضد حين غلب . أما شاور فلجأ بالشام الى نور الدين .

وعن للضرغام وهو وزير أن يخلى مصر من كل رجل يخافه فأعمل القتل فى الرجال ، ثم لم يجد عمن قتل عوضا فضعفت مصر ضعفاً بيناً (٢) أطمع فيها نور الدين والفرنجة معا . وبينما كان الضرغام مشغولا بقتل الرجال كان شاور قد عاد فى جند من نور الدين عليه شيركوه وصلاح الدين ، وقد أمده نور الدين بهذا الجند ليقضى حقه حين لجأ اليه وليستنجز أمر مصر التى ضعف جندها وقل رجالها واختل حالها (٣) .

(١) خريدة القصر ص ٢٠٨ .
(٢) ذيل النوادر ص ٢٥٤ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٤ .

ولم يثبت الضرغام أمام جيش نور الدين فى لقاء واحد فقد قضى عليه هذا الجيش فى وقعة قريبة من قلعة صلاح الدين اليوم ، وأعاد شاوراً الى وزارة العاضد ، فأقره العاضد ثم قتل الضرغام .

الخلاص من شاور :

وكان شاور أدهى على بلاده من الضرغام ، بل كان أدهى رجل فى البلاد : كان طلائع بن رزيك — وزير العاضد قبله وقبل الضرغام — قد ولاه أميراً على الصعيد ، وولاية الصعيد كان يراها الخلفاء والملوك أكبر المناصب بعد منصب الوزارة ، فلما حرضت عمة العاضد على طلائع وزير الخليفة وصهره من طعنوه بالسكاكين أوصى طلائع ابنه العادل — وهو فى النزع — ألا يغير شيئا على شاور ، وحذره منه لقوته ومكره .

ولكن العادل — وقد تولى الوزارة وأبوه فى النزع الأخير — لم يعمل بوصية أبيه فكتب الى شاور أمير الصعيد بالعزل ، فجمع شاور جموعه ودخل بها القاهرة فهرب العادل فتبعه شاور ولحق به فقبض عليه وقتله . وبقتل العادل بن طلائع انتهت دولة بنى رزيك ، واستقر شاور فى الوزارة واستصفى أموال بنى رزيك وودائعهم ، ثم ظل مستقراً حتى ثار عليه الضرغام ، ثم عاد للوزارة بعد أن عاونه عليه جند الشام وقتلوه (١) .

ومع أن مصر استراحت قليلا من ابن رزيك ، فقد كان احتكر الأرزاق وأضعف حال الدولة بقتل أمرائها ومقاتلتها وذوى الرأى والحزم فيها كحجاج بنى أمية (٢) فان الأمن قد عاد بعده للاضطراب وعادت مصر لقلق أشد وبطش أوجع على يد شاور وعلى يد الضرغام .

(١) ذيل النوادر ص ٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٤ .

ولم يأت جند الشام لمعاونة شاور الا على وعد منه بأن يبذل لنور الدين ثلث أموال مصر بعد أرزاق جندها ان أعاده للوزارة (١) ، فلما عاد ورجع شيركوه وصلاح الدين الى الشام بعسكرهما نقض شاور عهده وكاتب الفرنجة سراً على تمكينهم من مصر ان هم أعانوه على شيركوه اذا رجع اليه مستنجزاً وعده فى المال .

وخلف الوعد عند نور الدين وعند كل من له خلق ودين أهون من مكاتبة العدو والاتفاق معه والوصول اليه فى السر ، فهى جرائم ثلاث لا تغتفر ، فما لبث نور الدين أن رد شيركوه لمحاربة شاور ، حتى يفى بعهده .

وعلم الفرنجة بنية نور الدين فتجهزوا ، ثم تسابقا ، فكأنما كانا على موعد اذ التقيا على مداخل مصر فى سنة (٥٦٢ هـ — ١١٦٦ م) والتحما عدة مرات . وأسرع شيركوه الى الجيزة فعبر النيل عندها ليحتمى به وليطيل خط القتال على الفرنجة ، ولكنهم لحقوا به لأجلهم المحتوم فسحقهم شيركوه فى معركة البابين ، وسنأتى على ذكرها عند الكلام على حروب صلاح الدين ووقائعه ، لأن الانتصار فيها كان بفضل مهارة بادئة فى المعارك الكبرى من صلاح الدين .

ولم يجن شيركوه نتائج نصره فى البابين ، اذ اضطر الى أن يقسم جيشه قسمين ، فبقى هو بالصعيد يجبيه ، وسير ابن أخيه الى الاسكندرية ، ولم يكن فى خطته هذه خطأ فقد بقى فى الناحية التى لا يعوقه فيها عن ابن أخيه عبور .

وسار صلاح الدين الى الاسكندرية وجند شاور والفرنجة يتبعونه ، حتى اذا استقر فيها بفرقته كان الحصار قد ضرب حوله ، فظل ثلاثة أشهر لا يستطيع انفكاكا ، ولقى من مرارة الحصار ما أشرنا اليه من قبل حين رأى بعده ألا يعود .

(١) ذيل النوادر ص ٢٥٤ .

وقد ضاق به الأمر حين رأى جند شاور من المصريين يعاونون الفرنجة ، وقد أصابت نفسه منه عقدة ظلت طول حياته ، فقد قصده مرة من مصر وفد يهنىء باندحار ثائرين عليه فى القاهرة فرأى أن يردهم دون لقائهم ، لولا أن وزيره القاضى الفاضل نصح له بطرح الغضب ، وطلب اليه أن يشكر الله ويلقى المهنئين .

وزاد بصلاح الدين الضيق حين احتاج المدافعون معه عن الاسكندرية من جنده ومن أهل الثغر الى الطعام ، ولكنه استطاع أن يبلغ استغاثته الى عمه شيركوه فأسرع اليه وطوى أرض البحيرة وفك عنه الحصار ، ثم تصالح الطرفان .

وقسم الصلح الغنائم : فكان فيه أن يتسلم المصريون من جند شاور مدينة الاسكندرية ، وأن يخرج جند الشام من مصر على مال يحمل لشيركوه ، وأن يخرج الفرنجة أيضاً ، ولكن تبقى لهم قدم : تقيم لهم شرطة داخل القاهرة ، ويقف فرسانهم على أبوابها ، وتدفع لهم جزية ، قدرها فى العام مائة ألف دينار (١) .

ومع أنهم فازوا بنصيب الأسد فى الصلح الذى كان أحد أطرافه شيركوه ، فلأمر ما وسر غامض لحق الفرنجة بشيركوه وهو خارج من مصر وحاصروه بمدينة « بلبيس » بالشرقية . وطار الخبر الى نور الدين بدمشق فطار عسكره الى « مدينة حارم » فى أقصى الشمال الغربى عند حلب وكانت بيد الفرنجة فاحتلها وأسر طائفة كبيرة من أمراء الفرنجة ليخفف الحصار عن جنده فى بلبيس .

وكأن نقض الفرنجة للعهد كان فرصة لشيركوه ونور الدين : أما شيركوه فلم يهتم كثيرا بأمر الحصار وأقسم ألا يقتل من عسكره رجل الا فداه بجملة من الرجال ، وكان شيركوه يتنقل بين جنده المحصورين

(١) روضة المناظر ص ٧٣ — ذيل النوادر ص ٢٥٦ .

وهو لا يحمل سلاحه ، فهابه الفرنجة وسقط فى أيديهم . وأما نور الدين فقد جاءته الفرصة ليثأر من الفرنجة على هزيمتهم له عند حصن الأكراد فضربهم فى « حارم » ضربة ساحقة ، وفك عن شيركوه الحصار وكذلك فك عن نور الدين :

أما حصار نور الدين فكان حصاراً على نفسه اذ كان قد أقسم عندما هزمه الفرنجة عند حصن الأكراد ألا يظله سقف حتى يثأر منهم ، ومضى ليمينه وبر بقسمه ، وفيه حرمان كثير ، وظل كذلك لا يأوى الى دار عاماً أو ما يقرب من عام ، فلما أمكنه الله من عدوه وثأر لنفسه فك عنها الحصار .

وبينما كان شيركوه فى طريقه الى دمشق كانت بلبيس ومصر القديمة تحترقان : أما بلبيس فقد أحرقها الفرنجة ، وأما القاهرة فقد أحرقها شاور خوفاً من الفرنجة : فمن أجل الفرنجة احترقت المدينتان ، ولم يكن هناك ما يمنع أن تحترق مصر كلها ، وأكثر منها :

وحريق بلبيس كان عقوبة من الفرنجة لأهلها ، اذ كانوا انضموا الى شيركوه ضد أعدائه : شاور والفرنجة معاً ، وساعدوه فى الدفاع وفك الحصار ، فلما خلت منه أشعل الفرنجة فيها النار وأعملوا فيها القتل والأسر ، فعل الجبناء ، ولو بقى بها شيركوه ما استطاعوا أن يفعلوا ما اجترموه ، وكانت بلبيس بلداً عظيماً فلم يعد لها حظها بعد ذلك الحريق حتى اليوم .

وحريق القاهرة كان دفعاً للفرنجة أن يعودوا اليها ، فقد بلغ شاوراً أنهم فى طريق عودتهم اليها ، وهم يعملون السلب والنهب فى كل بلد يمرون عليه ، فاشعل النار فى الفسطاط ، فظلت تأكلها النيران أربعة وخمسين يوماً (١) ، ثم صارت كبلبيس لم يعد لها حظها أبداً .

(١) ذيل النوادر ص ٢٥٧ — روضة المناظر ص ٦٩ .

ويبدو أن العدوى قد أصابت دمشق أيضاً قريباً من تلك الأيام ، فاحترقت بها سوق اللبادين وهلك فيها مال كثير .

ولعلنا — نحن المعاصرين — ندرك أن التاريخ يعيد نفسه ، من غير تدليل ولا تفصيل ، فقد شهدنا حريق القاهرة قبل الثورة الأخيرة ، وتاهت فى الاضطرابات أسبابه ودواعيه ، وكان حدوثه — كما يحكم التاريخ — دليل زوال دولة وقيام أخرى ، وما من ذلك محيص .

***

وعلا مع لهيب النيران فى بلبيس والقاهرة استصراخ العاضد وشاور نور الدين مرة أخرى ، وكان نساء القاهرة قد جززن شعورهن لتباع فى الدفاع عنهن ، فاستشفع بها العاضد فى كتاب استصراخه لنور الدين ، فاستجاب له نور الدين وغفر لوزيره الغدرة الأولى بقائده شيركوه (١) .

ومن الغريب والحظ الحسن أيضاً أن شيركوه وصل الى القاهرة وتخلف الفرنجة فلم يدخلوا ، ومضى شيركوه من فوره الى قصر العاضد فلقيه الخليفة وخلع عليه الخلعة العاضدية ، فخرج يرتديها الى جنده وخيامه ، ثم أجرى العاضد عليه وعلى عسكره نفقة موفورة (٢) .

وسواء أكان هذا اللقاء وهذه الخلعة والنفقة بعلم شاور وحضوره أم بغير علمه ، فقد كانت حدثاً ذا خطر ، فقد جاوز شيركوه تقاليد السياسة فلقى الخليفة دون تمهيد ، وتجاوز الخليفة عن مقام الوزارة فخلع وأعطى دون أمرها ، ولكن ما حدث كان خضوعاً للقوة ، ومن حقها وحدها أن تغير التقاليد .

وتحرك الشر فى نفس شاور — وكان لم يهدأ — فكاتب الفرنجة سراً ليعينوه على طرد شيركوه ، وعلم العاضد فسكت ، وعلم الناس فكرهوا الوزير والخليفة معاً ، وعلم شيركوه فصمم على أن يزيل شاوراً

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٦ .
(٢) ذيل النوادر ص ٢٥٧ .

عن الوزارة ويقضى عليه ، وأما صلاح الدين فقد نوى — لو صار له الأمر — أن يزيل الجميع .

وراح شيركوه يطلب من شاور أن يبذل له ما خسره جند الشام فى العودة لمصر — وكان شاور قد وعد به — فماطل شاور ، ثم عزم على أمر مهول : ذلك أنه يولم وليمة — كتلك التى أولمها محمد على فيما بعد للمماليك — فاذا انحصر شيركوه وأمراء جند الشام فى مكان الوليمة أخذتهم المدى والسيوف (١) . ولم يستطع شاور أن يحبس نيته فى صدور من استأمنهم على سره ، فأبلغها بعضهم الى شيركوه وسربوا أخبارها الى الأسماع .

وحتى تتم المذبحة أخذ شاور يقتل ظلما كل من يميل الى شيركوه ، مهما علا مكانه أو اتسع علمه أو صلح دينه وعمله ، وجعل يفتك بهم على الظنة والريبة ، وقتل فيمن قتل : أحمد بن على الغسانى أوحد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب والشعر (٢) ، وحبس فيمن حبس : القاضى المهذب لأن أخاه الرشيد اتصل بصلاح الدين وهو محاصر بالاسكندرية ، كما اتصل هو بشيركوه وهو محاصر فى بلبيس ، فعاقبه شاور بذنبه وذنب أخيه (٣) لأن أخاه توارى عن شاور وفر .

وكذلك بلغت الحدة غايتها ، وبات النصر لمن غلب ، والغلبة لمن سبق . وكان أن أجل شاور وليمته لأنها افتضحت وشاع خبرها ، وأجل شيركوه كذلك أمر شاور حين فشل أمر الوليمة وتأجل ، الا أن صلاح الدين وجند الشام معه كرهوا التأجيل .

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧٤ ، ج ٦ ص ١٤٩ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٥ .
(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦٠ .

ومالت قلوب الناس الى شيركوه فتمنوا زوال شاور ، حتى أولاده ، لأنه صيرهم حديثاً فى الأفواه ، فخرج عليه ولداه « طى والكامل » : أما طى فقد حارب الفرنجة بظاهر بلبيس وكان نائباً عليها عن أبيه ، وأما الكامل فطالما نصح لأبيه أن يكون مع المسلمين على الفرنجة فأبى .

ولم يمض غير أيام حتى تقدم صلاح الدين من عمه نائباً عن جند الشام يطلب أمره فى شاور ، وقد قالوا : انه نهاه ، ولكن صلاح الدين خرج من عند عمه وقد نوى أن يقدم على ما أراده (١) ، ولم تكن هذه غريبة عليه فقد تعود من قبل أن يمضى فى الأمور التى يصمم عليها ، دون كل الرضا ، كما كان فى شحنة دمشق مع رئيسه القاضى الشهرزورى .

وفى ذات يوم خرج شاور فى موكبه وزينته ، فلقد كان وزيراً لمصر ، وكان وزراء مصر — ويظهر أنه داء قديم — قد اخذوا من الأبهة لأنفسهم مأخذاً عظيماً ، وكان شاور أكثرهم أخذا بهذه المظاهر ، فكان اذا ركب هتفت الأبواق بركوبه ودقت الطبول وخفقت الأعلام .

ومضى شاور فى موكبه يريد زيارة شيركوه ، وكان شيركوه قد أحس بما يريده ابن أخيه فتمارض واحتجب ، فلما مضى شاور فى طريقه اعترضه فارسان من فرسان الشام وقالا له : ان شيركوه قد سار الى قبر الشافعى الامام ليزوره اليوم ، فمضى شاور ليلحق به ، بينما كان الفارسان يخترقان موكبه ويقتربان منه ويسلمان عليه ، ثم سارا على جانبيه يحرسانه مع الفرسان : واحد من اليمين والآخر من الشمال .

وعلى حين غرة ، وفى حركة أسرع من البرق ، أخذ الفارسان بتلابيب شاور وألقياه عن فرسه ، حين كان جند الشام يأخذون على أصحاب شاور ويفرقونهم ، وسرعان ما تفرقوا وسحب شاور الى خيمة منفردة فقتل واستراح منه الناس .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٩ .

وكان هذان الضابطان بلباس الجند ، ولباس الجند متشابهة ، فلم يعرف الضابطان على التحديد ، فقيل انهما « برغش » و « عز الدين جرديك » وقيل انهما « عز الدين وصلاح الدين » ، ومهما كان الاثنان فقد جرى ما حدث برأى صلاح الدين وأمره (١) ، بل ربما كان بأمر عمه شيركوه أيضا . ثم حمل رأس شاور الى شيركوه فأرسله الى العاضد الذى ما كاد يراه حتى أرسل لشيركوه فولاه الوزارة وخلع عليه الخلع وأفاض عليه المال ولقبه : « الملك المنصور أمير الجيوش » .

وحينئذ تم أمر شيركوه وبلغ جاهه الأوج ، فقد صارت له وزارة مصر من العاضد ، وكانت قد صارت له حمص والرحبة اقطاعا من نور الدين ، وظل هذا الاقطاع لأولاده من بعده ، حتى أخذه منهم نور الدين عقوبة لصلاح الدين وبنى أيوب وسنشير اليه فيما بعد .

وكتب الخليفة العاضد بخطه تقليد الوزارة لشيركوه ، ثم تقدمت الشعراء لمدحه : شعراء مصر فى بلدهم ، وشعراء الشام من بلادهم ، وكذلك فعل الكتاب والأصحاب . ولو لم يفعل صلاح الدين ما فعل لتأخرت الوزارة عن عمه ولم تجىء فى الوقت الذى جاءت فيه . ومن يدرى ؟ لعل الوليمة كانت — لو أقيمت — تقضى عليه ! فكانت يداً لصلاح الدين على عمه حين حدثت ، ثم كانت فيما بعد يداً له على البلاد .

وزارة مصر :

وجرى نصف الحظ لصلاح الدين بقتل شاور ، فقد تولى الأمور من وراء عمه وقرر لها بكفاية وجسارة ، ثم جرى له النصف الآخر بيد القدر فتم حظه ، فقد مات عمه من قريب ولم يعش طويلا : لم يقض فى

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٨ .

منصبه غير شهرين وبضعة أيام . ومع أن الآجال تجرى مستترة وتفد على العباد بلا نظام ، ومع أن آل أيوب كانت تنتهى أعمارهم سريعاً فان موت شيركوه فى الوقت الذى مات فيه أثار الشكوك والأقوال : فمن قائل ان الخليفة العاضد سقى خلعة الوزارة التى ألبسه اياها سما فمات منه (١) ، ومن قائل انه مات بالخانوق ، ومن قائل انه قد أكله النهم الى اللحم فقضت عليه التخمة . ومهما قيل وثار من الاتهامات فان الفرصة قد لاحت لصلاح الدين ، وكان القدر من ورائها يريد ، ولابد مما أراد !

وبموت شيركوه لم يبق فى مصر من منازع لصلاح الدين سوى الأمراء النورية الذين كانوا معه ، وكان هوواحداً منهم ، بل كان أصغرهم سناً ، لم يفت الثلاثين بعد ، فطلب كل منهم الوزارة العاضدية والتقدم على العسكر فى مكان شيركوه : عين الدولة الياروقى وقطب الدين بن ينال وسيف الدين المشطوب : وكانوا ثلاثتهم من كبار القادة والمقدمين ، فطلبوا الوزارة وقيادة العسكر ، حتى شهاب الدين محمود الحارمى طلبها وهو خال صلاح الدين .

وجرت الاستشارات والمفاوضات وكثرت الآراء :

وسعى لصلاح الدين صديقان كانا من أخلص أصحابه : أحدهما سعى من خارج قصر الخليفة ، وثانيهما سعى من داخله : وكان الذى من الخارج « عيسى الهكارى » الفقيه ، فسعى الى الحارمى خال صلاح الدين فأخمد نفسه لقرابته من صلاح الدين ، ثم سعى الى المشطوب والى ابن ينال حتى ميلهم كذلك اليه ، وكلهم مال ورضى غير عين الدولة الياروقى فانه ترك مصر وخرج الى نور الدين بالشام ليتولى مكايد الحساد .

وسعى بهاء الدين قراقوش من داخل القصر ، اذ كان فى آخر أيام شيركوه قد رتب أستاذا على القصر ، يقوم بحفظه ورعايته ورؤية عوراته وسيرته ، فسعى الى العاضد قائلا له :

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥١ .

ان صلاح الدين أصغر القواد سناً ، وكانت بين نور الدين وعمه مغاضبة حتى تولى الوزارة لك فانتقلت المغاضبة الى ما بينه وبين صلاح الدين ، وتوشك نارها أن تضطرم ، وليس لصلاح الدين عسكر يرأسه ، فاذا تولى الوزارة كان مستضعفا ، فلا يجسر على المخالفة .

ثم تقدم من العاضد آخرون يخيلون له أن يجعل على العسكر الشامى من يستميلهم اليه فاذا تفرقوا وصار بعضهم معه أخرجوا الباقين فتعود اليه البلاد وتخلص من أتباع نور الدين .

وخمدت بذلك السعى الحريص الخفيف أنفاس الطامعين ، ثم راقت الفكرة للعاضد فعرض الوزارة على صلاح الدين ، فتمنع صلاح الدين مبدياً أنه لا يريدها ، فألزمه العاضد ، فتولاها كالكاره لها ، ثم خلع عليه الخليفة ولقبه « الملك الناصر » ، فخرج بخلعة الوزارة الى دار عمه شيركوه أسد الدين (١) .

وقد صدق بعض المؤرخين التعبير حين قال انه تمنع ولم يقل انه امتنع ، لأن وثائق نيته وميله الى الوزارة وامتلاك مصر قد سجلها فيما بعد صديقه الشاعر عرقلة الدمشقى وأرسلها اليه فى شعر صارخ الشهادة بأن صلاح الدين كان يريد ، واذن لم يكن التمنع الا أمراً ظاهراً ، وقد يكون الغرض منه أن يزيد العاضد ثقة واطمئنانا ، حتى اذا استوى على الأمر نفذ خطته واصلاحه الذى صمم عليه .

وكان على صلاح الدين أن يقرب ثلاثة من أصحابه خدموه حتى نال الوزارة باخلاص وتضحية : أحدهم « عز الدين جرديك » الذى عاونه فى قتل شاور ، وثانيهم عيسى الهكارى الفقيه وثالثهم بهاء الدين قراقوش وهما اللذان أخمدا الطامعين وزينا للعاضد الطريق ، فقربهم منه واعتمد عليهم وتبادلوا الاخلاص مدى حياتهم ، وسيأتى ذكر كل منهم فى مكانه من هذا الكتاب .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٤ .

ولكن صلاح الدين أحس بفراغ واسع حين مات عمه ، فأراد أن يملأ هذا الفراغ حتى يأنس ويهدأ فكتب الى نور الدين ليأذن لأبيه نجم الدين ولبقيـة أهله أن يدخلوا مصر — تشبهاً بيوسف الصديق وأبيه يعقوب — فأذن لهم نور الدين ، وقد خيل لصلاح الدين — وكان متأثرا بقصة يوسف وما بين الأسماء والحوادث من مشابه — أن يفعل مع أبيه كما فعل يوسف النبى من قبل فيرفعه على العرش ويوليه وزارة مصر ، فأبى نجم الدين قائلا له :

يا بنى ، ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر الا وأنت أهل له ، فلا ينبغى أن تغير موضع السعادة ! فامتثل صلاح الدين وأقطع أهله حتى يعيشوا ، ثم جعل أباه على خزانة المال .

خلع الخليفة :

كان عبد الله بن الفائز الملقب بالعاضد خليفة من بنى عبيد وملكا على مصر اسماً ، أما الأمر فلوزرائه ، وهو يقر كل وزير غالب ، دون أن يسبق برأى ، الا الخوف ! .

وقد زل العاضد فزال عن الجادة ، واتصل بالبدعة فغالى فى سب الصحابة ، ثم استحل دم كل من خالفه ، وقد ظنها العاضد عقيدة كما يظنها الجهلة والطغام ، ولكنها سياسة صنعها الوزراء وأصحاب المنافع ليأكلوا منها ويجنوا ثمارها .

ولِقاءَ هذا الغطاء والغشاوة المعمية خاض الخليفة فى بحر من العبيد والاماء ، واحتشدت بقصره تحف وجواهر ما لم يكن مثلها عند أحد من الملوك ، جمعت فى عهده وعهود آبائه على طول قرنين مع ماورثت الدولة العبيدية من مواريث ومغانم ، فمنها قضيب من الزمرد نحو قصبة ونصف قصبة ، وحبة من الياقوت ليس فى حجمها حبة مثلها فسميت جبل

الياقوت وصارت لها شهرة فى تحف التاريخ : كانت تزن سبعة عشر مثقالا. رآها الناس ووقفوا على وزنها ، وقال ابن الأثير : أنا رأيتها ، ووقفت على وزنها .

وكان كل ذلك أهون ما لقى صلاح الدين فى قصر الخليفة وما نبأه به صديقه قراقوش ، ولعل منها أموراً كان يمكن اصلاحها وتوجيهها وجهة الخير ، ولكن النفوس التى كانت بالقصر : من الخليفة الى أدنى الخدم كانت فاسدة لا تصلح ، وكانت أقرب وداً الى الفرنجة الغزاة منها الى الوزراء الذين عليهم أن يحملوا أمام الشعب تبعات الأمور .

بل كان الخليفة ووزراؤه يدفعون ثمن مترافهم ، لتُضمن لهم ، جزية للفرنجة ، وقد وُصلت بينهما حبال من السر عريقة لا يمكن حصر أساليبها . فقضى صلاح الدين أن يُخلع الخليفة ويوصد القصر ، ثم يفرق الأمراء ويقطعهم حتى يبيدوا ، ثم يزيل العبيد والاماء بالهبة والعتق : وان يكن المؤرخون قد رأوه تلكأ أحياناً ، فهذه طريقة التنفيذ ، ولا أهمية لطريقة بذاتها الا فى نهايتها .

أما الذخائر والتحف والخزائن فانه اصطفى منها نفائسها للدولة ، واستمر البيع على ما بقى بالقصر نحو عشر سنين ، ثم أهدى منها لخليفة بغداد جزءاً ولمولاه نور الدين جزءاً آخر . وأما العبيد والاماء والخدم والحراس فقد فرقهم أو أعتقهم ، ولم يبق منهم أحدا .

وكان من رأى نور الدين أن يعجل صلاح الدين بخلع العاضد قبل موعده الذى حدث فيه لولا أن أجل صلاح الدين مخافة أن يُحرج من الناس ، وكذلك استأنى حتى يستفتى الفقهاء ، فأفتوا بخلعه وعللوا لذلك بانحلال العقيدة وشيوع الفساد ، فنفذ صلاح الدين وصية نور الدين وفتوى الفقهاء .

وخلع الأمراء حين تهون دولتهم على الناس من أهون الأمور ، وانما يحتاج الأمر الى رجل شجاع ، وقد رأينا فى زماننا خلع الأسرة

العلوية وتفرق أمرائها ، وقد أتاح لى القدر أن لقيت أحد جبابرتها بعد خروجه من مصر — لقيته فى بيروت مع قنصل مصر فيها حينذاك وتحدثت اليه ، وكان هو مقراً لما حدث مؤمناً بوجوبه ، لما كان قد صارت اليه دولتهم من التمزق والهوان والغرق فى متارف الدنيا ومطامعها .

ثم جرى القدر سريعاً بما أراد ، فدخل العاضد فى مرض الموت ، ثم مات بعد يومى جمعة متتاليين خطب فيهما للمستضىء العباسى : أولاهما بجامع مصر والثانية بالقاهرة ، ومات العاضد بعد الجمعة الثانية بيومين . وقد قيل انه مات ولم يدر بأنه خلع ، وقد كثرت الأقاويل فى موته ، فقيل: انه انتحر لغيظ شديد أصابه من توران شاه أخى صلاح الدين فسم نفسه فمات ، وقيل انه مات حتف أنفه : وسواء أكان قد مات حتفا أو سما فقد انقرضت بموته دولة بنى عبيد ، وتم أمر مصر لبنى أيوب .

واذا كان الدعاء فى الخطبة قد تحول عن العاضد للمستضىءالعباسى بعد انقطاع الدعاء عن العباسية من مصر مائتى سنة وعشر سنين فانما هو أمر قدره فى مظهره ، ليس غير ، لأن الخليفة العباسى لا يملك لنفسه فى بغداد أمراً كالعاضد ، فكيف بأمر مصر وأمر الشام ! ولكنه كان عملا أرضى نور الدين وأرضى الشعور العام المتعلق بمظهر الخلافة . وقد فرح المستضىء فرحاً لا حد له حين وفد عليه القاضى « ابن عصرون » يهنئه بالخطبة له فى مصر ، فغلقت أسواق بغداد وتبودلت التهانى ونصبت القباب والأقواس . ثم جاءت الخلع منه لنور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر ، وسُيرت الأعلام السود : أعلام العباسية ، لتنصب على المنابر (١).

ولم يحدث ما يكدر خاطر صلاح الدين سوى مواقعته لمؤتمن الخلافة هو وأعوانه من العسكر السود بين القصرين على باب زويلة ، وذلك قبل أن يخلع العاضد ، وكانوا فى محلة هناك تدعى المنصورية (٢) ،

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٧ .
(٢) الناصر صلاح الدين ص ٥٩ .

فواقعهم صلاح الدين بها ، ولم يلبثوا غير ساعة ثم انهزموا فقتل منهم عدد كبير وقتل مؤتمن الخلافة أيضا .

وقيل ان العاضد كان ينظر للمعركة من شرفات قصره فلما رأى كفة صلاح الدين راجحة أسرع فى تلبية مطالبه من الأموال والخيل ليتقوى بها ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من العاضد فرساً ، ولم يكن قد بقى له سوى فرس واحد فنزل عنه وبعث به اليه . وقد علق الحافظ شمس الدين صاحب دول الاسلام على ذلك قائلا : فلما استخلاه من الأموال خلعه من الخلافة .

وهؤلاء العسكر السود كانوا من السودان الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب فصارت لهم عدة ممالك (١) وكان العاضد قد حمى نفسه بشراذمهم مثل آبائه فقويت شوكتهم ، ففطن صلاح الدين لهم منذ أول عهده بمصر ، وأحاطهم بشبكة من العيون والأرصاد حتى قضى عليهم . وقد ثارت فلولهم مرة أخرى بأسوان فكانت القاضية حيث أبيدوا .

الحذر والحيطة :

وكان من طبيعة الأمور أن يدخل فى نفس نور الدين شىء من الريبة والحسد وأن يكبر الشك باستمرار الصعود فى نجم صلاح الدين ، فجرت بينهما وحشة ، وبلغت كل واحد منهما عن الآخر أحاديث ، فقالوا : ان صلاح الدين أراد أن يؤمن لنفسه ملكاً بعيد الأطراف خوفاً من نور الدين ، حتى اذا زحف اليه بمصر وأخذها منه تركها الى منأى بعيد ، فسير صلاح الدين أخاه « توران شاه » الى بلاد النوبة فامتلكها ، ولكن بلادها لم تعجبه فعاد اليه .

وحدث ابان ذلك أن بلغت صلاح الدين تخرصات رجل قد ظهر فى اليمن مدعياً أنه المهدى وأنه يملك الأرض ، ثم لم يقف عند غروره

(١) تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٩٣ .

وتخرصاته فأخذ يستولى على ما يجاوره من البلاد التى تليه ويتملك حصونها وأسقط الدولة الحمدانية فى صنعاء والنجاحية فى زبيد ، فرآها صلاح الدين فرصة لغزو اليمن وتأمين مصر من أقصى بحر القلزم ، فجهز أخاه الراجع اليه من النوبة وسيره اليها .

واستطاع « توران شاه » شمس الدولة فى سرعة خاطفة أن يسحق جيش اليمنى المتخرص « عبد النبى ابن مهدى » وأن يقتله ، فخضعت اليمن له سنة (٥٦٩ هـ — ١١٧٣ م) ، ثم قصد توران شاه عدن فهزم صاحبها وامتلكها ، واستقرت عدن واليمن فى فلك صلاح الدين .

ومع أن اليمن انتقضت المرة بعد الأخرى على صلاح الدين فسير اليها أخا آخر له فأخضعها فانها ظلت فى فلكه وملكه ، وجبيت اليه أموالها وأموال عدن وزبيد وغيرهما (١) بعد أن كانت سيرت اليه أموال عظيمة فى فتحها الأول على يد « توران شاه » ، ولم يلق صلاح الدين فى فتح اليمن واستقرار أمرها له كبير عناء .

حظ جديد :

ووقع نور الدين من أمر تابعه فى حيرة بين أمرين : عقابه ، والرضا عنه . وقد استفحل أمر هذه الحيرة حين كدر أعوان نور الدين قلبه ، وكان فى أول من كدره « عين الدولة الياروقى » الذى خرج من مصر غير راض بأن يكون صلاح الدين وزيراً بعد موت عمه ، فما بال قلبه الآن وقد صار صلاح الدين سلطاناً !

وحين أفزع نور الدين استقرار حال صلاح الدين بمصر مالت حيرته فى أمره مرة نحو العقاب ، فعاقبه بأن عزل عن حمص والرحبة نواب عمه شيركوه (٢) ، ومرة أخرى نحو الترضية ، فأرضاه جزاء جراءته

(١) ذيل النوادر ص ٢٦٧ ، ٢٨٠ — وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٣ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢ .

وعقله ، فكاتبه بألقاب التشريف : كاتبه بالأمـير « الاسفهسلار » أى مقدم الأمراء ، ولكنه كان غير راض كل الرضا ، فجعل لا يفرده بكتاب ، وانما يكتب لقبه ذلك على رأس الكتاب تعظيماً له ، ثم يقرنه بكـافة الأمراء بديار مصر (١) .

وبرغم هذا التردد فى أمر صلاح الدين فقد اكفهر الجو بين الرجلين، ولكن القدر كان رحيماً بالبلاد ، فجرى لصلاح الدين وللوطن الاسلامى بحظ جديد ، فقد مات نور الدين ، ولو بقى لاشتـد ما بينهما ، وهما رجلان قويان ، وقد لا يغلب أحدهما الآخر ، فكان حظ البلاد يضيع بينهما لو بقيا معاً ، وكانت بوادر الخلاف تدل على أنه سوف يشتد ويتفاقم ويستمر ويدوم .

وآية ذلك أن نور الدين بعث الى صـلاح الدين يطـالبه بحساب ارتفاع مصر من الأموال ، فصعب عليه وهم أن يشق العصا ، ثم اعتدل بعد نصيحة أبيه وأمر بعمل الحساب ، وبعث ببعض نفائس قصر العاضد : بعث بقطعة ياقوت زنتها سبعة مثاقيل ومائة عقد من الجوهر ومائة ثوب أطلس وما قيمته خمسة آلاف ألف درهم .

ويروى الحافظ فى تاريخه « دول الاسلام » أن هـذه النفائس لم تصل حيث مات نور الدين قبل أن تبلغ دمشق فنهبت فى الطريق ، أو ردت الى صلاح الدين .

وكان على صلاح الدين اذ سمع بموت مولاه أن يثب الى الشام على الفور ، فان اسماعيل بن نور الدين — وقد ورث أباه — لم يزل طفلا لم يعد أحد عشر عاما ، فلا هو قادر على كبح جمـاح العـدو الطـامع من الداخل ، ولا هو بقادر على دفع العدو المغير من الخارج ، وهو طفل لين رخص فى يد أمراء أبيـه ، وأول تجربة فيه أنهم سيجعلونه ترسـا يرمون صلاح الدين من ورائه .

(١) ذيل النوادر ص ٢٦١ .

ومملكة نور الدين حديثة التكوين والتوحيد ، واسماعيل أصغر من أن يجمع الكلمة ويلم الشمل ويبنى الدولة ، وهذا هو الخطب الكبير . وقد وقع كل ذلك فى ظن صلاح الدين وقدر له ، فصدق فى كل ما ظن وقدر .

وكانت دعوى صلاح الدين — وهو يثب الى الشام — أنه أحق بالوصاية على اسماعيل من كل أمير ، لأنه كان ثقة عند أبيه ، والمقاتل فى مصر بأمره ، والمقر له منه بوزراته للعاضد ، والنائب عنه فى مصر والنوبة واليمن ، فهو أحق بتربية الطفل الوريث ورعايته ، حتى يتم نضجه ويصير أهلا لحماية ملك أبيه .

وما كاد صلاح الدين يبدأ فى قطع الطريق الى دمشق ويبدى حجته تلك حتى كان أصحاب العـداوة والحسد قد هربوا به الى الشـمال ، ليتخذوه ترساً ورداءً ، وتركوا دمشـق ، فكانت فرصة لصـلاح الدين أعماهم حقدهم عنها فدخلها صاحب الحظ الموهوب بلا قتال فى ربيع الآخر سنة (٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م) ، ولما لم يكن قد لقى أحدا من خصومه فقد سار اليهم فلحق بهم وضم اليه منطقة الشمال كلها : حمص والمعرة وحلب وكل ما حـول هذه البلاد من قرى وحصـون ، وقضى فى جولاته تلك نحواً من سنتين .

وأهم ما حدث فى رحلة صلاح الدين هذه انفتاح عينه على الموصل ، وكان سبب ذلك أن صاحبها « سيف الدين غازى » ابن عم الملك الطفل اسماعيل برز لصلاح الدين وهو عائد بجنده من حلب ، وجعـل ينقض عليهم ويتخطفهم من الأطراف ، فأرسل اليه صـلاح الدين مستكبراً عن حربه ينهاه ويثنيه ، فاستكبر صاحب الموصـل وبالغ فى عدوانه ، فارتد عليه صلاح الدين فكسره كسرة موجعة ، وأسر جمعا غفيرا من رجاله ، ثم عاد فأطلقهم منا ، ولكن بعـد أن انفتحت عينه على الموصـل وأعد لها يومها .

ولم يكن صلاح الدين يحارب مثل هذا الأمير الا اذا طغى ، فقد كان بطلا يستكبر أن ينازل الضعفاء ، فاذا اضطروه لمنازلتهم عف عن مغانمهم بعد دخولهم فى طاعته . ومن طريف ما حدث فى ذلك أنه حين نازل « سيف الدين » صاحب اربل وغلبه ، نزل الى سرادقه وتسلم خزائنه واصطبلاته ومطابخه ففرقها جميعاً ، ثم رأى فى السرادق طيوراً من القمارى والبلابل والهزارات والببغاوات فى الأقفاص ، فاستدعى أحد ندماء سيف الدين وقال له :

خذ هذه الأقفاص واذهب بها الى سيف الدين وسلم عليه عنا وقل له : عدْ الى اللعب بهذه الطيور فهذا أسلم لك عاقبة من الحرب !

دمشق وحلب :

وكانوا يرون — ولم يزل الأمر الى زماننا — أنه ليس لدولة قوة فى هذه المنطقة دون حلب ودمشق ، ولهذا طلبهما صلاح الدين ولو كان فيه رغم أنف اسماعيل . ودمشق وبلاد الشام كانت دائماً قلب الدولة الاسلامية ولجة مجتمعها ، بل كانوا يرونها أصلا والبلاد كلها فروعا . وحلب احدى قواعد هذا الملك وأصل منه ، وهى خط الدفاع الأول لصد الغزاة من الشمال ، وقد بنيت قلعتها لهذا الحساب من قديم ، وصارت حلب كلها قلعة .

واقليم حلب اقليم واسع ضارب السعة غزير الخيرات ، وقد طفت أنا معظم قرى هذا الاقليم وبريته فى عصرنا ، ولاحظت نمو النبات فيه ، فكأنى — لسرعة نموه وصعوده اذا انهمر المطر — أكاد أراه ينمو أمام عينى وأقيس نموه ، وليس فى قولى مبالغة ، فالأرض بكر عاتية الخصوبة ، وقد شاهدت القمح فى نواحى « ادلب » يغطى هامة الرجل الطويل . وأشجار الزيتون فى مداخل « حارم » ترتسم خطوطاً خضراء على رقعة أرض حمراء فتبدو كصورة على ورق . وشجيرات الفستق تغطى بعض

الأنحاء كأنها صحارى خضراء ، والخضر تنمو وتكبر فى أوانها نمواً عجيباً ، والأزهار الوحشية تكسو أرضها فى الربيع كأنها أبسطة عجيبة الصنع والألوان . واللبن المروب يسقى فى قراها فى الصيف مكان الماء . وقد كان هذا ولم يتركها استعمار بعد استعمار حتى قتلها وأجدب أرضها وأغاض ماءها وخفض من سكانها ، فكيف كانت أيام صلاح الدين ؟ !

واذا كانت هذه حلب فكيف بدمشق وهى بلد الغوطة ، والغوطة احدى العجائب ! وان الأمل لكبير وقد تولى الأمر رئيس عربى أمين ورائد مخلص حكيم أن يعود لحلب واقليمها فى أيامه الخير الذى كانت ترفل فيه قبل الحروب المقدسة ، والله ولى توفيقه .

أما أهل حلب فكانوا يرونهم قديماً شديدى الغيرة قساة فى القتال ، وقد رأيتهم حين عاشرتهم لم يزالوا قساةً على مستعمريهم ، وهم على خلق كبير ، ومن أجل ذلك كله طلبها صلاح الدين وسار اليها مسرعاً ودأب فى طلبها ، ثم صارت حين أخذها احدى قواعد ملكه وحصونه المنيعة .

موت اسماعيل :

ولم يكد صلاح الدين يرجع من الشام الى مصر حتى وافاه الخبر بموت الملك الطفل اسماعيل ، ووقع الاضطراب بموته فى حلب والشام ، وعبث الأرمن بالنواحى التى ينزلون بها ، وتقاتل الأمراء فيما بينهم ، وآثروا أن يستعين كل منهم الفرنجة على صاحبه ، فآذنهم صلاح الدين بهجوم عاجل ، فانطلق فى سبعمائة فارس فبلغ دمشق فى صفر سنة (٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م) فخرج كل من كان بها من العسكر وانضموا اليه ، وترددت القلعة قليلا ثم سلمت ، فانطلق صلاح الدين بجنده المصرى والشامى يخضع لمنطقة بأسرها : من آمد فى أقصى الشمال الى دمشق التى من ورائها حوران ومصر ، ومن الموصل فى أقصى الشرق الى حارم وطرابلس وبيروت على ساحل البحر فى أقصى الغرب .

وسرعان ما استطاع أن يقهر الخارجين عليه فى حلب ، وأن يغلب آمد ، وأن يخضع خط البلاد الشمالية من الموصل فى شمال العراق الى حارم وهى أدنى البلاد من اقليم الاسكندرون . وقداجتاز هذا الفارس البطل كل تلك المناطق المترامية الأطراف الصعبة الهضاب ومرتقى الجبال والغائرة الوديان فى مدة يسيرة ، وكأنه عَيْن" تعبر أرجاء الكف فى لمحات ، وقد سبقته هيبته وسمعته فجعلت البلاد تسلم والحصون تخضع ، بل يطلب الناس غزوه وحكمه .

ولم يلبث اسم صلاح الدين أن غطى على اسم نور الدين ، أما اسماعيل فقد قطعت بموته الخطبة عنه ، وأزيل اسمه عن النقود ، ثم لم ير صلاح الدين بدا من أن يرسل الى الخليفة المستضىء برسالة ، كتبها وزيره القاضى الفاضل ، يذكر بها ماله على الخلافة فى بغداد من مآثر بجهاد العدو وفتح مصر واليمن وافريقية واقامة الخطبة العباسية ، وطلب تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما كانت تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد بعده ، فأجابه المستضىء بما أراد ، وأرسل اليه وفداً بالتقليد بما شاء من الولايات ، وأفاض الخلع على الوفد وعلى أقرباء السلطان .

ولم يتعجل صلاح الدين حين طلب من بغداد ما طلب ، فقد سنحت له الفرصة ، بالقوة التى صارت له ، والبلاد التى أحبته ودخلت فى طاعته ، ولعله لو تأخر فى طلبه لدخلت بغداد معه فى دور مغاضبة طويل كما كان دخل معه نور الدين ، ومع كل ذلك فان ما طلبه صلاح الدين لم يكن الا ما جرت به التقاليد فى تلك الأزمنة من احترام الخلافة والتظاهر بطاعتها ورضاها .

الباطنيـــــــة :

ولو تم الأمر لصلاح الدين فخضعت له المنطقة بعد هذا كله لأمكنه أن يقذف بكل قواه فى وجه الفرنجة وينصرف اليهم فارغاً من كل هم ، ولكن أعوان الشر وقفوا له فى كل مرصد ، فعطلوا قواه عن الانطلاق .

ولم تطل الحروب الصليبية فى أرض بلادنا الا من هذه المكايد والحبائل ، وما طمع العدو فينا من قبل ومن بعد الا وهو يتكىء على أعوان الشر ، وقد كان أولئك أيام صلاح الدين من أنصار قصر العاضد ، وبعض رجال القبائل المتمردة ، والجند الذين تحولت الدنيا عنهم ، والملاحدة والمتعصبة الذين أعماهم التعصب وأضلهم فانتهزوا غفلة العامة عن حقائق الدين فابتدعوا الخطة العوجاء وزينوا الضلال للنفوس .

ولقد كان القدر مظاهراً لصلاح الدين فمكن له من رقابهم جميعاً ، ولكنه لم يسكن له منهم الا على فترات ونوبات . وأشد ما كانت تستفحل شرورهم وهو يلقى الفرنجة أو الأمراء ليجدوا فيه الفرصة ، ولو أمكنه القضاء عليهم جملة واحدة لجاءت نتائج أيامه أبهر مما جاءت ، غير أن ذلك لم يكن بالامكان ، فقد كانوا متفرقين على الأزمنة والبلاد ، وكان صلاح الدين منهوب الفكر موزع القوى متفرقاً متبدداً : كان يستخلص الملك ، ويوحد البلاد ، ويصد العدو ، ولم يكن له بد من الاصطلاء بكل تلك الشرور ، وهى آفة المُلك ، ولا بد منها ، حتى لو كان صلاح الدين يبنى ملكا صغيرا ، ولكنه كان يبنيه كبيرا ، ويخط فيه مجدا أثيلا .

وكان قد انبثق من الباطنية فريق متطرف قد خرج وألحد ، وأبطن غير ما أظهر : أبطن الاباحية فتخدر بالحشيش وارتكب الآثام ، وأظهر أمام الناس أنه قادر على المعجزات ، وهو يهب الجنة ويُدْخل النار ، وقد تلقوا عقيدتهم تلك عن استاذهم القديم حسن الصباح شيخ الجبل

المشؤوم (١) ، وحسبك أن تعرف أنه كان زميل عمـر الخيام فى عاصمة خراسان فتلقنا معاً عقيدة كلها شك وارتياب .

وقد هال هذا الأمر عقلاء ذلك الزمان ومتدينيه ، ولم تمنع شرورهم رجلاً كالامام الغزالى أن يكتب فى فضـائحهم كتاباً يرفعه الى الخليفة المستظهر العباسى ، ولو نالوا الغزالى لقتلوه ، وتبع الغزالى علماء كثيرون كتبوا وفندوا كما كتب وفند .

وقد تبعهم سواد من المعوزين ، كالبقر لا يطلب غير العلف . وفى غفلة الدويلات عن ضبط البلاد والأمور ، وجد هؤلاء منفذاً الى السياسة والقوة ، فأخذوا يستولون على قلاع البـلاد الاسلامية ويخرجون منها جند الأمراء ، ويبنون لهم قلاعاً جديدة ، ثم جنـدوا فريقاً من الفدائيين فرضوا عليهم الطاعة العمياء ، فسفكوا الدماء وأخافوا الدويلات وملأوا قلوب الناس رعباً .

ولقد صارت لهم مئات القلاع ، وجبيت اليهم الضرائب ، وفرضت الاتاوات ، وامتد سلطانهم من مصر الى ما وراء العراق العجمى ، وبلغوا غاية القوة أيام الحروب المقدسـة ، وكان كل من يتعرض لهم بسوء من المشارقة أو الفرنجة يلقى حتفه على أيدى فدائييهم ، فكان من البديهى أن من أراد الغَـلَب سعى لضمهم الى جانبه .

واستحالت هذه الطائفة الى عصـابات للقرصنة تقطع الطرق وتهاجم التـجار والحجاج ، وتنهب الأموال والأرواح ، وقد حاول السـلاجقة ردعهم ودحرهم فلم يستطيعوا ، ثم تفـاقم أمرهم أيام عماد الدين زنكى والد نور الدين وأيام نور الدين نفسـه ، فلما جاء صلاح الدين ورأوه حذراً قوياً أضمروا السوء له ، وتربصوا به الدوائر .

---

(١) مجالى الاسلام ص ٣٣٠ .

فحين حاصر حلب وقد عسكر خارجها بتل « جوشن » مكان مدينة سيف الدولة فى غربى حلب الحالية ، جاء جماعة منهم واختلطوا بالعسكر وحاولوا أن يصلوا الى خيمته فلم يتمكنوا وردهم العسكر بعد قتال سقط فيه قتلى من الجانبين (١) .

ثم حدث اعتداء آخر : فبينما كان صلاح الدين يدخل « عزاز » باقليم حلب سنة (٥٧١ هـ — ١١٧٥ م) دخل فدائيوهم — كعادتهم — الى خيمته ، وقد أحكموا هذه المرة أمرهم ، وكانوا ثلاثة : دخل أحدهم وراء الآخر — كما كانوا يفعلون ويرتبون دائماً — ودخلوا فى زى حراس صلاح الدين وجنده ، وما كاد الأول يدخل حتى وثب على صلاح الدين ، غير هائب من جند ولا سلاح ، فضرب رأسه بسكين ، فأمكن السلطان أن يمسكه بيده غير متمكن ، ولكنه خفف عن نفسـه بما فعل ضربات أخرى أصابت عنقه ، وكان السلطان ، يومذاك ، يلبس درعه ، فكان الدرع وقايةً من الله له .

ونشبت معركة بين فـدائيى الباطنية وحـراس السـلطان ، وجرح بعضهم بعضـا بالمدى والخنـاجر ، ثم ثار العسكر وهموا للنجدة ففروا والعسـكر يتبعهم ويقتل من يلحق به منهم ، وقد بيت لهم السلطان نية الثأر . فحين عاد من حلب فى العام التالى مال الى قلعتهم فى «مصياد» (٢) بين حماة وطرابلس ، ونصب عليها المنجنيق وأوسعهم قتلا وأسرا ، وساق أمامه ما نهبوه من دواب الناس وأموالهم .

وبينما كانت هذه الأمور تقع بينهم وبين صلاح الدين عـلى أرض الشام كانت جماعة أخـرى قد ثارت فى مصر أيضاً ، وكأنما كانوا على اتفاق :

---

(١) صلاح الأيوبى ص ٥٩ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسـلامية ج ٢ ص ٢٢٨ — ابطـال الوحدة ص ١٠٤ — وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٦٨ .

ثار رجل يدعى « أبا شجاع الزجاجى » من بلدة تدعى « الزجاجة » بين قوص وقفط بصعيد مصر ، واستتر وراء رجل يدعى عبد الجبار ابن اسماعيل بن عبد القوى (١) داعى الدعاة — الذى قتل اثر معركة السود وخلع العاضد — ومنصب داعى الدعاة كان المنصب الأول للباطنية — مدعياً أن هذا الرجل انما هو « داود بن العاضد » فله ميراث مصر ، واشترك معهم فقيه من فقهائهم يدعى « يوسف بن اسماعيل الشيبانى » وجماعة من أتباعه . وكان الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين نائباً عن أخيه على مصر فسار اليهم من فوره وأخذهم أخذاً وبيلاً ، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف .

وظفر صلاح الدين بعشرة من الفقهاء والأمراء كاتبوا الفرنجة لعودة الدولة العبيدية فصلبهم بعمائمهم وطيالستهم ، وكان منهم عمارة اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب وقاضى القضاة وداعى الدعاة وبعض جند صلاح الدين نفسه .

وقد خمدت أنفاس هذه الطائفة التى تحن للدولة العبيدية بمصر الا ماكان فى سنة (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) فقد خرج اثنا عشر رجلا يسلكون دروب القاهرة بالليل ويدعون للثورة ، وكان صلاح الدين قد تأزر نصره وكمل أمره ، فصم الناس عنهم آذانهم ورشقوهم بالشتائم والأحجار ، فتفرقوا فى ظلام الليل خائفين .

وكما تأثر صلاح الدين مما حدث من جنود شاور المصريين فى حصاره بالاسكندرية تأثر من عمل هؤلاء ، وأسف له ، لأنه رأى الشر لا ينام ، وبغى بنى آدم لا ينتهى ، وماذا يعمل صلاح الدين بعدما عمل للبلاد والدين ، ولكن وزيره القاضى الفاضل سكن خاطره وأذهب ما بنفسه .

ومنذ ثارت الاحن بين هذه الطوائف وبين صلاح الدين اشتد عداؤه لمذهبهم ، وتعقبهم فى البلدان وأقفل مدرستهم بالقاهرة ، وظل

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٠ .

يحذرهم الى آخر أيامه ، حتى كان من شروطه فى صلح الرملة — الذى سنعرض له فيما بعد — وهو الصلح الأخير الأكبر — ان تدخل بلاد الاسماعيلية فيه .

القبائل المتطرفة :

ورأى صلاح الدين فى أثناء حروبه وتجاربه تطرفاً فى بعض القبائل واستحلالاً منها للبغى والعدوان ، ومن هذه القبائل بطون من « ثعلبة » كانوا قد أعانوا عليه الفرنجة فى أرض الأردن ، فسيرهم وأوسع لهم فى بلاد « جذام » ، وكانت قبائل « جذام » قد اختلطت بمصر وسكنت بطون منها بلاد « الحوف » فى الشرقية ثم فى الاسكندرية والبر الشرقى من صعيد مصر ، وكان كثير من رجال هذه البطون مشايخ للبلاد وخفراء لها ، ولهم مزارع ومآكل ، فاكثروا الفساد فى الأرض ، فنقل صلاح الدين اليهم بطون « ثعلبة » وأوسع لهم فى بلادهم حتى تحد القبيلتان كل منهما شر الأخرى (١) .

توحيد البلاد :

فى عصرنا ، وبعد ما يقرب من ثمانمائة عام من أيام صلاح الدين ضاعت أرض فلسطين ، ووقعت فى أيدى اليهود بأساليب من خداع المكر أكثر مما هى من خداع الحرب ، وظهرت اثر ضياعها فلسفة تدعو الى توحيد البلاد فى المنطقة ، لأن سبب الضياع كان من فرقة الملوك واختلاف الرؤساء ، أكثر مما كان من ضعفهم وغفلتهم ، فلا سبيل الى النصرة قبل توحيد البلاد ، ولا منقذ الا هذا التوحيد .

(١) نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩ .

واضطربت الآراء بين فكرتين : فكـــرة ترى الاتحاد يكون بتنازل الملوك والرؤساء لملك أو رئيس واحد ، من تلقـاء أنفسهم ، أو بضغط من شعوبهم . وفكرة ترى أن الملوك والرؤساء لن يتنازلوا عن عروشهم ورياساتهم بغير القوة . وتحمس كثير من ذوى الفكر لهذا الرأى الثانى ، ولم يروا حلاً لمعضلة الخلاف والتوحيد غير أن يقـوى أحد الرؤساء فيغلب الآخرين ، ولا ينتظر منهم شيئاً لن يفعلوه ، فيتم على يده التوحيد .

وهذا الذى جرى من حوادث وآراء قد دل على حقيقة وضع بلادنا فى أيام صلاح الدين ، اذ الحال فى أيامه كالحال فى أيامنا ، لا فرق بين الحالين ، والفلسفة التى ثارت حول التوحيد حينذاك هى نفسها التى ثارت فى أيامنا ، ولكن ذلك العصر تبنى فكرة التوحيد بالقوة ، كما رأته بعض الآراء فى أيامنا ، وحاول توحيد البلاد أمراء كثيرون قبل صلاح الدين ، ولكنهم عجزوا حتى جاء هو فوحدها بالقـوة ؛ لأنه كان الطريق الذى آمن به ووثق من نفعه ، ولأن الظروف كانت تواتيه ، وان كان قد رجع عنه بشفاعة الشفعاء فى آخر أيامه ، ولكن بعد أن كان قد وحد معظم البلاد .

غير أن الزعيم الذى حل فى مكان صلاح الدين اليوم لم ير أن توحد البلاد بالقوة ، لأن توحيدها بالقوة يريق الدماء ويجعـل للعدو منفذاً ، وهو عدو كثير العدد بالغ العدة ، لا تنتهى حيله ولا تنقضى مؤامراته ، فوكل الأمر للزمن ووعى النـاس . وهو على حق فيـما رأى : فالزمن كفيل أن يرد الباطل ويقهر العناد ، والوعى جدير بأن يغلب قوى الشعوب على حكامهـا ، بل جدير بأن يجعـل الحـكام يدركون الحق ويلهمون السداد ولو فى النهاية ، من حيث لا تترك للعدو مداخل ولا ثغور ، وربما لا تنتظر الأحداث طويلاً حتى تولد ، فقد تولد فجأة ، من حيث لا يكون ميلادها فى الحسبان .

وقد جد رأى جديد آخر فى زماننـا ، هو أن الأمة الكثيرة العدد الواسعة الأرض أقدر على الحياة من الأمة الصـغيرة الضيقة فى عددها

وأرضها ، وقد حاولت دول" فى عصرنا أن تضم الى أرضها وأهلها كل بقعة تدعى أنها منها ، ولئن لم تكن هذه نظرية علمية فى أيام صلاح الدين فقد عمل لها وحققها ، اذ كان فى حاجة الى الدفاع عن أرض الشرق الأوسط كله ، فلم يجد بداً من أن يوحد بلاده ويوسع آفاقها ويكثر من عددها ، حتى يرد أوروبا الطامعة ثم يعيش هو وقومه فى عزة وامتناع ، ولم ير صلاح الدين من أجل ذلك بأساً فى أن يحارب حتى مولاه السابق وابن مولاه لو دعت الحال ، لأن الأمر لا ينتظر الامهال .

وفاجأ صلاح الدين الأمراء والحكام قبل أن يفاجئوه ، وبدد قواهم قبل أن تجتمع ، وصرف اهتمامه لجماهير الناس دون ولاتهم وأمرائهم ، فهفت اليه النفوس ، وخفقت بحبه القلـوب ، وتعاون الناس على ولاتهم وخرجت عن طاعتهم .

ولم يأل صلاح الدين عملاً فى تحبيب الناس وجذبهم اليه ، وكان جوده على أهل القاهرة وأهل دمشق فى مقدمة ما بذل من جود وانفق من أموال ، ولم يلبث أن تعصب الناس له وقهروا أمراءهم من أجله :

ومن طريف ما حدث : أن « مسعود بن بيسان » المتغلب على آمد طلب الى أهل بلده أن يقاتلوا صـلاح الدين معه وعن نفوسهم ، وكان يحاصرهم ، فقالوا له : ليس العدو بكافـر حتى نقاتل عن أنفسنا ! ثم تهاونوا فى القتال وجنحوا الى السلامة وتهافتوا ليملكهم صلاح الدين .

فلما غلبه السلطان سمح له أن ينقل من آمد ما شاء ، فى ثلاثة أيام ، وأعانه السلطان بالدواب والرجال ، ولكن أهـل آمد وأصحاب أميرها على الأخص لم يعاونوه وطرحوا أمره ونهيه ، وحملوا على الدواب التى أعانه السلطان بها وسرقوا البعض ، وانقضت الأيام الثلاثة ولم ينقل ابن بيسان الا القليل مما أفلت من أيـدى الناس ، وترك ابن بيسـان آمد وأبراجها مملوءة بأنواع الذخائر .

وحدث كذلك أن ولى اسماعيل بن نور الدين رجلاً يقال له « سرحك » على قلعة « حارم » وكان مملوكاً نورياً ، فامتنع من تسليمها للسلطان واشتط فى الطلب والشروط ، وراسل الفرنج ليحتمى بهم ، فتسرب خبر ذلك الى من بها من الأجناد ، فوثبوا على « سرحك » وقيدوه وحبسوه ، ثم أرسلوا الى السلطان يطلبون أمانه وانعامه ، فأجابهم الى ما طلبوا ووفى بما وعدهم به وزاد .

وهكذا أحبه الناس جميعاً ، حتى لم يبق قلب فى الأمة العربية والأمة الاسلامية الا وقد أحبه وتمنى فداءه لو مسه السوء ، وكانت صرخته الدائمة للجهاد أول أسباب هذا الحب . ولم ينس صلاح الدين حاجات الناس لسعة العيش والحياة ، بل لم ينس أن يسد المطامع لو ثارت ، فلم يمسك يده عن اقطاع الأمراء واعطاء العلماء والشعراء ، ولم يَنِ عن بذل المال ، حتى العامة كان ينثر عليها فى رحلاته وانتصاراته بدر المال . ولم يجهل صلاح الدين أن قلوب الناس معلقة دائماً بالأجواد المسرفين .

وقد انتقل حب الناس له الى ايمان به ، حين انتصر وتوالى نصره ، فكان اذا نادى للجهاد خف الناس لنجدته ، وأسرعوا لنصرته ، وأقبلوا على الموت بين يديه فرحين بالاستشهاد ، ولم يَعْصِ واحد فى الأمة كلها من ندائه أو يتخلف عن دعائه .

ولقد تم توحيد الشام ومصر عام (٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م) على يديه ، والحق ان نور الدين كان قد سبق الى العمل لتوحيدها بكل الوسائل ، حتى أنه وهو أمير على حلب تزوج ابنة « معين الدين أنر » صاحب دمشق فصارت له بهذا الزواج جرأة على دمشق .

ولا يستطيع أحد أن يتهم صلاح الدين بأنه كان طامعا ، وحتى لو اتهم فى أول أمره حين كان يجمع أطراف البلاد فى يديه ، فانه لا يتهم بعد أن جمعها ثم لم يجلس على أريكة ملكها الواسع منتفعا بشهواته ، بل حارب بها وبقواها ، واصطلى هو نار حرب عوان مع الناس وقبل الناس ،

ولم ينزل عند قصر من القصور أو يمتلك أرضا أو عقارا ، ولم يحبس مالاً .

وكما يقول العرب : قطعت جهيزةُ قول كل خطيب ، فان صلاح الدين بانفاقه ماله وعمره فى الجهاد أبطل كل اتهام ، وقد ثبت أنه لم يفتح بلداً ليملكها بل ليوحدها ، وكان الدليل أنه كان يترك أمراءها عليها متى نزلوا على الطاعة وانقطعوا عن التودد للفرنجة واستجابوا لنصرة الدين .

وقد اهتم صلاح الدين بجمع كلمة البلاد واستمدادها حين رأى الفرنجة قد اجتمعت كلمتهم ، وتضافرت قواهم ، ولو كان بلداً واحداً ضده ما استمد كل بلاد المسلمين ، ولكنه كان كل ما وراء البحر من بلاد .
وصلاح الدين كان أول زعيم — بعد ضعف الدولة الاسلامية — استطاع أن يقبض على قوات مصر والشام ، ويوحد بين البلدين ، فغلب الصليبيين، ويقول سيديو :

وفى هذا سر ما أصاب الصليبيين من قوارع !

وجمع صلاح الدين فى يده قطعة كبيرة من الدولة القديمة : فجمع مصر والشام وشمالى العراق واليمن والنوبة وساحل افريقية .

مواصلة المغرب :

وقد ود صلاح الدين لو تم له أن يصل شرق البلاد الاسلامية بغربها ، كما كان الأمر عند الفتوح الأولى ، حتى يكون المسلمون كلهم قوة واحدة كما هم أمة واحدة ، ولكن ذلك لم يجاوز وده وأمله ، فلم يتصل بالمغرب الا مستنجداً ، فكتب الى يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب يستمده ويستنصر أسطوله فلم يغثه ، لأنه كان مشغولا بحروب صليبية فى بلاده ، وأكثر من ذلك أنه لم تكن له نية الاتفاق مع صلاح الدين ، أو لم ير من وراء ذلك نفعاً كبيراً .

وكتب صلاح الدين أيضا للملك المنصور بفضل الله « يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » يستنجد به ، فلم ينجده كأبيه ، لأن صلاح الدين لم يخاطبه بأمير المؤمنين التى اشتهر بها هناك هو وأبوه ، فأضاع حب الألقاب الجوفاء صالح المسلمين (١) .

ومع أن الأب والابن كانا فى شغل شاغل عن صلاح الدين بتأسيس ملكهما ومحاربة أعدائهما ومناجزة فرنج الأندلس ، فلم يكن لهما قدرة على مد صلاح الدين الا أنه كان من الممكن الاستغناء عن قطع من أسطول المغرب ، وقد كان أقوى أسطول فى البحر الأبيض حين ذاك ، ولم يقصر صلاح الدين فى دعوة الاخوة للنجدة والمعـونة ، فعليهم اثم ما قصروا ولصلاح الدين ثواب ما فعل .

---

(١) الحروب الصليبية فى المشرق والمغـرب : انظر باب الحروب الصليبية فى المغرب الاسلامى .

التدبير والمال

- مركز الدوله
- قلعـة صلاح الدين
- سور القـاهرة
- جسر الجيزة
- مينـاء المقس
- طراز جديد للمعاهد
- الاقطـاع
- رعاية الانتاج
- موارد المـال
- بيت المـال
- الاسراف فى العطاء
- تبـدير بنى أيوب
- ضرورات العطاء والانفاق
- تقسيم المملكة

مركز الدولة :

أقام صلاح الدين بمصر ثمانى سنوات كاملة قبل أن يضم اليها الشام ، فكانت القاهرة مركز حكومته ، وحتى حين ضم اليها الشام ووحدها معها كانت مصر لم تزل مركز هذه الحكومة وكانت اليمن والنوبة وليبيا تابعة لها ، وفى القاهرة يقيم نوابه ووزراؤه ، ومنها يصدر أمره الى مختلف ما يتبعها من أقاليم .

حتى اذا أصبحت دمشق مركز حروبه تنقلت الحكومة معه مع بقاء أهمية مصر واقامة الملك العادل نائباً عنه فيها ، وقيام وزيره القاضى الفاضل بها معظم الأيام .

ولما لم يكن صلاح الدين — وهو سلطان على مصر — يدرى من أمور الغيب التى حدثت فيما بعد شيئاً فقد فكر وصرف كل همه فى أن تكون بمصر مشروعاته الكبرى ، ولم ينزل عن اهتمامه هذا حتى وهو يحارب فى أرجاء الشام والعراق ، ويبدو أنه كان يريد العودة اليها متى انتهت حروبه ، وقد فكر فى ذلك وأراده حقيقة حين نوى أن يمر بها وهو ذاهب الى الحج الذى نواه ولكنه لم يستطعه فى آخر أيامه .

وانصرف فكره الى تقوية مصر — مركز حكومته القديم أو المنوى — دينياً وعلمياً وعسكرياً : أما دينيا فقد فعل وهو سلطان ما سنعرض له فى الباب الآتى من احلال المذهب الشافعى مكان المذهب الباطنى ، وعمل على نشره وشيوعه أكثر مما كان له .

وأما علمياً فكان بتشجيعه حركة العلم والأدب ، وانشاء مدارس نظامية له تكثر وتعم وتكبر ويكبر أثرها مع الأيام ، وان كان الغالب عليها الطابع الدينى ، وكان هذا التشجيع يسير باطراد غير متأثر باشتغاله بالحروب ، فقد كان هو يشير ثم يقوم نوابه وأمراؤه بتنفيذ ما يشير به .

وأما التدبير العسكرى فقد شغل معظم باله كما استنفد معظم ماله ، اذ انصرف همه للقاهرة يحصنها : وكان لا بد لهـذا التحصين من سور يرد عنها المعتدى ويوقفه عند أبوابها دون أن يقتحمها فى سهولة ، ولابد له أيضا من حصن مارد جبار يقذف بنيرانه الجموع التى تقصدها ، أو يحبط المؤامرات التى تقـع بها ، أو يلجأ اليه حـكامها وعساكرها حتى يستطيعوا الدفاع عنها أطول مدة .

وهذان الأمران اذا بلغ العدو أبواب القاهرة . أما قبلها فلا بد من أخذ الحيطة أيضاً حتى لا تؤخذ القاهرة على غرة ، وجانبها الغربى مخوف أكثر من جانبها الشرقى حينذاك ، فحتى يصل العدو من الشام يصطدم بمدن وصعوبات يعرفها صلاح الدين أكثر مما يعرفها غيره . أما اذا غزيت من الغرب فانه يسـهل أخذها متى أخـذت الاسكندرية وأخـذ اقليم البحيرة .

وقد أخبر ابن جبير فى رحلته : أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين الذين غزوا الجزائر وتونس وطرابلس فى سنة (٥٥٣ هـ — ١٥٥٨ م) بعد أن أخضعوا مراكش وبلاد الأندلس ، حتى أصبحت طلائع جيش عبد المؤمن القائد المنتصر على مقربة من حدود مصر الغربية ، فاتخذ صلاح الدين لنفسه الحيطة على الرغم من أن الغزو الذى كان منتظراً لم يقع .

لذلك أخذ صلاح الدين يبنى جسر الجيزة حتى يرد العدو القادم من الغرب .

قلعة صلاح الدين :

وكانت القلعة بالنسبة للقاهرة فكرة جديدة (١) حين ذاك ، ولكنها خطرت خطوراً سهلاً على ذهن صلاح الدين ، لأنه رأى أمثالها على الربى

(١) سيرة القاهرة ص ١٥٣ .

العالية فى الشام وغيرها تتحكم فى المـدن والأقاليم . والقلاعُ بهذه الصورة كانت فى مأمن من العدوان .

وقد أدرك صلاح الدين سهولة الايقاع بالعاضد وأمرائه فى قصورهم القائمة على جناحى سـوق القاهرة مختلطة بالناس ، فأراد أن يتخذ له مسكنا منفرداً — كما قيل — ولعله كان فى الفتـرة الأولى يفكر فى اتخاذ مسكن دائم ، ولكنه كرهه فيما بعـد أو تركه اضطراراً كما قلنا من قبل .

وبالقياس الى أماكن القلاع بالشـام اختار صلاح الدين أو اختار مهندسوه مكانا بارزا من جبل المقطم متوسط الارتفاع مشرفا على القاهرة القديمة ، بحيث يستطيع أن يحمى جناحيها من صحراء السويس وسهول حلوان والنيل ، أو ليخضعها هى اذا نفرت وثارت .

وما كادت الفكرة تستقر لديه حتى أخذ أسرى الفرنجة والروم فى عدد لا يحصى ، يحملون الأحجار من محاجر الأهـرام بالجيزة لتستخدم فى أعمال البنـاء ، وقد رآهم الرحالة ابن جبير وهم يعملون فى القطع والنحت والبناء .

ويقولون : ان هندسة بنائها — ولو أنه لم يتم دفعة واحدة وانما استمر الى ما بعد صلاح الدين بسنين كثيرة — أقرب الى الطراز السورى الفرنجى منه الى الطراز البيزنطى ، وهو طراز تأثر به صلاح الدين فأبرزه فى أكثر من مشروع .

سور القاهرة :

وتحت تأثير الهدفين اللذين يهدف اليهما صـلاح الدين : التوحيد وحماية البلاد ، أمر أن ينشأ سور حول المدن الأربع التى كونت القاهرة فى عهده ، هى : الفسطاط التى انشأها عمـرو بن العاص والعسكر التى

أنشأها صالح بن على العباسى ، والقطائع التى أنشأها أحمد بن طولون والقاهرة التى انشأها جوهر الصقلى . ووكل بالسور ليشرف على بنائه صاحبه بهاء الدين قراقوش ، وكان قد سبقه سور آخر بناه بدر الجمالى .

غير أن هـذا السور لم يتم فى عهـده ، لأنه أمر به وهو مشغول بحروبه فى سـورية ، وكان حسب نوابه بمصر أن يجمعوا له الأموال والرجال لمده فى حروبه ، فلما تم السور بعد موته كان دوره سبعة أميال ونصف الميل .

ولم يكن السـور — كما يتبادر الى الظن — حائطاً يقام حـول القاهرة غليظ البنيان ذا ارتفاع ، وانما أنشئت به أبراج مستديرة ليرمى منها بالقذائف وتتخذ منافذ للمراقبة ، وقد بقيت منه أجزاء الى اليوم تدل على عظمة بنائه وكثرة نفقاته ، وان لم تنتفع منه القاهرة بشىء فيما بعد الا أنه أثر من الآثار .

جسر الجيزة :

وهذا الأثر لم يبق منه الآن شىء معروف ، وقد كان من المشآت الدفاعية التى أنشأها صـلاح الدين ، وكان — كما وصفه ابن جبير — قنطرة شرع فى بنائها على الضفة الغربية للنيل ، وعلى مقدار سبعة أميال منها . ثم أنشىء رصيف ابتدىء به من حيز النيل بازاء القاهرة كأنه حبل ممدود على الأرض حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، متصلة بالصحراء التى تفضى منها للاسكندرية .

ويقـول ابن جبـير : وله فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة اعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكاً فى كل وقت ان احتيج الى ذلك .

ميناء المقس :

وقد اتصل بأغراض الدفاع كذلك اهتمامه بأحواض أساطيله ، ولم يكن له أماكن مأمونة غير مصر ، فأفضـل ما تكون بالاسـكندرية أو دمياط ، وأفضل منهما جميعاً أن تعد فى مكان بعيد ثم تدفع الى النيل فالبحر .

وهذه الفكرة قد فطن لها سابقوه فكان حوض الأسطول الفاطمى على ميـناء نيلى بالقاهـرة يسمى « المقس » تعد فيه السـفن الحربية والتجارية وتدفع الى النيل ثم تسير الى البحر ، وكان حوض « المقس » فى مكان طمره النيل فى الأزمنة المتعاقبة فابتعد عنه الآن كثيرا : كان فى المكان المسـمى « بباب البحر » اليوم وهو مسـاكن مزدحمة وأسواق للتجارة قريبة من باب الحديد عند محطة القاهـرة للسكك الحديدية . وقد اهتم به صلاح الدين فكان مصنع سفنه الأول لبعده ومأمنه كما فعلت الدولة الفاطمية .

هـذه مشروعات صـلاح الدين الـكبيرة الضـخمة وأين هى من مشروعات رائد العروبة اليوم ولا سيما سد اسوان .

طراز جديد للمعاهد :

وكانت المساجد — قبل صلاح الدين — فى هذه المنطقة هى نفسها المدارس التى يتلقى فيها الطلاب علومهم المختلفة من دينية ودنيوية ، فأدخل صـلاح الدين طراز أبنية المدارس النظامية وأنظمتها عن بغـداد ، تلك المدارس التى أنشأها نظام الملك للدولة السلجوقية وصار لها شهرة فى تاريخ التربية ، وأقامها فى مختلف المدن الكبرى ، وليس يحصى عددا ما انشأ صلاح الدين من دورها الا ببحث وعناية خالصتين ، فكتب التاريخ والسير ذكرتها متفرقة ، ولكنها انشئت فى حلب والقدس والاسكندرية

وبعلبك وأصاب القاهرة ودمشق منها حظ كبير ، ولعل صلاح الدين قد ابتعد بها عن المساجد ليستطيع أن يجعل للدروس جواً خاصاً بها ، ثم ينشر ما أراده من نشر مذهب الشافعى فى دقة وحرص وأتم نظام .

وكذلك انشأ صلاح الدين البيمارستانات ودور الأوقاف واهتم بها ، وشاركه أهله من الرجال والنساء وغير أهله من النواب والولاة فى الاهتمام بها وانشائها والانفاق عليها ، ولم تنقض الدولة الأيوبية حتى تركت فى أرجاء المنطقة ومدنها آثاراً علمية لا تحصى .

الاقطاع :

كانت مصر نيابة — كما قلنا — يقيم فيها نائبه ، وقد أقام الملك العادل أبو بكر نائباً على مصر عن أخيه وقتاً طويلا ثم أخذه معه فناب عنه بالشام وصار وكأنه وكيل له ، وظهرت شخصيته مع أخيه ظهوراً واضحاً ، ولم يكن يحدث شيء بين الفرنجة وبين صلاح الدين من حرب أو صلح الا وشخصية الملك العادل ظاهرة فيه .

وقام مقام العادل بمصر بعض أولاد صلاح الدين . أما الولايات الأخرى فكان عليها أمراء من أولاده وأهله أو من حكامها القدماء ، وكانت هذه الولايات كأنها اقطاعات من صلاح الدين لأمرائها متى خضعوا له وأطاعوه فى نظام شبه مستقل فى الداخل ، مضمون الارتباط بحكومة صلاح الدين ، مسئول عن أن يمده بكل ما يطلب من أمور السلم وشئون الحرب .

ويتولى الأمير أمر الولاية فى حياته أو مدة توليته التى يشاؤها صلاح الدين دون أن تورث ، الا ما حدث بعد صلاح الدين من تقسيم ملكه بين أولاده ، وينفق واليها على كل شؤونها من ضرائبها وجباياتها ، ويكون للأمير أرض من الصوافى التى لم تملك من قبل ولم تزرع — شأن نظام الصوافى والاقطاع فى الاسلام — فيستغلها للانفاق منها على نفسه

وآهله وعلى ديوانه ، وينفق من مالها على منشآتها وتجهيز العسكر الذى يطلبه صلاح الدين .

أما ما كان من الأرض مملوكاً فيظل مالكه يعمل به ويؤدى عنه الخراج لأن الأرض عامة صارت ملكا للدولة بحكم الفتح والعنوة ، وليس للأمير عليه سلطان فيما عدا ما تحكم به الشريعة ويفتى الفقهاء .

وقد استطاعت الأرض بالتنافس بين الأمراء والولايات واستقلال أمرها أو شبه استقلالها أن تنفق جهوداً طيبة كى تلبى مطالب الاقليم الضيق ، وتلبى فى الوقت ذاته مطالب الدولة الواسعة ولا سيما فيما تطلبه أثناء الحروب .

وقد جاز بهذا الاستقلال لكل ولاية فى الداخل أن تختلف الضرائب والمكوس فى الأقاليم طبقاً لقدرتها وامكانها ، ويبدو أن مصر — لجودة أرضها وكثرة جباياتها بسبب المياه الدائمة وتعدد المواسم — كانت أكثر البلاد ضرائب . أما العراق فلم يكن لصلاح الدين منه الا الجزء الأعلى عند الموصل وسنجار وما حولهما .

رعاية الانتاج :

وأرض المعركة — التى هى أرضنا — قليلة الأنهار الدائمة ، ما عدا مصر والعراق ، حيث يجرى فيهما النيل وتجرى الدجلة والفرات . أما أرض الشام فى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين — كما هى مقسمة اليوم — فهى بلاد أمطار ، عدا جداول قليلة تتفاوت فى الصغر ومدد الفيضان تمدها عيون . فالبلاد عرضة للخصب والجدب كمشيئة أثناء المطر وسحائب السماء . والبرد يقرس فيها وتسقط الثلوج فتغطى أعاليها ، ولا سيما فى لبنان ومرتفعات الشام . كما يشتد الحر فى الصيف ويستعر لهيبه .

هذه الأرض كانت ميدان المعركة الصليبية الدائمة ، لذا خضعت المعركة لخصوبتها وجدبها وبردها وحرها ، وخضعت أيضاً لما تستطيع الأقطار المجاورة أن تمدها به من مؤونة وطعام . وهذا للمسلمين والعرب من سكانها . أما الفرنجة فكان المتبلدون المقيمون منهم شأنهم شأن سكانها ، وأما الوافدون فكانت مؤونتهم مما يستولون عليه من مغانمها ثم مما يجيئهم من بلادهم .

وكان ضرورياً أن يخضع صلاح الدين لطبيعة المنطقة ، فكان يميل الى الصلح قهراً اذا أجدبت أو قرس شتاؤها ، ويخوض الحرب ويتابع القتال ان أخصبت أو أهل الربيع

وبرغم حاجة المنطقة الى ما هو أكثر من انتاجها بالنسبة للطوارىء ، فقد استطاع صلاح الدين أن يقتصر على انتاجها وحده ويكتفى به حين ضرب عليها الفرنجة الحصار ، بل استطاع أن يدخر منه لشهور السنة وأيام الحصار والضيق والطوارىء ، وذلك عدا ما كان يأخذه الفرنجة من انتاجها فى أراضيهم التى احتلوها ، ومن غنائمهم من المسلمين فى المواقع التى ينتصرون فيها .

وكانت المنطقة حافلة بمنتجات الزراعة من الحبوب والخضر والفاكهة ونتاج الحيوان الأليف والطيور والأسماك ، وبمنتجات الصناعة بما لم يكن له مثيل عند الفرنجة . ونحن هنا نشير الى صناعات النحاس والحديد والأصباغ والأنسجة فى كثير من مدن الشام ، والزجاج البلورى الملون فى صور ، وأنواع البخور والزيت والطيب ، والأسلحة فى الموصل ودمشق والقاهرة ، ونخص بالاشارة معاصر السكر وطواحينه ، فقد كانت صناعته متقدمة فى المنطقة ، لأن مزارعه كانت واسعة وعند طرابلس خاصة من أرض الشام . وقد كان الفرنجة قبل اتصالهم بالمشرق فى الحروب المقدسة لا يعرفون السكر ، وكانوا يحلون أطعمتهم بالعسل ، فتعلموا تحليتها بالسكر واستعذبوا مذاقها .

وقد انشئت فى أيام صلاح الدين ذاتها معاصر للسكر ، انشأها الأمير « يزكوج » الناصرى فى بليدة على ساحل النيل الشرقى اسمها « بيج » وكان يرتفع منها لصلاح الدين ارتفاع وافر — والعرب هم الذين ركبوا بالسكر الأشربة والجلاب ومربيات الأعشاب والفواكه (١) .

ومنذ الحروب الصليبية تأخر الانتاج الزراعى فى بلاد الشام حيث اهملت الأرض لقلة الأيدى وندرة الناس فى بعض المناطق ، وكذلك تأخرت الصناعات وباد منها الكثير . ومن ير بلداً مثل « صور » اليوم ويقرأ تاريخها بالأمس — وقد كان بها ألوف العمال وعشرات المصانع — تملكه الحسرة والأسى .

وقد أتم الاستعمار المتوالى للبلاد القضاء على كل بقية للصناعة ، اللهم الا المناسج البدائية وبعض الصناعات الدنيئة ، واستطاع أن يمحو من النفوس حب الصناعة والعمل ، لأنه استبد بخاماتها وانفرد بأرباحها . ومن حيث انتصرنا فى العصور الصليبية حربياً ولم نمكنهم من بلادنا انهزمنا فى نواحى كثيرة من الحياة .

ولكن الله هيأ فى زماننا للبلاد من أخذوا فى اعلاء شأن الزراعة وانشاء المشروعات الكبرى التى يقل مثيلها فى البلدان الأخرى ، بل ان السد العالى الذى بنى على النيل يكاد يكون أول سدود العالم عظمة ونفعا ، كما أخذوا فى تنمية الصناعات وحمايتها وتربية جيل يشعر بضرورتها وحيويتها ، وكان للأسلحة من بين الصناعات حظ كبير .

أما مصانع السكر فقد ازداد شأنها وارتفع انتاجها ، وان كانت طرابلس قد نضب معينها منه ، وعادت صناعة الأنسجة الى أحسن مما كانت ، وارتفعت صناعة الزجاج وان لم تبلغ الغاية المرجوة ، وتنوعت منتجات العطور والزيوت ، وجففت الخضر ، ونسج الصوف بعد أن كان

---

(١) مجالى الاسلام ص ١٤٤ — معجم البلدان ج١ ص ٢٥٣ — العلاقات بين العرب والافرنج ص ١٨٢ .

سجه معجزة أوروبا وحدها ، وأصبح من الميسور أن تصل المنطقة الى
درجة الاكتفاء الذاتى بعد قليل ، فيمـا عدا الحبوب والأطعمة لتكاثف
السكان .

وحتى تزدهر الزراعة فقد عنى صـلاح الدين والأيوبيون من بعده
بنظام الرى عناية فائقة لا تقل عن عنايتهم بالتجارة ، وكان من حظ صلاح
الدين أن القحط لم يصب البلاد فى أيامه بأى كارثة ، فقد خلت تدوينات
المقريزى بكتابه « كشف الغمة » من الاشارة الى أى جدب أو قحط فى
عهده ، فظلت الأمطار تسكب فى شتاء الشام ، وظل النيل معتدل القياس
فى مصر .

موارد المال :

وكانت الأموال ترد الى خزائن مصر ودمشق والولايات من الضرائب
والخراج والجزية ، ومن زكاة الأموال وغنـائم الحروب والفتوح وفداء
الأسرى ، ومن التبرعات والتطوع والديون التى تفرض .

وقد جلبت من اليمن وعدن وزبيـد والاسكندرية أموال ضخمة ،
حملها « توران شاه » منها ومن ثمانين حصنا ومدينة استولى على أموالها
وذخائرها ، وذلك فضلا عما كانت الدولة العبيدية تدخره من مال وتحف
وجواهر فأخذ منها .

وقد كانت لصلاح الدين فى بعض حروبه خطة هى أحد موارد المال ،
اذ كان يسرع الى فتح بلاد عدوه وحصونها ويبغتها فجأة فيستعين بأموالها
ورجالها وذخائرها على متابعة الجهاد ، فاذا قضى لبانته لم يصعب عليه
أن يترك البلد بعد فتحه : يهبه أو يدعه لأعوانه أو طالبيه ، بل قد يتركه
لأعدائه متى أحب أن يرضيهم ، ولكن بعد أن يكون قد استصفى منه
من الأموال ما قد أصبح من حقه بحكم الفتح .

وزكاة الأموال وعروض التجارة كانت تجمع فى أيامه ولا يتخلف
عنها متخلف ، ولكن صلاح الدين نفسه لم تجب عليه زكاة مال فى أى
عام من أعوام حياته ، فلم يجتمع لديه نصـابها فسقطت عنه (١) ، وقد
ذكر ذلك أكثر من مؤرخ من مؤرخيه وعدوها فى حسناته ، ولكن الحاحهم
على نسبة هذه الحسنة له جاء دليـلا على اهتمام الحكومات حين ذلك
بجمع الزكاة واحصائها فى مواسمها .

والجزية كانت مالا يؤديه أهل الذمة فى مقابل ما يؤديه المسلمون من
زكاة ، عن كل فرد من أفـرادهم تجب عليه الجزية ، كما فرض الاسلام
وحدد الشروط ، أما الخراج فهو ما كان يؤديه أهل الفلاحة من أهل الذمة
عن أرضهم التى يزرعونها بسبب تملك الدولة لها بحق الفتح .

ونظام الخراج أبقى الأرض فى يد أهل الذمة ، ومنع العرب والمقاتلة
من امتلاكها لأنه أبقاهم على الخيل والسـلاح وأهبة الحرب ، فضعف
اتصال المسلمين والعرب بالأرض المفتـوحة ، فلما هدأت الحروب وأحل
شراء الأرض وبيعها كان أهل الذمة فى كثير من المواطن التى بقوا على
أديانهم بها أقدر على العمل فيها فصارت لهم واتسعت أملاكهم ، ويشاهد
هذا فى بعض بلاد لبنان ، وفى بعض بلاد الدروز خاصة حين كان الدروز
على السلاح والخيل وكان أهل الذمة من الفلاحين .

وكانت هناك ضرائب ومكوس باهظة موضوعة على الناس قبل صلاح
الدين وقبل نور الدين ، وقد أثقلت فيها الدولة الفاطمية ووزراؤها أيما
أثقال لتجنى حاجاتها ومتارف وزرائها ، فخففها نور الدين وبعده صلاح
الدين ، وكذلك فعلا بالمكوس .

وقد أبطل صلاح الدين وحده ضرائب كثيرة مع بقاياها ومتخلفاتها
اكتفاء بالخراج أو الجزية ، ولم يخـرج — مثل نور الدين — عن حد

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ .

الشريعة ، ولم يخالف ما كان يشير به الفقهاء فى الجباية ، ولما كانت مصر ترضخ وحدها تحت عبء كبير منها فقد أصدر بالتخفيف عنها أمراً قرىء على المنابر ، وفى نص هذا الأمر ما يدل دلالة واضحة على الشدة التى كان يستعملها الولاة من قبله فى جباية المكوس .

وكان صاحب مكة قد أمر بأن يؤدى الحجاج مكوس مكة مقدماً فى جدة ، فوقع على الحجاج الظلم فيها ، فأبطل صلاح الدين كل هذا النظام ، وعوض صاحب مكة عنها جملة ، فحمل اليه فى كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا ، واشترط أن تفرق فى أهل الحرمين ، فرفع صلاح الدين بذلك متفرقاتها عن الناس ، وأفاد بجملتها التى أداها من بيت المال أهل الحرمين (١) .

أما التجارة فكانت ما تزال صلاتها قائمة بين الامارات الاسلامية والجمهوريات الايطالية وبعض دول الساحل الشمالى للبحر الأبيض وبلاد الروم ، ولم يؤد اشتعال الحروب بين المسلمين والفرنجة الى وقف هذه التجارة وقفاً تاماً الا حينما كانت تشتد المواقع وتشتعل الاحن والخصومات وكانت أثمان السكر والأسلحة والأزياء والمصنوعات تدر على الشرق أرباحاً طائلة موفورة .

بيت المال :

وقد توزعت بيوت الأموال فى أيام صلاح الدين بين الأقطار والمقاطعات ، وكان أهمها خزانة المال فى القاهرة وتليها خزانة المال فى دمشق ، وقد تولى أمرها بالقاهرة أبوه نجم الدين ، فكان مقيداً أول الأمر بعض التقيد بأوامر نور الدين ، ثم أطلق منها ما اختار من غير مراجعة أحد حتى صلاح الدين نفسه ، وتولى أمرها فى دمشق « الصفى بن القابض »

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٨ .

وقد مات أولهما حين جمحت به فرسه ، وطرد ثانيهما عن خزانته حين بنى لنفسه قصراً مشيداً .

وضربت الدنانير صورية ومصرية عاضدية (١) ، ثم ضربت السكة باسم اسماعيل بن نور الدين ثم أزيلت وضربت باسم صلاح الدين ذهبية وفضية ، وكان الدينار الصورى أقل قيمة من الدينار المصرى ، وقد ظل خافيا سر ضرب الدولة العبيدية فى مصر نقوداً من الزجاج ، وقد ألغاها صلاح الدين وسحبها من الأسواق (٢) .

وقد تأثر بيت مال صلاح الدين بنظرته الى المال ، فقد كان لا ينظر اليه نظرة رجل الدولة المحارب الى مالها ، ولو اقتصرت نظرته الشخصية اليه حين يكون فى حيازته خاصة لا فى حيازة الدولة لهان الخطب ، ولكن النظرة لم تتغير ، فامتهن صلاح الدين المال كله وانفقه وأسرف فى انفاقه الى حد يكاد يشبه التبديد . ولم يثبت فى يده مال وصل اليها ، ولم يمكث غير قليل حتى انتقل الى يد من جعلهم أولى به منه بل كان ينفقه قبل أن يقع فى يده ، وسواء لديه ماله ومال الدولة ، فحيث لم يعن بجمعه فى خزائنه الخاصة به فانه كذلك لم يعن بجمعه فى خزائن الدولة ، ولم يعن بحفظ ما جمع ، وكأنه أيضاً لم يهتم بتدبير انفاقه ، فأصاب صلاح الدين من ذلك بعض الهزائم ، ما فى ذلك ريب .

ويقولون : انه اقتدى بعمر بن عبد العزيز حين اجترأ عليه أحد عماله فقال له : انك أخربت بيت المال ! فقال عمر : أعط ما فيه لمستحقيه ، فاذا لم تجد ما تضعه فيه فاملأه وحلا ! والحق أن عمر أعطى ما فى بيت المال لمستحقيه دون غيرهم ، بعد وصفهم وحصرهم ، ولكن صلاح الدين لم يفعل مثل عمر فى الوصف والحصر والاحصاء .

على أن عمر لم يكن فى المنطقة من يعاديه ، لا من أهله ولا من أعاديه ، غير الخوارج الذين هدءوا فى مدته وسالموه ، فكانت أيامه كلها

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٣ .
(٢) مظاهر الحضارة المغربية ص ٧٣ .

سلماً ، أما صلاح الدين فكانت دولته فى غير الوضع الذى كانت عليه فى مدة عمر بن عبد العزيز ، فكانت أيامه كلها حرباً .

وقد عاقب صلاح الدين « الصفى بن القابض » خازن بيت المال بدمشق على تشييده دارا فخمة وكان من جملة أسباب عقابه ، ولكنه أهمل معاقبة بعض حراس خزائنه ، وكانوا قد أبدلوا كيسين من الذهب المصرى الى كيسين من فلوس أخرى ، فلم يفعل شيئاً سوى أن صرفهم عن أعمالهم (١) .

وأكثر من ذلك تسامحاً أنهم قالوا : حوسب صاحب ديوانه فكانت سياقة الحساب أن سبعين ألف دينار باقية عليه ، فما طلبها صلاح الدين ولا ذكرها ، ولم يرض لصاحب ديوانه بالعطلة فولاه ديوان جيشه (٢) .

الاسراف فى العطاء :

وكأحد الجنود الطيبين الذين يدعون الى معركة وفى جيوبهم قليل المال أو كثيره كان صلاح الدين ، فمثل هذا الجندى — وقد دعى للمعركة — ينفق ما فى جيبه كله دفعة واحدة انفاق تبديد ، لأنه لا يدرى ! هل يعود ؟ .

تماماً تماماً مثل هذا الجندى كان صلاح الدين ، وكان — لنظره الى المال مثل نظرة هذا الجندى — يراه كالتراب أو أبخس قيمة ،وقد قال صلاح الدين : يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب ! .

هذه فلسفته فى تقدير المال ، ومن كانت هذه فلسفته فلن يدخر منه شيئا : ولكن ما الدافع لاعتناق هذا الرأى والدينونة له ؟

(١) النوادر السلطانية ص ٢٦ — مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٨ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٨ .

ليس هناك من دوافع الا أنه جندى مدعو الى معركة ، فهو لا يدرى : هل يعود ؟ وصلاح الدين لم يكن سلطانا قد رفل فى نعمته ونصب لها راياته وأقام فى داره فاذا هوجمت بلاده أرسل لها جيشه ونام فى قصره وغرق فى أبهته ، ولا يرى المعركة الا من ثقب منظار يرى من بعيد ، بل كان فارساً ، وفارساً كل سلطانه وعمره على متن جواده ، ماضيا فى المعركة أبداً ، فهل يلام على أنه بدد ما كان معه من مال ؟

ان مثل هذا الرجل لا يلام لو أنه كان جندياً غير مسئول الا عن روحه ، ولكن التاريخ دخل فى حسابه لأنه رجل دولة ، ومهما أقام أو هاجر ، وحارب أو لم يحارب ، فانه مسئول عن بعض أسباب الهزائم التى كان أولى بالتجربة أن تدفعه عنها .

وقد وجد صلاح الدين من يعتذر عن سرفه ، بل عده من فضائله ومكارمه ، وذلك لأن العاطفة غلبت عليهم كما غلبت على صلاح الدين ، فقالوا : انه بذله فى تحبيب الناس ، بل كان بذله أحياناً سبباً فى اسلام بعض الفرنجة ، وقد أعطى عطاء سياسيا أموالا وبلادا برمتها ، كمثل الذى أعطاه لصاحب أنطاكية بعد فتحها بلا مقابل .

ولكن نواب خزائنه واخوته عذلوا فعله — وان كانوا لم يجسروا على مواجهته بعذلهم — فكان بعض نواب خزائنه يخفون عنه بعض الأموال لئلا يبددها ، وذلك حين رأوه — اذا لم يجد فى بيت المال مالا عيناً يعطيه — يبيع منه أشياء ويفرق أثمانها على الوفود .

قال صاحب ديوانه : انهم أحصوا ما وهبه فى مرج عكا من الخيل ، فبلغ عشرة آلاف فرس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة ، فلم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به (١) .

وحكى عماد الدين الأصفهانى قال :

(١) النوادر السلطانية ص ١٤ — ذيل النوادر ص ٣١٠ .

سمعت الملك العادل يقول — وقد جرى ذكر افراط السلطان فى العطاء — : أنا توليت استيفاء قطيعة القدس ، فانفذت اليه ليلة سبعين ألف دينار ، فجاءنى رسـوله بكرة وقال : يريد اليـوم ما يخرجه فى الانفاق ، فان الذى سيرت اليه بالأمس قد نفد ، فأنفذت اليه ثلاثين ألف دينار أخرى فى الحال فأنفقها (١) .

ويقولون : لقد تعدى الاسراف العطاء الى الشيد والعمارة ما لا تقع فيه ، فقد عدوا عليه أنه أمر بهاء الدين قراقوش بعمارة سـور القاهرة ومصر ، فضيع قراقوش فيه أموالا كثيرة ، ومات السلطان قبل اتمامه ، ولم ينتفع به أحد ، وكانت حال الفسطاط والقاهرة وسقوط مبانيها من حريق شاور السعدى لا تستحق أن يقام حولهـا سور تنفق فيه الأزمنة والأموال .

ولم يترك صلاح الدين فى خزائنه سوى سبعة وأربعين درهماً وجمعا واحداً صورياً . أما أملاكه الخاصة فلم يخلف وراءه داراً ولا عقارا (٢) .

تبذير بنى أيوب :

ولم يكن صلاح الدين وحده المسرف وانما كان بنو أيوب جميعاً مسرفين : كان بعضهم مولعاً بشهواته المشروعة كالطعام والشراب الحلال ، ولكنه كان يسرف فيه ، وقد مات شيركوه من تخمة ، كما ارتد « توران شاه » أخو صلاح الدين عن بلاد النـوبة دون أن يتم فتحها ، لأنه لم يجدها — فى نظره — تساوى مشقة فتحها ، فارتد عنها ورجع ، وقد رآها لا تفى بحاجاته وما يشتهى .

وترك « توران شاه » اليمن بعد أن فتـحها ، وكانت اليمن مملكة كبيرة كثيرة الأموال : تركها لأنه لم يجد بها ثلجاً ولا مشمشاً لوزياً ولا

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٢ .
(٢) ذيل النوادر ص ٢١٠ .

فواكه دمشق ، وقال لرسول صلاح الدين : ليت شعرى ! ما الذى أصنع بهذه الأموال ! اذا لم أنتفع بها فى ملاذى وشهواتى ؟ فان المال لا يؤكل بعينه ، بل الفائدة فيه أن يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه . وعاد الرسول لصلاح الدين بقول أخيه فأذن له فى الرجوع .

وقد مات « توران شاه » هذا وعليه من الديون مائتا ألف دينار قضاها عنه أخوه (١) .

ضرورات العطاء والانفاق :

ويغفر لصـلاح الدين بعض سرفه ما كان ينفقه فى العطاء السياسى وتأليف القلوب ، وما كان يعطيه للمتـطوعين فى القتال معه — وهما مصرفان لابد منهما — وقد وضح أن نظام التطوع قد دعا الى أن يكافأ المتطوع فور انتصاره ويعوض عليه فور انهزامه ، فلا ينتظر أجراً منتظماً ، اذ لا يحتمل التأجيل ، ولذلك كثرت عطايا صلاح الدين فى حروبه وشاعت وأذهلت بكثرتها ، حتى طمع فيه العدو وصارت له مطالب من عطاياه أسوة ببقية الناس ، ولم يبخل ، ولكن أفضل ما أعطى وما وهب ما كان من حق المتطوعين .

على أن المال الذى بذله هذا الكريم المعطاء ظل بالمنطقة نفسها ، ولم يتسرب الى خارج البلاد وظل متداولا فيها ، فلم يكن هناك خوف من اعطائه والاسراف فيه .

أما الشعراء والعلماء فقد جرت الأمور فى العصور الاسلامية بمنحهم كما جرت بمنعهم : أعطتهم عصـور وحرمتهم عصور ، فنحن لذلك نترك الكلام عنهم دون أن نحـكم بأمر قاطع فى اعطائهم أو منعهم ، والأمر متروك بين يدى ولى الأمر ، حسبما يرى من الحال ، فان رأى اعطاءهم من السياسة أعطى ، وان رأى حرمانهم منع ، فلا لوم ولا تثريب .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٥ .

وزماننا نحن يعطى المطوعة — على قلتهم — حقوقهم ، ولا يسرف فى اعطاء الشعراء ، كما لم يحرمهم ، فلن تجرى عليه المآخذ التى جرت على أيام صلاح الدين .

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين قد وجد المال الذى أعانه على حروبه ضد المشارقة والفرنجة منذ بدأ الحرب : مال السلاح وأجور الجند وحاجات الرحلة والنقل والحصار والتموين والمكافآت ، وكان معظم هذا المال من داخل المنطقة نفسها ، ما عدا ما كان من حركة التجارة ، وما عدا ما كان من غنائمه من المشارقة والفرنجة .

تقسيم المملكة :

وحين أدرك صلاح الدين أن حياته باتت موشكة على الزوال قسم مملكته بين وارثيه : فعهد الى ابنه الملك الأفضل على — وهو أكبر أولاده — بالسلطنة وأضاف اليه دمشق وجنوبى سورية ، وعهد الى ابنه الملك العزيز عثمان بالديار المصرية ، وعهد الى ابنه الملك الظاهر غياث الدين بحلب وشمالى سورية .

وأما الملك العادل : أبو بكر أخو صلاح الدين ، والذى أصبحت شخصيته أقوى شخصية بعد صلاح الدين ، كما كان ظاهراً فى أيامه ، فقد عهد اليه صلاح الدين بالموصل والجزيرة وسنجار (١) .

ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى كان الخلاف قد دب بين أولاده من وراء هذا التقسيم وطمع كل واحد منهم فى نصيب الآخر ، واستطاع عمهم الملك العادل أن ينتهز فرصة هذا الخلاف فدخل بين الاخوة يحرض بعضهم على بعض ، ثم استطاع أن يقضى عليهم واحداً بعد الآخر .

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٥ .

ولكنه استطاع بهذا أن يوحد معظم البلاد مرة ثانية ، وأن يجبر كل أفراد أسرته على الاعتراف بسلطانه وسيادته . كما استطاع أن ينقل عن أولاد صلاح الدين الى أولاده امارة ممتلكاته ويوزعها عليهم فى حياته — كما فعل صلاح الدين مع أولاده — — :

فعهد بمصر الى الكامل ، وعهد بدمشق الى المعظم ، وعهد بالجزيرة الفراتية والموصل وسنجار الى الأوحد والفائز والأشرف على التعاقب ، فكانوا ينوبون عنه فى حكمها .

والغريب أن يعود صلاح الدين عن خطته الأولى فقد كان لا يرضى بتمليك اخوته — كما عرفنا من قبل — وكان همه توحيد البلاد ، فعاد عن ذلك كله وقسم البلاد بين أولاده وأخيه . وكأنه أقصى أخاه حينما أعطاه الموصل والجزيرة لنمو شخصيته وكونه أظهر رجل أيوبى بعده . ولو كان يدرس الغيب أو سار على خطته الأولى لجعل أخاه نائبا عنه وأولاده أمراء له ، وأبقى على البلاد وحدتها دون أن يعود اليها جهد التوحيد من جديد .

وكان أروع ما أوصى به صلاح الدين ابنه الملك الظاهر قوله له :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك . واحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد . واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم . أما ما بينك وبين الله فانه تعالى يغفره بتوبتك اليه فانه كريم . (١)

هذه وصية يدرك منها طوية صلاح الدين ونية قلبه ، ولكن هذه الوصية شىء وتقسيم البلاد بين أولاده شىء .

(١) النوادر السلطانية ص ٢٤١ .

العلوم والآداب

- التقليد الدينى
- القرآن والحديث
- طريق السنة
- الاصلاح الدينى
- مذهب الشـــافعى
- الشعر والشعراء
- نظم الموشـحات
- أغراض الشعر
- الشعر الهزلى
- النثر المقيد
- العلوم الكلامية
- صناعة الوعظ
- علم الطب
- الحيل والهندســة
- الفنــون
- المناظرات والرحلات
- دور الكتب
- حركة التــأليف
- الاختراع والافتنان

التقليد الدينى :

كان للتقليد المتبع فى العصور السابقة والمنســوب الى الدين أعظم السلطان فى النفوس : فكان مقام الخليفة مرموقاً فى نظر العامة ، فيرجع اليه فى الأمور الجسام تقليداً وجرياً على العادة وترضية لشعور الناس ، ولم يكن تباطؤ صلاح الدين أول الأمر فى الاستجابة لنور الدين بخلع العاضد ونقل الخطبة للمستضىء الا حسباناً لذلك الشعور ، بل ان منصب كل أمير فى الدويلات والمقاطعات كان يجب أن يستند الى مؤازرة الخليفة واستصدار تقليد منه واستمرار الاتصال ببلاطه .

وفشت تقليدا كذلك — فى الأسر الكبيرة الألقاب المذيلة بكلمة « الدين » فأضيف اليها كل اسم ذى دلالة معنوية أو حسية لتصير لقباً : كصفى الدين ونور الدين وجـلال الدين ، أو حسام الدين وسيف الدين وشمس الدين ، وكذلك الاضافة الى كلمة « الدولة » ، ولكن الأول شاع شيوعاً كبيراً فى البلاد الاسلامية بحيث لم تترك كلمة فى اللغة تضاف الى كلمة الدين وتؤدى معنى شريفاً الا أضيفت وصنع منها لقب .

ومن لطيف الاشارة بالهجاء الى هذا التقليـد وهذه الألقاب قول الشاعر ابن عنين :

صـعد الدين يستغيث الى اللـــه وقال : الأنام قد ظلمونى (١)

يتسمون بى وحقك لاأعرف شخـصا منهم ولا يعـرفونى

القرآن والحديث :

ولكن التدين الحق كان حقيقة ماثلة فى كثير من الدارسين والعلماء والزهاد والطلاب ، ولم تخف عناية المسلمين بقرآنهم وتفسيره وتأويله ،

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٠٩ .

بل ان هذا العصر كان عصر الزمخشرى المفسر وان لم يكن من بلادنا ، وكذلك كثر الحفاظ فى كل بلد .

ومع هذه العناية التى كانت طرداً للأزمنة السابقة فقد أضاف صلاح الدين للعناية بالقرآن يداً مشكورة : فقرب الحفاظ منه ولو كانوا صغارا ، وأحب السماع لكبارهم ، واستقرأ المجيدين منهم فى مجلسه ، فكثر القراء .

وقد أعطى مجلس القراء حقه ، فتبعه الناس : فكان اذا سمعه خشع قلبه ودمعت عيناه فخشعت قلوب الناس وبكت عيونهم .

واهتم عصر صلاح الدين كذلك بالحديث واسناده ، فكان فى كل بلد مسند للحديث يروى عنه الناس ، وقد سمع صلاح الدين لرجاله وسعى اليهم وقربهم منه ، وأجلس أولاده ومماليكه فى مجالسهم ، وقرأ بنفسه كتب الحديث ، واستفسر المحدثين واستنسب أهل الاسناد (١) .

وقد عرف أن مسند مصر والاسكندرية فى زمانه كان هبة الله على ابن مسعود البوصيرى سيد الأهل ، وقد تولى تربية الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وأجاز له هبة الله سيد الأهل ولغيره من المصريين (٢) .

طريق السنة :

ومنذ كان صلاح الدين ناشئاً اتصل بمشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء الذين لم يخلطوا آراءهم بآراء الفلاسفة ولم يلوثوها بآراء الملاحدة وأعداء الشريعة ، وقد تلقى اذن عقيدته حسنة صافية ، فكره أشد الكره أولئك الذين خرجوا بآرائهم عن الصواب والتقليد .

هذا ما قاله وصاف عقيدة صلاح الدين ، ولكن تنحية آراء الفلاسفة فى عصره كان أمراً صعباً لا سبيل اليه اذ كانت الفلسفة اليونانية

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٦ ، ١٠٣ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٩٥ .

وتتاجها من الفلسفة الاسلامية قد خالط النفوس فصدرت عنه الحجج والأدلة ودخل كأنه الملح فى كل كلام ، والأصلح اذن أن يقال ان صلاح الدين قد كره المصارحين بآرائهم فى معاندة الفقهاء وطريقهم المعتدل السليم .

ومع أنه استوزر للعاضد الفاطمى وتبعه مدة فانه لم يبتعد عن استمساكه بما نشأ عليه ، فلم يمارس أحداً من أهل التصوف والفقه والدين غير رجال السنة (٣) ، وكان غضبان أسفاً لما صار عليه الباطنية من خروج حتى اصبحوا أحاديث الناس ومثار الفتاوى وموضوع المؤلفات ، فكان من البديهى أن يحارب مذهبهم وأن يقضى عليهم ، وقد تم على يده ما أراد اذ لم يمض شهر واحد أو شهران على وزارته لمصر حتى انقلب البلد كله فصار سنياً .

وتلقى صلاح الدين عقيدته على طائفة من أجل علماء زمانه : تلقاها على قطب الدين النيسابورى الشافعى عالم دمشق ، فجمع له كل ما احتاج اليه فى بابها ، فحفظه وعلمه لأولاده ، وكان يجلس منهم مجلس المعلم والأب قليل التصنع مطرحا للتكلف .

وتلقى أركان الفقه على سليم الرازى ، فصنف له مختصراً يشتمل على أركان الفقه الأربعة ، كما تلقى عليه فريضة الجهاد ، فصنف له فيها كتاباً تعلمه وعلمه لأولاده .

وجمع له بهاء الدين بن شداد كتاباً فى الجهاد يجمع أحكامه وآدابه ، فقدمه بين يديه ، فأعجبه ولازم مطالعته .

وصنف له ضياء الدين القناوى كتاباً فى السياسة يدعى « تهذيب الواعى فى اصلاح الرعية والراعى » .

(٣) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢ .

وجمع له آخرون من العلماء آيات الجهاد والحرب وكل حديث روى فيها ، وكما كان يقرؤها ويتأدب بها أقرأها أولاده وأدبهم بها ، وبدأ بابنه الأكبر الملك الأفضل على فقرأها وتعلمها (١) .

وقد صارت لصلاح الدين جرأة على التكلم فى الفقه ، بل انه كان يكتب للقاضى الفاضل ، والفاضل بمصر ، يذكر له فى كتبه مسائل من الفقه وأخباراً عن بعض الفقهاء .

ولم يقتصر تدينه على العلم بما درس واطلع ، ولكنه عمل بما علم فالتزم آداب الفرائض : أما الصلاة فقد آثر الجماعة وأكثر من السنن والتهجد . وأما الصيام فما فاته من أيامه قضاه أو أدى عنه الفدية اذا عجز عن القضاء . وأما الزكاة فلم يجتمع لديه طول حياته نصابها . وأما الحج فقد نوى ثم لم يوفق . وأما آراؤه فلما كان متشبعاً بالمبادى الدينية الخالصة فقد كان خليقاً أن يقود المسلمين زعيماً فى حروب مقدسة ، وأن ينحاز اليه المسلمون . وقد تأثر به أهل زمانه فأقبلوا على الفرائض ، وكثر الزهد حتى بين النساء ، واشتهرت به زاهدات فى مختلف البلدان ، وكان منهن من بلغ مرتبة رابعة العدوية (٢) .

ولم يكن صلاح الدين بالرجل المتعصب ، بل كان يقبل الأوامر الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، فلما رأى الفساد الدينى قد بلغ غايته أبطل مذهب المتطرفة المشقوق من الاسماعيلية ، ولم يكن هؤلاء بالامامية ولا الزيدية اللذين هما على الملة ، ولكنهم كانوا ملاحدة يبطنون غير مايظهرون كما وصفوا من قبل فى هذا الكتاب .

واستقامة صلاح الدين فيما هو أدنى من ذلك كانت واضحة ، فلم يكن يحب السفه ولا التزيد ، ولم يكن يقبل المماحكة ولا التبرج (٣) ،

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٧ ، ج ٤ ص ٢٨٣ ـ فوات الوفيات ج ١ ص ٤٠٨ ـ مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٦ ـ النوارد السلطانية ص ١٧ ـ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٥ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٨ ، ٤٢٩ .

ويعاقب عليه بأشد العقوبات . كما خلت حياته من الخضوع لأباطيل المتخرصين بالتنجيم ، ولكنه كان يتفاءل ، وقالوا : انه اصطحب فى فتح بعض حصون الشام رجلا كان على مدينة الرسول تيمناً بصحبته ، وكان يستشيره ويرجع الى قوله (١) .

ومن تَكَرُّهِ صلاح الدين للتزيد والتبرج طرد خازن ماله الدمشقى عن عمله حين بنى داراً مشيدة وزخرفها على شرف فى دمشق ، مع أن الصفى نصر الله بن القابض خدم السلطان لما كان على شحنة دمشق أيام نور الدين (٢) وأمده بلال فحفظ له السلطان يده ، ولكنه عزله حين انحرف وتزيد .

وأنكر صلاح الدين على العماد الأصفهانى كاتبه دواةً اتخذها محلاة بالفضة ، فجعل العماد يسوق من أقوال الفقهاء ما يحللها ، فلم يقبل صلاح الدين له دليلا ، فأمسك العماد عن الكتابة بها (٣) .

وكان العماد الكاتب شديد التهافت على الذهب ، بنزع الختوم المذهبة التى تأتى على كتب الفرنجة ويأخذها ، فوصل ذات مرة كتاب وكان العماد غائباً ففضه السلطان ، فأخذ بعض الحاشية الختم ، فلما طُلب الى العماد أن يكتب جواب الكتاب امتنع قائلاً : يكتب جوابه من أخذ ختمه ، فعز قوله على صلاح الدين وقال له : قم اخرج ، فليس الوقت محتاجا اليك ! فخرج الى أن أصلح بينهما القاضى الفاضل (٤) .

وشهد « نجم الدين الخبوشانى » ضد العاضد وضد دولته وخطب ضدهما ، وصرح بتعداد مساويهم حتى سلب الايمان عنهم ، وكان هذا الشيخ صوفياً يصوم ويفطر على خبز الشعير ، قد أظهر التصوف واشتهر

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٥ .
(٢) ديوان ابن عنين ص ٢٠٦ هامش .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٨ .
(٤) كنوز الأجداد ص ٣١٦ .

به ، فلما مات وُجدت له ألوف الدنانير قد جمعها ولم ينفقها فى انصباء ذوى الحقوق كما كان على الصوفى أن يفعل ، فلما بلغ ذلك صلاح الدين أسف له وقال : يا خيبة المسعى (١) !

ولقد أثر سلوك صلاح الدين هذا المسلك المعتدل الممدوح فى كثير من رجال الدين فى أيامه ، فصاروا يتلاومون بالاقبال على الطعام واللباس (٢) .

أما كراهيته للالحاد والغرور فقد استشار الفقهاء فى أمر رجل شاع أنه معاند فى حلب ، فأفتى الفقهاء بقتله ، فأمر صلاح الدين ابنه الملك الظاهر وكان على حلب — بتنفيذ فتوى الفقهاء ، لأن الرجل قد اغتر بما قرأ وعرف من كتب الحكماء والفلاسفة فغلب على عقله فتخرق ولم يتزن . ويروى الآمدى قصته فيقول :

اجتمعتُ بالسهروردى فى حلب فقال : لابد أن أملك الأرض ، فقلت : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت فى المنام كأنى أشرب ماء البحر . قلت : لعل ذلك يكون اشتهار علمك ، أو ما يشبه هذا . قال الآمدى : فرأيته لا يرجع عما وقع فى نفسه ، ووجدته كثير العلم قليل العقل (٣) .

ويبدو من هذه القصة أن قتل السهروردى الفارسى المهاجر الى حلب كان سياسياً ودينياً : اذ قصته أشبه بقصة ابن مهدى اليمنى ، ومهما كان سبب قتله بأنه قال بالفلسفة الاشراقية بعد أن اطلع على فلسفة أرسطو وأفلاطون ، والأفلاطونية والفيثاغورية الجديدتين فأثارت أقواله شكوك علماء السنة فزعموا أنه يمثل عقيدة القرامطة (٤) فانها الحادثة الوحيدة من هذا النوع لصلاح الدين ، واثمها على الفقهاء ، ولم يتعرض بعدها لحرية الرأى الدينى ما دام فى نطاق السنة من غير تزيد ولا غرور .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٧ .
(٣) ذيل النوادر ص ٣٠٣ .
(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٤ .

الاصلاح الدينى :

وحين قام صلاح الدين بابطال مذهب واحلال مذهب آخر مكانه بانقلاب سريع ، كان كمن قاموا بحركة اصلاح دينى ، ولكنه لم يكن عنيفاً ، ولم يخرج عن أحد مذاهبه ، لأن الاسلام لا يقبل اصلاحاً يتناول جذوره ، لأنه واسع حر ، وفيه لكل من أراد أن يجد غنى ووفرة وحياة . وذلك يتمثل فى طريقة الأشعرى حين شعر بالخلاف الذى اتسع مداه بين مبادىء المعتزلة وروح الاسلام فكافح الاعتزال والفلسفة والفرق الضالة بالاستدلال الجدلى والبرهان المنطقى مع الاعتماد كله على القرآن والحديث . فكانت طريقة الأشعرى توافق مزاج صلاح الدين .

منهب الشافعى (١)

لقد نشأ صلاح الدين فى حكومة نور الدين وكانت تتبع مذهب أبى حنيفة ، بل ان موطنه الأصلى بالعراق وهو مهد ذلك المذهب ومجتمع أصحابه ، وكان أولى به أن يتخذه ، ولكنهم قالوا : انه مال الى مذهب الشافعى واتخذه ليمتاز بمذهب غير مذهب السلاجقة والاتابكة .

هذه علة بعض من أراد من المؤرخين أن يذكر سبباً لما فعل صلاح الدين من انقلاب ، ولكن الأمر أخطر مما قالوا : فان صلاح الدين — ولم يكن اماماً ولا فقيهاً فى الدين — وقد كان أعلى هدفين له أن ينصر مبدأ السنة وأن يحارب الفرنجة — قد نظر نظراً أصيلاً فرأى مذهب الشافعى قد صمد فى مصر والشام لمذاهب الباطنية دهرا طويلا ، فاتخذه لئلا يعنف الانقلاب ويبرم الناس .

والشافعى نفسه قرشى يفضل فقه أهل المدينة وهو ما يقول به امامية الشيعة . وكان على صلة بكثير من أهل البيت رجالهم ونسائهم وكان يفرق

---

(١) انظر كتاب آداب الشافعى ومناقبه لابن أبى حاتم .

بينهم وبين المتطرفين من اتباعهم ، فحلول مذهب لا يقوم على صاحبه اعتراض كبير لأنه متطرف فى حبه لآل البيت ، ينفى عنه كثيرا من اللوم .

ومع أن معظم أساتذة صلاح الدين كانوا من أتباع الشافعى فان المذهب ذاته كان أقرب لخلق صلاح الدين وطريقته ، اذ يستند المذهب على الكتاب والسنة والقياس ويكره الرأى والكلام ومعاشرة أصحابهما ، وكان الشافعى يقول فى المتكلم : لو رأيته يمشى على الماء لا تثق به ، وان رأيته يمشى فى الهواء فلا تركن اليه . وهو رأى الأشعرى وطريقته .

أما مذهب مالك فالشافعى تلميذه ، وأما ابن حنبل فالشافعى أستاذه فهو وسط بين الرجلين والمذهبين ، كما هو وسط بين حبس الحديث على طريق واحد كما يحبس الشيعة ، وبين أهل الرأى الذين أطلقوه . وكان الشافعى أقدر الفقهاء على الرد على هؤلاء حتى شهد أهل العراق من أتباع أبى حنيفة بأن احتجاج الشافعى بالقرآن والحديث غلب أهل الرأى ، لذلك كله أخذ صلاح الدين طريقه الى مذهب الشافعى .

وسمح صلاح الدين لمذاهب السنة أن تسير بجانب المذهب الشافعى ، حتى قالوا : انه لم يتعصب لمذهبه ، والحق انه لم يتعصب له بحيث يلغى ما عداه ، ولكنه تعصب له كى يسود : فقد فتح له المدارس وجعل معلميها من أتباعه ولم يسمح لغير الشافعية بالتدريس بها ، ولما عزل قضاة الباطنية ولى مكانهم قضاة الشافعية ، ولاهم فى كل انحاء مملكته ، وبنى مدرسة عليا لمذهبهم ، وفوض الافتاء الى شرف الدين بن عصرون وكان رئيس أصحاب الشافعى فى زمانه (١) .

ولم يلبث أتباع هذا المذهب والجيل الذى نشأ بعدهم أن تشبعوا بالمبادىء التى أراد صلاح الدين أن ينشرها حوله فسادت وانتشرت (٢) .

(١) روضة المناظر ص ٧٧ .
(٢) تاريخ العرب لسيديو ص ٢٦١ .

وكان الشافعى قد قال : « خلفتُ بالعراق شيئاً يسمى « التغبير » وضعته الزنادقة ، يشغلون الناس عن القرآن » — والتغبير : التهليل وترديد الصوت بالألحان فى حلقة الذكر مع الضرب والتوقيع بالقضيب ونحوه — فأبطلها صلاح الدين ، ولا سيما تلك التى كان يعملها الحاج فى عرفات .

الشعر والشعراء :

والشعر — كان ولم يزل — ديوان العرب ، وقد تسابق الناس فى أيام صلاح الدين الى حفظ قديمه ليوقدوا منه نار جديده ، فنهضت الطباع بما أرادت من القول ، وأضاءت الخواطر للمعانى ، وهدت القرائح الى الطريق .

ونحن فى عصرنا — ولا سيما فى مصر — عن هذا الشأو مقصرون ، ما عدا شعر الأغانى ، والدارج منه على الخصوص ، أما فى الشام فقام به شعراء لم يبلغوا أمثالهم أيام صلاح الدين .

وقالوا : ان صلاح الدين كان يتمثل بشىء من الشعر ، ثم قالوا : انه كتب فى واحدة من رسائله بيتين اثنين ، وذكر ابن الأثير أنه كتب فى صدر كتاب لأخيه « توران شاه » يصف فيه وقعة هزم فيها من الفرنجة بيتاً يقول :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا   وقد نهلت منا المثقفة السمر (١)

وهذا أمر لا يفيد أن له ملكة شعرية ، ولكن المفروغ منه أنه كان يفهم الأدب والشعر ويكتب بيده الرسائل ويمليها ، ويرعى الشعراء والكتاب ويجعل منهم خاصته ووزراءه ، وحسب الناس أمثلة على ذلك أن

(١) روضة المناظر ص ٨٣ .

يذكروا بعض من حواليه من أدباء الـكتاب كالقاضى الفاضـل والعماد الكاتب وابن شداد وأسامة بن منقذ .

وقد كثر الشـعراء المجيدون فى أيامه لتشـجيعه لهم وسماعه منهم واجزاله فى أعطياتهم ، ولا سيما فى دمشق اذا رجـع اليها بعد غياب أو جلس فيها غب انتصار ، وهو طبع أهل الشمال الذى لم يزالوا عليه ، وكما كانوا مع صلاح الدين رائد الأمس صاروا مع عبد الناصر رائد اليوم .

ومن لم يكن شاعراً فى عهد صـلاح الدين قال بعض المقطعات وعد نفسه شاعراً ، أو نحله لنفسـه ، ولم يقتصر قرض الشـعر على الرجال فقرضته النساء (١) .

وجرى الشعر وراء أغراضه القديمة ، ولكنه اشـتعل فى الحماسة اشتعالاً يضيف الى العربية ذخيرة حافلة وديواناً ضخماً ، كما أنه شق باباً جديداً فوصف مدن الفرنجة فى الشام أيام كانت معهم وكانوا يبنون قصورها ويرتبون خططها كأنطاكية ، وقد فتح وجود نساء الفرنجة حاسرات بين العرب باب الغزل بهن فجرت فيه صفات لم يكن قال فيها شعراء العرب من قبل (٢) ، كما أنه سلك طريق افتنان فى القافية يدل على خاطر متوقد وصنع عجيب ، ونظرة الى رسالة أسامة بن منقذ لصلاح الدين بالشعر تدل على مقدار ما يستحقه الشاعر من اعجاب (٣)

نظم الموشـحات :

وأدخل ابن سناء الملك الى المشرق فن التوشـيح متأثراً بالأندلس والمغرب ، لشدة امتـزاج الناس وآدابهم فى ذلك الزمان ، ولا سيما فى

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٦ ــ مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦ .
(٢) انظر خريدة القصر للعماد الأصفهانى .
(٣) انظر خريدة القصر للعماد الأصفهانى ص ٥٤٥ .

دمشق ، فقد كانت الرحلة اليها والى المشرق مقصد علماء المغرب وشعرائه ورحالته .

وقد حدد ابن سـناء الملك فى كتابه « دار الطراز » قواعد الموشح وبين خصـائصه وطرق نظمه وأوزانه حتى حُسِب فن التوشـيح علماً دقيقاً ، وقد أوضح ابن سناء الملك أن الموشـح مع كثرة قيوده انما هو انطلاقة لذلك العصر من قيود القصيدة ، وخروج عن موسـيقاه وأزانه المكسوبة الى موسيقى اللحن ونغمات الوتر (١) .

ويبدو أن الشرق كان قد فُتن بموشحات المغرب التى كان يدل بها عليه ويتيه ، فبدأ ابن سناء الملك يضع لها الأصول ويسيل اليها النفوس .

وبعد ، أفليست هذه لغة عصرنا نحن فى الشعر ولغة المجددين ورأيهم فيه ؟ وشعر المقطعات الغنائية على الأخص ؟ فاذا كان ابن سناء الملك قد فرغ الى التجديد ورتبه فناً وضع مقاييسه وموازينه ، فكأنما كان يرتب لزماننا ويضع العروض لشىء من شعرنا وموسيقانا .

الشعر الهزلى وشعر الهجاء :

ولم يخل عصر صلاح الدين من شعر هزلى كان يُنشَد للتخفيف من حدة الحروب وشـدة الأهوال والأمراض ، وقد أوردنا مثلاً له من شعر عرقلة فى زلزال حماة ، ويقولون : ان بعض اخوة صلاح الدين كان له شعر منه (١) .

ونَقد الحكام باللفظ الجارح فى الشعر لم يبطل حين ذلك ، ولكنه لما كان منافياً لاستقامة صلاح الدين وطبعه فقد طرد الشاعر « ابن عُنَيْن » من البـلاد حين تعـرض للوزراء والكبراء بالهجاء المقذع فى قصـيدته

(١) دار الطراز ص ١١ ، ١٣ ، ٢٤ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤٤ ــ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٦ .

« مقراض الأعراض » ، وقصائد أخرى ولم يعد الى دمشق الا بعد موت صلاح الدين (١) .

النثر المقيد :

وصناعة النثر فى ذلك الزمان أشهر من أن تعرف ، فطريقة القاضى الفاضل وابن العماد لم تزل معروفة ، والرسائل والمقامات لم تزل ذات شهرة قيمة ، وهى وثائق تاريخية هامة للحوادث وحياة المجتمع وعقله وعلمه ، الا أن تقييد الكلام كان سابقة خطيرة من بديع الزمان والحريرى وأبى العلاء ومدارسهم التى انبثقت عن طرائقهم ، وقد انصرفت هذه السابقة الى ادراك اللذة من قوة الحفظ ومهارة التطبيق فأطفأت لمعة المعانى وحرارة التعبير . وقد نبغ على هذه المدارس القاضى الأحدب والعماد الأصلع فأثقلا على كبد اللغة بأعباء لا تطاق ، وانصرفا عن ملاهى الحرب الى القيد اللفظى الثقيل ، ومن الغريب أن قدرتهما أبعدت كل قدير عن الديوان لأنه ليس من حلبتهما ولا يستطيع أن يشق غبارهما .

والناس فى الحروب والكروب تنأى طباعهم عن الصنعة والصعوبة ، ولكن يبدو أن بطء ذلك العصر وفراغه الا من الساعات الحاسمة فى القتال هو الذى أطلق خواطر الأدباء الى هذا التقييد الذى هو فى عصرنا شىء لا يطاق .

ومن حيث سلك الفاضل والعماد طريق الجد كان للنثر الهزلى المقيد بالسجع واللزوم كتاب آخرون ، وقد احترف الأدب الهزلى أدباء منهم « جمال الدين بن محرز » قيل انه قدم من وهران الى مصر ، فلقى القاضى والعماد وتلك الحلبة ، فرأى أنه ليس من طبقتهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ، وعمل رسائل فيه سماها « المنامات » (٢) .

---

(١) ديوان ابن عنين ص ١٧٩ ، ٢١٠ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٩ .

العلوم الكلامية :

وشاعت العلوم الكلامية وسبقت ، وهو ما جرى عليه المشرق من قديم ، فدرس التفسير والحديث والنحو وأصول الدين والخلاف (١) . وقد كتب السلطان ببعض مسائل الفقه وأخبار الفقهاء للقاضى الفاضل كما أوردنا من قبل ، ولكن السلطان لم يكن يعرف غير العربية ، وكذلك كان جل أصحابه ، فيما عدا العماد ولا سيما فى الفارسية ، وقد احتاجوا دائماً الى التراجمة واستعانوهم واستخدموهم ، وكانوا فى غالبهم من غير المسلمين ، ولذا كان من شروطهم عند كل صلح أن يجدوا المترجم الأمين .

صناعة الوعظ :

وكان من ترتيب كتابنا أن يتقدم الكلام عن هذه الصناعة فيكون عند الكلام على التقليد الدينى والمذاهب ، ولكنه تأخر الى هنا لمناسبة الصناعة اللفظية فى النثر ، فجئت به وراءه لاتصاله بصفة الكلام .

وقد اتخذ ناس من ذوى القدرة على الكلام فى ذلك العصر صناعة الوعظ ، وكان الواعظ البليغ يتكلم عفو الخاطر من غير اعداد ، ثم يجمع كلامه ويحفظ (٢) . ومن الذين اشتهروا بالوعظ والبديهة والحفظ « نجم الدين الخبوشانى » الذى تقدم ذكره فى فتوى خلع العاضد : كان يملى الكتاب من خاطره اذا فقده : قد أتقنه حفظا (٣) .

---

(١) الخلاف : هو احتجاج كل أصحاب مذهب لمذهبهم بأصول واردة لا آراء عقلية يستنبط منها ما يلزم عنها .
(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣١ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧٤ .

علم الطب :

علم الطب يسمونه علم الدنيا أما علم الدين فهو الفقه وما شاكله ، وكانت حلب أيام صلاح الدين بلد الأطباء يجيئونه منها ، وقد لحق به منها بعضهم فى حران وأماكن أخرى كان قد مرض بها (١) .

ولم يكن يتناول الأشياء الصغيرة المعروفة فى زماننا كالفصد والحجامة وصناعة الكحل غير قوم لهم علم" بالطب والصيدلة ، فكان الفصد من الطب (٢) وصناعة الكحل منه ، فلا يكتحل بشىء لم يتول أمره أهل العلم بالدواء ، وقد تخصص فى صناعته الشريف الكحال المصرى سليمان بن موسى (٣) ، وأبو الفضل ابن الكحال .

وقد اتصلت صناعة الطب بالبيمارستانات التى أنشئت ، وفيها جرت تجاربه ، وبالصيادلة الذين ألقيت عليهم مسئولية صلاح الأدوية للعلاج .

واتصل بصلاح الدين من الأطباء الموفق بن المطران الطبيب ، كان نصرانيا فأسلم (٤) ، وقد أنشأ تلاميذ ابن المطران فيما بعد مدرسة للطب فى دمشق ، وعبد المنعم الجيانى وكانت له عيادة (حانوت) باللبادين لصناعة الطب ، وقد رعى صلاح الدين له حقه ، وكان الجيانى يعانى أيضاً صناعة الكيمياء (٥) ، وبعض هذه الصناعة يخدم تحضير الدواء ، ورضى الدين ابن حيدرة الرحبى (٦) ، وهبة الله جميع الاسرائيلى (٧) وابن ميمون (٨) .

(١) النوادر السلطانية ص ٥٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧١ .
(٣) معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٥٩ .
(٤) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ .
(٥) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٣ .
(٦) رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبى كان من كبار الأطباء وقد هجاه ابن عنين — ديوان ابن عنين ص ١٧٩ .
(٧) المنجد حرف الهاء .
(٨) تاريخ العرب المطول ص ٧٨٣ .

وقد أخذ على المسلمين فى ذلك الزمان وغيره انصرافهم عن علوم الدنيا الى علوم الدين وهو ما لم يأمر به دينهم ، فتخلفوا وتركوا أمور دنياهم وأبدانهم فى يد غيرهم ، وكان استعلاء المسلمين فى السياسة والسلطان يجعل أولئك فى خدمتهم ، ولم ينفرد عصر صلاح الدين بذلك بل أشبهته عصور اسلامية كثيرة ، كانت فيها علوم الدنيا فى الدرجة الثانية بعد العلوم الكلامية وعلوم الدين .

الحيل والهندسة :

وسمى علم الهندسة اذ ذاك بعلم الحيل ، وقد بلغ روعته أيام صلاح الدين ، ولا سيما ما اتصل منه بهندسة القلاع والأسوار ونقل أحجارها ونحتها وعمل آلاتها والانفاق عليها ، وكان من أعظم مهندسى القلاع فى عصره الملك المظفر تقى الدين أخوه (١) »

الفنون :

ولم ينفصل الفن الأيوبى عن الفن الفاطمى بل كان امتدادا له ، لما لم تنفصل مصر عن الشام فيه ، فكانتا فيه ذات طابع واحد ، ومن غير الممكن افراد أيام صلاح الدين ذاتها فى هذا الباب عن العصرين من قبله ومن بعده الا فى أشياء قليلة ، ففن النحت على الحجر والجص ، والحفر على الخشب والعظم والعاج ، وصناعة التحف المعدنية والخزف والزجاج والمنسوجات والأبسطة كانت كلها فى الدولة الأيوبية امتدادا لما كان فى الفاطمية قبلها .

وبعض الأبنية كان ذا نمط عمرانى متفرد بذاته ، كتربة أم الملك الأفضل على زوج صلاح الدين ، وقد قيل : ان جميع بناء هذه التربة له شأن (٢) .

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٣ .
(٢) الآثار الاسلامية فى حلب ص ٧٨ .

وفى زمن صلاح الدين ذاته ظهر ابتـــداع مهم فى الفن الاســـلامى بمنطقته ، وذلك أنه أدخل الى مصر رسم المسجد الكلى المصلب ، وهو من أصل أسيوى ، فقام بالتدريج مقام رسم المسجد القديم ذى الأروقة (١)

ولم يبق من الآثار راجعا الى عهد صـــلاح الدين سوى ما بنى فى عهده من قلعة القاهرة وجزء من أسوار مدينة الفسطاط . كما أنه يوجد بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعة من تابوت قبر الامام الشافعى ترجع الى سنة (٥٧٤ هـ — ١١٧٨ م) وهو عصر صلاح الدين نفسه .

غير أن هناك ملاحظة جديرة بالالتفات فى الزخرفة الأيوبية ، فقــد زاد الاهتمام فيها بوحدات النبات (٢) ، ومن الممكن أن يعزى هـــذا الاهتمام الى عناية الأيوبيين بالزراعة التى ما كان يمكن أن تزهو بغير الاهتمام الموصول بنظام السقى والرى عناية فائقة (٣) ، وهذا سر اهتمام أهل الفن فى الدولة الأيوبية بوحدات النبات .

وكانت الدولة الفاطمية قبلها تهتم فى زخارفها بوحدات الحيوان من الظباء والأسود وغيرها ، وقد تأثر صلاح الدين بهـــذا فاتخذ النسر رمزا لرايته وقوته وسرعة انقضاضه .

المناظرات والرحلات :

وحفلت الأندية والمجـــالس والمساجد وخيـــام الحرب وميـــادينها بمحاورات العلم والأدب ، فتعلم منها صلاح الدين المناظرة السمحة عن فهم ووعى وحسن ادراك ، وان لم تكن بألفاظ المناظرين وعباراتهم المرسومة واصطلاحاتهم الموضوعة .

(١) مجالى الاسلام ص ٤١٦ .
(٢) انظر كتاب الفنون الاسلامية فى أثناء كلامه فى الابواب المختلفة من الفن فى العصر الأيوبى .
(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٠ .

وتراسل العلماء والأدباء بمناظراتهم كما تحادثوا بها ، ومن أشهر تلك المراسلات ما كان بين القاضى الفاضل وابن سناء الملك (١) .

ولم تعق الحروب الحادثة رحلة الناس من مكان الى مكان ، فانساح الناس لطلب العلم والحديث والفقه والأدب والنحو والطب ، وأتت دمشق وفود الطـــلاب من كل فج (٢) . وكانت آفاق الأرض حين ذلك مفتحة الأبواب ، قد اتصلت مصر بالشام والعراق وخراسان والمغرب ، والمســـافر فى هذه البلاد لا يصده أحد ولا تحجزه حدود ، وكان التاجر والمسافر فى مدة سفره يتلقى العلم حيث نزل ، وكأنه ضرورة كالطعام والشراب ، لأن المسافر يقصد المساجد الجوامع لا محالة ، فيجد فيهـــا علوم الدين والأدب والشعر والحكمة فينهل منها ما يناسبه وما يشاء (٣) .

وكانت المجالس تعقـــد والندوات تجتمع ، وكأنهـــا أيامنا أو أكثر ازدهارا ، فاذا نزل القاهرة شاعر دمشقى أو نزل دمشق شـــاعر قاهرى اجتمع الشعراء لديه وأبقوه عندهم زمانا قبل أن يتمكن من الرجوع الى بلده ، فيتمتع الناس بأدبه كما يستمتع هو بضيافتهم واكرامهم (٤) . ومثل هذا حادث فى زماننا فى مؤتمرات جامعـــة أو ضيافات فردية ، وضرب الأمثلة له شىء يطول ، فانه لا يكاد يمر موسم من مواسم العام دون أن تعقد هذه المؤتمرات ويسافر بين البـــلدين والاقليمين كثير من الكتاب والأدباء والعلماء والشعراء . وذلك قبل الأحداث السورية الشائنة التى حدثت بعد الانفصال المزعوم .

وحسبنا أن نضرب مثلا باكرام مجالس القاهرة فى أيامنا لكثير من أدباء الشام ، واكرامهـــا لرشيد ســـليم الخورى الشاعر القروى اللبنانى المهجرى فان الجمهورية العربيـــة المتحدة قد أقدمته اليهـــا وكافأته على

(١) دار الطراز ص ١٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧ .
(٣) انظر معجم الأدباء ج ١١ ص ١٩٢ : ترجمة التاجر سعد الحرانى .
(٤) دار الطراز ص ١١ .

قصائده « الوطنيات (١) » بأن جعلت له مرتبا شهريا ، وكذلك كانت تفعل دمشق فتكرم أدباء القاهرة وشعراءها اذا وفدوا اليها .

وقد امتازت الحلبة التى أحاطت بالرائد العربى اليوم بالانكباب على العلم وحل أمور الدولة الحديثة على أضوائه ، ووراء هؤلاء طوفان من البعثات العلمية تفد الى معظم الدول المتقدمة فى العلوم لتضمن للدولة غدها كما ضمنت يومها وهو مايفوق — بلا جدل — عصر صلاح الدين .

وحسبك ما تقدمه اليوم وزارات الأوقاف والثقافة والتعليم من تشجيع للعلم والعلماء والمتعلمين فى شتى بلاد المسلمين .

وضرب المثل بما هو حادث اليوم معجز ، فانك ترى الوزراء الناصريين جميعا مشغوفين بالعلم منكبين عليه حتى أن بعضهم انكب على دراسته حتى حاز على شهادات عصرنا ، ولا ضرورة لذكر الأسماء فالأمر ماثل معروف .

دور الكتب :

وكانت قد قامت بالعالم الاسلامى دور كتب لا مثيل لها ، ومكتبة القصر العاضدى بالقاهرة ومكتبة حلب كانتا تجمعان فرائد الكتب وغرائبها . وقد امتازت مكتبة مصر بأشكال التجليد وامتاز بعضها بالتصوير الذى كانت تخلو منه الكتب الاسلامية فى سالف عصورها .

وقد امتدت الى هذين الدارين أيام صلاح الدين يد السرف والتضييع بدل الحفظ والرعاية ، وقد قيل ان السبب أن معظمها كان فى مذاهب الباطنية والدعوة لها ، ولكنه كان من الممكن أن تنتقى هذه الكتب وتنفى ويبقى الصالح وهو لا شك كثير .

(١) انظر ديوان الأعاصير وديوان الشاعر القروى .

وقد حدث أن « أبا سعيد البندهى » الفاضل الأديب قد استصفى كتبا كثيرة من دار الكتب فى حلب وأخذها حين اتصل بالسلطان فأباح له أن يأخذ منها ما شاء ، وكان « البندهى » أستاذا لابنه الملك الأفضل على فنزل الى جامع حلب وقعد فى خزانة كتبها الموقوفة واختار منها جملة أخذها ، فلم يمنعه منها مانع . وقد حكى أبو البركات الهاشمى الحلبى قال : ولقد رأيته يحشوها فى عِدل (١).

أما مكتبة القاهرة فقد اختلف المؤرخون فى عدد ما كانت تحوى من الكتب ، فأوصله بعضهم الى مائتى ألف كتاب ، وكان بها من الفرائد المصورة ما لا مثيل له ، فكانت من عجائب الدنيا ، ولم يكن فى جميع بلاد المسلمين دار كتب أجمع منها للعلوم والفنون والآداب .

وقد حكى العماد الكاتب مأساة هذه الدار ومصيرها السيىء ، فقد بيعت ضمن متاع القصر بيعا بخسا ، ولم يقم عليه رقيب ولا حسيب ، وقد سمعت فى زماننا فى بعض البلدان التى زرتها أن أنصار الفاطمية كانوا ممن اشترى من هذه الكتب وهربوها الى البلاد القاصية كبلاد الهند ، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحا ، لأن كثيرا من مدونات ذلك العصر صارت اليوم تطبع فى الهند ثم تصدر الى بلادنا ، وسوق الكتب بها من ذلك شىء كثير .

وقد وصف العماد ما كانت المكتبة عليه من نظام وترتيب رفوف وتقسيم فهارس ، وذكر أن الذى حكم فى بيعها كان بهاء الدين قراقوش متولى قصر العاضد ، ولما كان تركيا لا خبرة له بالكتب ولا دراية بالأدب فقد جازت عليه حيل دلالى الكتب فى وكسها فبددها بأوكس الأثمان .

ووصف فرائدها بأن بعضها كان ربما حوى خمسين جزءا أو ستين اذا فقد منه جزء لا يخلف أبدا ، وذكر أن هناك مشترين كانوا وراء

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢١٥ — وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٤ .

الدلالين وشركاءهم ، فلمـا حملت اليهم الكتب باعوا ما قوموه بعشرة بمائة .

وقد استصفى العماد والقاضى الفاضل منها قدرا كبيرا من الكتب ، أما العماد فقد أعفاه السلطان من ثمنه ، وأما الفاضل فقد اشترى عددا ضخما منها بعد أن نزع عنها جلودها على أنها مخرومات ، ثم جمعهـا بعد ذلك ، ولما أنشأ المدرسة الفاضلية جعل فيها — كما يقال — مائة ألف مجلد من مكتبة القصر (١) .

حـركة التأليف :

وليس يحصى عد ما ألف أيام صلاح الدين فى كل العلوم والآداب دنيويها ودينيها ، فى البلاد التى يحكمها والتى لا يحكمها ، وقد حفلت كتب التاريخ والأدب والطبقات بذكرها .

ومع هذا فانه لايقاس بعصرنا حيث قامت فيه وزارات ودور ومجالس بتشجيع التأليف والنشر بما لا مثيل له من قبل ، وذلك مع تطور العلوم والآداب واتساعها عرضا وطولا وعمقا ، ومن هـذه الوزارات والمجالس وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الاسـلامية ، وقد تولى أمرهما المهندس الكبير والأديب القدير السيد نائب رئيس الوزراء أحمد عبده الشرباصى وشاركه فى بعث همة المجلس الأعلى شـاب من خيرة شباب الجيل وأكثرهم همة وأدبا هو محمد توفيق عويضة ، وفيما يصـدر عن هذه الوزارة وهـذا المجلس من كتب ومجلات ونشرات يبين الفضـل ويذكر .

وليس ينسى فى هذا الباب الهمة العالية والنشاط المرموق الذى تقوم به وزارة الثقافة والارشـاد برعاية السيد نائب رئيس الوزراء الدكتور عبد القادر حاتم وزيرها المفضال .

---

(١) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ٨٣ .

الاختراع والافتنان :

وقد نشطت حركة الاختراع والابتكار — والحروب من دواعيها — وكافأ عليها صلاح الدين ، وسنعرض لمكافأته أبطال الحروب الى شاب دمشقى لم يقبل أن يأخذ منه مكافأة على خلطه مواد أحرقت دبابات العدو عند عكا .

ونشط الافتنان أيضا بفعل الذكاء والتمرين ، فقد شوهد «أبوالحسن السروجى الأديب » يأخذ المـاء بفيه ويكتب به على الحائط كتابة حسنة كأنهـا بقلم الطـومار (١) ، وشـوهدت امرأة هـذا الأديب تـكتب بقدميها (٢) .

وكان الغناء والرقص على المزمار لا ينى ولا يهدأ ، حتى فى خيام الحرب وميادينها ، وبينما كانت تعبر الليالى بخيام الفرنجة ساكنة حزينة كانت تمر بالمسلمين ساهرة فرحة ذات أصوات وزعيق ، حتى انهم يقولون ان ريشارد ملك الانجليز تمنى أن يرى حفلة من هذه الحفلات فدعاه الملك العادل الى واحدة منها فرجع مما رآه محبورا مسرورا .

---

(١) خط الطومار : حيث يكون الحرف كبيرا يملأ ما يسمى بفرخ الورق اليوم وهو الطومار .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٩ .

شئون القتال

- حب السلام
- الاعـــداد للجهاد
- حرب الفرنجة
- أهداف الحرب
- خطط القتال
- وقت المعركة
- أرض المعركة
- أدوات القتال
- الأسلحة الثقيلة
- الأسلحة الخفيفة
- فرق المقـــاتلة
- الأبطال والمخترعون
- بطولة بيروت
- الأســـطول

حب السلام :

من التجوز — بعد ما قدمنا — أن تفرض لصلاح الدين سياسة فى السلم ، من ناحية الرعاية التى بذلها لاعمار البلاد وترقية شئونها لتمده بالقوى المطلوبة له فى المعارك ، أما ما عدا ذلك فانه لم يعرفه منذ تولى شحنة دمشق ثم نزع منها وأرسل ليقاتل فى مصر ، بل انه لم يعرفه منذ ولد — كما أوضحنا فى مقدمة هذا الكتاب وفى الباب الأول منه — وانما كانت سياسته كلها سياسة جهاد وقتال .

وعلى ذلك فهو بطل من أبطال الحروب ، وشهرته كلها كسبها من الحرب ومن الوقائع التى ربحها ، وأخص هذه الوقائع وقعة « حطين » فانه لم ينتصر فى غيرها مثل الانتصار فيها ، ولم تستطع الهزائم التى منى بها بعدها أن تعطل من آثارها أثرا أو تمحو من مجد صلاح الدين حرفا .

ولا يحسبن كل من قرأ هذا عن صلاح الدين أنه كان مغرما بالدماء منهوما بها معتادا عليها ، فانه وان كان قد اكتسب شهرته من حروبه وقضى عمره كله يدير رحاها فانه لم يكن من هواتها ، وكل حرب اضطر اليها خاضها مرغما ، وكان كلما ألمت به أهوال الحروب ود أن لم تكن ، وطالما رحم المحاربين معه فتركهم يخرجون من المعركة دون أن تتحسم ، وحتى لو خذلوه ، متى صدق لهم عذر ، لأنه كان أعلم الناس بما تصنع الحروب ، وكان من أكثر المقاتلة احساسا بحرارات الدماء .

وطالما اجتهد صلاح الدين أن يحقن الدماء حتى دماء أعدائه ، وقد أحب — وهو الفارس العابر على الأسنة والنبال — ألا يعود أولاده الجرأة على الدماء ، فقالوا : ان أولادا له صغارا طلبوا فى مرج عكا أن يأذن لهم فى قتل أسير فلم يأذن لهم . فسأله كاتبه وصاحبه بهاء الدين بن شداد عن سبب المنع ، فقال له : لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ، وتهون عليهم بعد ، وهم الآن لا يفرقون بين الحلال والحرام (١) .

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٢ .

بل لم يكن مغرما بقتل أعدائه أو اذلالهم ، فكان يسرع الى العفو عنهم اذا تم تأديبهم ، ولا سيما اذا كانوا من المشارقة : وقد صدر من « مظفر الدين » صاحب قلعة « حران » كلام يؤذى السلطان فسارع اليه وانتزع منه قلعته واعتقله ، فلما أيقن أنه تاب وتأدب عفا عنه وطيب خاطره وأعاد اليه القلعة والبلاد التى كانت معه ، وهذه أيضا كانت احدى فرائد السلطان .

الاعداد للجهاد :

ولم يسر صلاح الدين خطوة واحدة لتركيز قوته وتوحيد بلاده الا وهو على نية الجهاد واعداد البلاد له ، فقد رأى الحروب الصليبية قد طالت ، فأراد أن يحسمها ، فكان — كما قالوا — من ضروراتها .

وقد أورثتنا تلك الحروب ، حقا ، أمجد ميراث حيث جاءت برجل مشغوف بالجهاد ، قد استولى حبه على قلبه فلم يكن له حديث الا فيه ولا نظر الا فى آلته ، ولم يكن له اهتمام بأحد فوق اهتمامه برجاله ، ولا ميل فوق ميله الى فرسانه وأبطاله .

وصرفه حب الجهاد عن الاهتمام بأية بلية تنزل به ، حتى جسمه ، وهجر فى محبته أهله وأولاده مع شدة حنوه عليهم وشفقته بهم ، وقنع من الدنيا وقصورها ومتارفها بالتنقل على فرس الى ظلال الخيام ، ولم تكن غير خيـام معرضـة للقصف والنسف فى أى برهة من الزمان ! ، ورددت الآفاق صدى دعوته للجهاد ، ومجده الناس على اختلاف الأزمنة : أما العرب والمسلمون فقد مجدوه لأنه دافع عنهم وبهم ، وحمى ذمارهم ، وأما الفرنجة فلأنه أقلق بالهم ، فلما انتصر عليهم عفا عمن شاء وأفضل عليهم بالمن ، ولم يغدر غدرهم ، وقد خاطبه ذات مرة أحد قادة البحر من الفرنجة عند اللاذقية وطلب اليه أن يقلع عن مناوأة الأساطيل وفتح البلاد فقال له : « قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين وافترضه علينا ، فنحن

قائمون فى طاعته بأداء ما افترض علينا منه ، وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا عليه تعالى » فصلب قائد البحر الفرنجى على وجهه وعاد الى مركبه (١) .

وكثيرا ما كان صلاح الدين يقول وهو يجاهد ويجالد : اننى أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء .

أما تقدير صلاح الدين لموقف عدوه فى المعركة فكان دقيقا عجيبا ، وقد حدث حين أزال أصحاب اسماعيل بن نورالدين عن موقفهم مع عسكر الموصل أن ثبت عز الدين بن مسعود فلما رأى السلطان ثباته قال : « اما ان هذا أشجع الناس واما أنه لا يعرف الحرب » وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة على عدوه (٢) .

حرب الفرنجة :

لقد تبين أن كل ما حدث من صلاح الدين فى جمع كلمة البلاد ولو بقتال أمرائها واخضاعهم انما كان بيد واحدة بينما كانت اليد الأخرى مشغولة بقتال الفرنجة ، ومنذ دخل صلاح الدين ميـدان الشباب وهو يحاربهم حتى اننا لنحسب قتاله للأمراء المشارقة قتالا للفرنجة أيضا لأنهم كانوا محرضين أو محالفين .

وأول ما التقى صلاح الدين بهم منفردا التقى بهم فى الاسكندرية حين حاصروه بها هم وجند شاور ، حتى خلصه عمه شيركوه ، وكره أن يعود الى مصر بعدها لأنه سيعود للمكيدة والحرب ، فامتنع حتى أمره مولاه نور الدين وقضى حاجته التى تعلل بها .

ولو فرض أن صلاح الدين قد نازل الفرنجة مضطرا فقد كان عليه أن يرسم لنفسه طريق الحرب ويضع خططها ويعرف أهدافها ، وذلك اذا

(١) النوادر السلطانية ص ٧١ — مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٦١ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢ .

كان يريد لنفسه النجاة من أهوالها وحسب ، فكيف به اذا ود أن يكون أحد الأبطال ؟!

وقد وقع مما ليس منه بد ، فرسم طريقه وخططه وعرف أهدافه ثم مضى يقاتل . وأصعب الأمر أنه لم يعمل لمعركة واحدة أو عدد من المعارك ينتهى بعده العدوان الى المهادنة والصلح كما يقع لمعظم القواد ، ولكنه عمل ليستنفد فيها مقدرته وأيام عمره ، ثم يترك البقية للأجيال التى تأتى بعده ، وكفى أنه مضى قدوة وعبرة ومقياسا .

أهداف الحرب :

فاذا كان صلاح الدين — من قبل — لم ينو حربا ، ولم يظن أنه سيعود اليها فقد عرف من نفسه حين عاد وعرف الناس معه أنه رجل شجاع جرىء القلب الى غاية ما يظن فى امرىء مخلوق من شجاعة — وغريب على ابن آدم ألا يخشى الحرب والمقاتلة لأول مرة فاذا مرن عليها أقبل غير خائف — وهكذا حدث كثير من رجال الحروب وأبطالها — فكان صلاح الدين كما خُلق الانسان .

وكانت خطة نور الدين مع جنده ملزمة جنده أن يشجعوا ، فما كان يعطى مالا لمن يفر عن عدوه بل يأخذ ما جمعوه وأخذوه ، وبذلك أنبأ أحد جنوده فى أثناء حملة من حملاته على مصر قال : والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ، ليأخذن مالنا .. وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا (١) .

ونبأ مثل هذا الجندى جنود آخرون : وقد حدث أن وقع الرعب ذات مرة فى صفوف من كلفوا القتال بمصر مع شيركوه ، فقام جندى فقال : من كان يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فى بيته

(١) جيش مصر أيام صلاح الدين ص ٥ .

مع امرأته ! فقال شيركوه مثله ، فقال صلاح الدين مثلهما ، وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال (١) .

فاذا كان صلاح الدين لم يشأ أن يرد شريعة الحرب فى أول أمره فقد اضطره أصحابه من الجنود الشجعان أن يردها ويشرب منها بملء فيه ، ولكن صلاح الدين لم يكن يرى مفرا من الحرب ، ولم يطرح التفكير فيها والترتيب لها منذ وقف على أبوابها .

وحين عرف أهدافه منها رسم لها وحدد مراميه : وقد ثبت فى نفسه — حين نظر الى ساحل البحر فى منطقته كلها فرآه حاجزا — أن يفتح الساحل ويطرد الفرنجة ، ودون فتحه فلن يكون نصر ، ولن يكون لحروب التوحيد التى يخوضها قيمة ، والأهداف مترابطة ، فلا خلاص للساحل الا بتوحيد القوى ، ولا ذهاب للفرنجة الا بهذا التوحيد وتطهير الساحل وامتلاكه .

كذلك ثبت فى قلب صلاح الدين حين كره العودة لمصر ، فرأى من الصعب أو المحال أن يدخلها ويستقر فيها ما دام الساحل مملوكا للفرنجة ، ولكنه رأى أن دخولها والاستقرار بها يمكن له من امتلاك ساحل البحر (٢) فى أرض الشام ، فكلا الأمرين مرتبط بصاحبه لا ينفك عنه وكأنهما أمر واحد .

وقد صدقوا حين قالوا انه لم يقصد قط من حربه للأمراء المشارقة الا ردهم لطاعته ونصرة الاسلام وقطعهم عن التودد للفرنجة ومواصلتهم ، فقد كان من شروطه على كثير من ولاته الجدد أن يعاونوه اذا استمدهم لقتال الفرنجة (٣) .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٢ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٣٣ ، ١٩٦ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٦٦ .

وأما طرد الفرنجة ، فانه كان يعرف ما يجب أن يكون عليه المدى البعيد لرجل يتولى الحرب فى هذه المنطقة : انه كان يرى من السياسة على مثل ذلك الرجل ألا يترك الجهاد حتى يخرج الفرنجة من الساحل ، وقد صرح صلاح الدين عن هذه السياسة فقال : لما يسر الله تعالى بملك الديار المصرية علمت أن الله أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى (١) .

وقال صلاح الدين أيضا : فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره وأتبعهم فيها حتى يهلكوا أو أموت (٢) .

وهكذا ملك صلاح الدين مصر ليقوى على الساحل وجمع القوى ليخرجهم منه ، وكان الساحل فى رأيه سورا لمصر ومصر سورا له ، واذا كانت محاربته للأمراء غلطة فان رائد العرب فى زماننا لم يقع فيها مع ما حدث فى شتى الأقاليم ، لأنه لا يرى أن يحارب عربى عربيا ولا مسلم مسلما ، ووقاه الله شر الغلط ، وأما الجهاد فلم تزل النية على مثل ما نوى صلاح الدين من تطهير الساحل وطرد اسرائيل .

خطط القتال :

ولم يعرف التاريخ من القواد الحذرين كصلاح الدين الا قليلا ، وحسبك أنه قاتل ربع قرن كامل ، وكان كثيرا ما يدنو من مرمى سهام العدو ، ولكنه لم يقهر قط قهرا يسلم من ورائه حين كان يسلم أعداؤه وهم منتصرون ، فلم يقدم على معركة الا وقد حسب لها حسابها من النصر أو الهزيمة ، فاذا أيقن بأحدهما أقدم أو تجاوز .

وقد يدهش قارىء سيرته أن يراه يدخل معركة لم يكن يريدها ، أو يترك موقعة ويتحول عنها فجأة كأنه مهزوم ، وما ذلك الا للحساب

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤ .
(٢) مفرج الكروج ج ٢ ص ٤٣٣ .

الذى افترضه والادراك الذى شعر به والنتائج التى تبينها . وكان من حذره أنه لم يعقد صلحا قط أو هدنة مع الفرنجة الا وهو خائف أن ينقضوها ، فكان يتخذ لنفسه الحيطة فى الشروط والبنود ، وكان أثناء مفاوضات الصلح لا ينقطع عن مناوشة العدو مخافة أن يكون غادرا محتالا .

ومخافة أن يخطىء حذره كان يستشير ، ولم يعزم فى الغالب على أمر الا جمع له أهل العلم والفهم به فى مجالسه الخاصة ثم التزم المشورة وتقيد بها ولو كان فيها الدمار . وقد حرضه على التزام المشورة أمر دينه فيها ورؤيته الفرنجة حين التشاور :

وكانوا يتشاورون وهم على ظهور الخيل ، واشارة ذلك أن يجتمع عشرة من قوادهم ، فاذا اتخذوا أمرا فلا بد من المضى فيه ، وأى شىء أشاروا به لا يخالفونهم ! فكيف والاسلام يرى المشورة ركن الأعمال كلها ! فاتبع صلاح الدين تعاليم دينه وقدم الآراء على رأيه ، فاذا استوى عنده الرأى بدأ القتال وحضر الوقعة بنفسه غير مخدوع بقوته وذكائه ، وانما يجعل لله نصيبه من النصرة والتوفيق .

فاذا أراد الالتحام فى معركة كبرى هجم بثقل جيشه ووزع فرقا منه على دائرة واسعة تحيط بأرض معركته ، كى يشتت أمر عدوه ويفزعه ويفرق باله ، ولئلا يجد العدو ثغرة ينفذ منها . وبهذا كان صلاح الدين قائدا عاما كأحد الأفذاذ من القواد الكبار الذين أشرفوا على المعارك الكبرى الواسعة فى القديم والحديث ، وقد أخطأ من ظنه قائد معركة ضيقة وحسب ، وانما وهم هؤلاء وانخدعوا حين رأوه لا يكاد يدع معركة الا اشترك فيها بنفسه. والأرض حينذاك كانت مبسوطة بعيدة الأطراف ولكنها كانت ضيقة متقاربة فى نظر صلاح الدين وأمام فرسانه وآلاته ، ويلاحظ ذلك من سرعة تنقله بين القلاع والبلاد والمواقع ، فبينما هو فى أقصى الشمال بالموصل اذا به أمام حلب أو فى جبال لبنان . فهذه المفاجآت من مميزات صلاح الدين ، وهى كذلك من أسباب انتصاره ورعب الفرنجة منه ، ولم يتخذ النسر على رايته الا دلالة على هذا الانقضاض .

ولعله كان يستعين فى كل موقعة بجند للعصـــابات من الجهة التى ينتقل اليها ، بخلاف الفرنجة الذين كانوا يجهلون الأرض وهم أعداؤها ، فكان تنقلهم ضيقا وئيدا ، فيحسب الجهلاء أنهم أدق نظاما وانتقالا ، ولم يكن الصليبيون يستطيعون استعانة أهل البلاد ، فبـدا تنقلهم بطيئـا ومواقعهم متقاربة .

وكان صلاح الدين يجعل جيشه كله ثقلا اذا ظن أنه ملاقى الفرنجة جملة — كما حدث فى حطين — ليأتى على عدوه جملة ، وقد أمن أن يكون منه على أطراف دائرة الموقعة أحد .

ولم يخش صلاح الدين يوما ما لاح له من كثرة العدو وحسن نظامه وعنف قتاله ، ولم ترعه الأساطيل الضخمة تصل الى الشاطىء فوجا بعد فوج ، ودول ما وراء البحر فى أوربا كلها تجتمع على ظهورها : ولقـد بلغ شاطىء عكا ذات ليلة نيف وسبعون مركبا ، فوقف صاحبه ومؤرخ أيامه بهاء الدين بن شداد يعدها ويحصيها من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس ، وهو ينظر فى وجه صـلاح الدين ليرى أثر الهول عليه ، فما رآه ازداد الا علو نفس وقوة جلد وفراغا الى التـدبير من غير حدة ولا غضب .

وكانت لدى صلاح الدين بعد ذلك خطة الحرب كاملة من الخيـل والرجال والسلاح فى البر والبحر ، أما الجو فلم يكن بعد كما صار فى زماننا ، فهول سلاح الجو لم يره ذلك الزمان ، وان كان صلاح الدين لم يبلغ فى بناء الأساطيل ما بلغ العدو فى بنائها ، وان لم يقصر .

فاذا ما كملت أجنحة الجيش وركز ثقله وأرسـل فرقا أشتاتا حول المعركة ليعمى العدو عن غرضـه بعث العيون والكشافة ، فيأتيه رجالها بأخبار العـدو : يأتيه بوصف عدته وعدده واتجـاهات سيره وأحوال اضطرابه أو انتظامه (١) ، ثم يرسل الفدائيين وأصـحاب الغارة أمامه ،

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٥ .

فينهب هؤلاء البلاد والأسواق حتى يوقع الرعب والمخافة فى قلوب عدوه . وكان هؤلاء الفدائيون من أتباع صلاح الدين خاصة ، فاذا فرض الغارة على من يشاؤه منهم أطاع ، وكثيرا ما قتل هؤلاء أو أسروا فلم يعودوا من غير أن يكون لغيابهم أثر فى نفوس زملائهم ، وكثيرا ما جرد صـلاح الدين العساكر من هؤلاء ومن قبائل البدو الى مزارع العدو فحصـدوا غلاته ، ولم يبرح هو مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم وقد خف زرع الفرنجة مما فعلوا به .

ومن رجال الغارة صنف كانوا يسمونه « لصوص الخيام » قد رتب لنهب خيام العدو والانقضاض عليها ، وكان هؤلاء جماعة من البدو وصفهم ابن شداد بأنهم كانوا اذا دخلوا خيمة للعدو وضعوا الخنجر على نحر النائم وأيقظوه وأخذوه ، فلايستطيع أن يتكلم ، وقد تكلم منهم جماعة فذبحوا ، فصار من أصابه ذلك لا يتكلم ويختار الأسر على القتل ، وقد داموا على ذلك مدة طويلة الى انتظام الصلح (١) .

ولم يلتزم صلاح الدين خطة واحدة فى كل قتال بل كثيرا ما غير خطته وطريقة قتاله ، وكان كما تطلب المعركة ، وذلك لأنه رأى الفرنجة لا يثبتون على خطة ولا يفردون آلة فى القتال ، بل هم كل يوم بآلة وكل حين على لون ، فقلدهم ثم باكرهم وسبقهم .

ووزع صلاح الدين المقاتلة على نوبات وبدل مواقفهم ، عملا بسيرة الحرب ونظامه فى الاسلام ، حتى ترتاح الفرقة المقاتلة ويأتى الذين لم يقاتلوا فتظل المعركة على قوتها وحرارتها ، ولم يهمل الاعداد الدائم لحرب العصابات ، وهو أمر لم يستطع العدو الثبات له ، لعلم رجال العصابات بأرضهم وسهولة الاختباء بوديانها وحرجاتها وصخورها (٢) .

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٥ .
(٢) أبطال الوحدة ص ٩٩ — مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥١ ، ٣٢٠ .

وفى غير المعـارك الكبرى كانت حربه أكثر ما تكون تخطيفـا من الأطراف لا التحاما فى معارك ، فكانت تفدح بذلك خسائر الفرنجة ، وكان جنده فى هذا التخطيف أقدر لمعرفتهم ببلادهم ، وأماكن الاختباء فيها .

وحرب الكمين كانت خطته المتكررة ، وقد نجحت نجاحا متكررا لعلم جنده بسواطىء أقدامهم وبالأماكن التى تصلح لها ، وقد خشى العدو هذه الخطة حتى فى ساعات انتصاراته الحاسمة ، فلم يكن يتمادى فى تتبع المنهزمين من جند صلاح الدين مخافة أن يقع فيه .

وصار افساد مياه الآبار فى طريق العدو من حيله فى الحرب ، وقد أفسد جميع ما حول القدس من مياه عند فتحه وعند الخوف من مهاجمته وهو يمتلكه ، وجرده مما حوله من مزارع ، كما أحرق القرى والمدن وهدم أسوارها حين كان يرى فى احراقها وهدمها نكاية العدو :

أحرق عسقلان وخرب الرملة والبيرة والداروم وهدم بيت الأحزان :
أما عسقلان فأحرقها لئلا يتخذها الفرنجة طريقا لقطع الصـلة بين مصر والشام ، وسنذكر أمر حريقها فيما بعد بالتفصيل . وأما الرملة فكانت رباطا للمسلمين فملكها الفرنجة ، فلما استنقذها منهم صلاح الدين سنة (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) خربها خوفا من أن يستولوا عليهـا مرة أخرى ، وبقيت على ذلك الخراب عهدا طويلا ، وكانت الرملة من طول ما أصلحته الدولتان الأموية والعباسية بها أكثر البلاد صهاريج مع كثرة الفواكه وصحة الهواء (١) . وأما البيرة التى بين القدس ونابلس فقد خربها حين استنقذها من الفرنجة (٢) ، وكذلك فعل بقلعة الداروم وكانت قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر ، والواقف فيها يرى البحر ، الا أن بينها وبين البحر مقـدار فرسخ ، خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة (٥٨٤هـ — ١١٨٨م) (٣) :
وأما بيت الأحزان فقد زعموا أنه كان بيت يعقوب النبى أيام فراقه يوسف،

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٦٩ .
(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٦ .
(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٤ .

عمره الفرنجة وبنوا به حصنا ، ففتحه صلاح الدين سنة (٥٧٥ هـ — ١١٧٩ م) وخربه ، فقال ابن الساعاتى الدمشقى :

أيسكن أوطان النبيين عصـبة ... تمين لدى أيمانها حين تحلف
نصحتكم والنصح فى الدين واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف(٤)

ومن الجدير بالملاحظة أن هـذه المدن والحصون كانت تخرب دون تدمير ما بها من الأطعمة والأكسية والذخائر ، اذ كانت تنقل ، وكان يرحل عنها أهلها بما يقدرون على حمله من أمتعتهم وأموالهم .

وقد استغل صلاح الدين الخصومات بين طوائف عدوه فجعلها من خطته لجلب النصرة ، فى ذكاء وفهم ، كما حدث فى حرب دمياط ، فقد أخذ يتصل بجماعة من عسكر كل طائفـة على مرأى من الآخر ، فزادت الخصومة بين الملك « امرى » والبيزنطيين ، وظن بعضهم الظنون ببعض ، فسهل عقد الصلح وقبلت فيه شروط صلاح الدين (٢) .

وقت المعركة :

ولقد كانت المعركة دائمة فى كل وقت ، ولم يكن لأحد الخيار ، ولكن صلاح الدين كان يؤثر وقت الربيع وأوائل الصيف فى بلاد الشام خضوعا لجوه ، اذ كان المطر والبرد يعطلان المعارك ، وحر الصيف يفزع المقاتلة ، فكان اذا طار البرد والثلج وطاب الزمان بمجىء الربيع دعا ملوك الأطراف بطلب العسكر فأجابوا وجاءوا (٣) .

وأفضل ما كان اللقاء عنده فى أيام الجمع . حقا ، انه لم يفضل يوما على يوم ، ولم يخضع لبـاطل النجوم ، ولـكنه كان يستبشر ويستنجد

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٥١٩ .
(٢) أبطال الوحدة ص ١٠٠ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٧ .

بالصلاة والدعاء اذا اجتمع الناس فى مساجدهم وصلواتهم ، ولذا فقد لوحظ أن كثيرا من انتصارات صلاح الدين على الحصون والقلاع والمدن وقع أيام الجمع . وليس معنى ذلك أنه لم يحارب فى غيرها ، بل انه حارب كل يوم وكل آن ولم يدع مهاجمة العدو عند كل سانحة ، ولم تكن الانتصارات التى نسبت الى أيام الجمع فى أيام الجمع ذاتها بل كانت فيما حواليها من أيام الخميس أو السبت فنسبت للجمعة وساعاتها دون غيرها من الأيام والساعات .

أرض المعركة :

ولم تكن هناك أرض معينة لمعركة حاسمة ، ولكنها كانت تنتقل من أرض الى أخرى ، حتى ليخيل الى من لم يعرف أرض الشام أن معارك صلاح الدين كانت مضطربة لا تسير على نظام ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فقد قسم أرض معاركه الى مناطق ، وجعل لكل منطقة خطتها وأيامها ، ثم تنقل فيها حسبما هيأ وأعد ، الا اذا كان لا بد من المفاجأة فكان يثب اليها .

ولم يكن الأمر يضطرب عليه الا اذا كان الفرنجة هم الذين اختاروا أرض الموقعة ، فكان يقع حينئذ فى صعوبات النقل والتموين والتجمع .

وفى اشتراكه بنفسه فى معارك كثيرة شبهة وقع فيها بعض الناس ، وتلك أن صلاح الدين لم يتخذ له مكانا ثابتا يدير منه على الدوام معاركه ، بل كان يتنقل ويقود أعنفها بنفسه ، فحسبوه قائدا صغيرا لمعركة ضيقة ، وقد دفعنا هذا الظن من قبل وقلنا انه كان أكبر من قائد عام .

وكما كان العدو يرغمه أحيانا على القتال فى مكان كان هو أيضا يرغمه ، بل كان ذلك من أبرع خططه . وكان يفضل أن يلقاه فى الميادين المكشوفة والأرض العراء دون القرى والحصون . ثم عود جنده الهجوم

عليها واقتحامها ، لأن الزمن كله — كما قلنا من قبل فى المقدمة — كان زمن القلاع والحصون ، وأرسل اليهم فيها مغاويره وفدائييه يلقونهم فى القرى المحصنة ويتخطون عليهم الجدر والأسوار .

وكان لقاؤه للعدو على الأرض المكشوفة ميسرا للنصر ، بل طالما قضى النصر فى المعارك المكشوفة على روح الحصون والقلاع فسلمت دون قتال ، كما حدث اثر انتصاره فى تل حطين . وسنتحدث عن هذه الوقعة — فيما بعد — بالتفصيل .

أدوات القتال :

ولم تكن أدوات القتال قد تحولت بعد الى ما صارت اليه فى عصرنا . كانت متشابهة ويسهل تقليدها الى حد كبير ، غير أن الألمان فى الحملة الثالثة كانوا قد أتوا بأسلحة ثقيلة ودبابات ، فوصف مؤرخو العرب الفرنجة لذلك بأنهم أهل صنائع وحرف ، ولهم حيل فى صنع الآلات الحربية ، ولكنا لم نقصر عن ذلك فكانت لنا الأسلحة نفسها ، وكان المخترعون العرب والمشارقة يتقدمون بكل نافع وطريف ، ومع ذلك فقد كانت لجيوش صلاح الدين القدرة على اتلاف الأسلحة الثقيلة والدبابات التى يجىء بها الألمان .

الاسلحة الثقيلة :

وأهم الأسلحة الثقيلة كان الدبابات والمنجنيقات . والسلاحان قديمان ، حارب بهما أو بأمثالهما العرب والعجم فى الجاهلية ، وظلتا بعد تقويتهما وتحسينهما من أسلحة الحروب المقدسة ، وهما لحرب الأسوار والقلاع ، وينصب منهما على المدينة حسب اتساعها ومنعة أسوارها ، وتنصبان فى الليل ، وتعمل المنجنيقات فى البر والبحر .

واهتم صلاح الدين حين مهاجمة الأسوار والقلاع بتفقـد نصبها بنفسه ، فاذا لم يخرج واصلته الرسل بأخبارها .

والدبابات — وهى سلاح قديم — قد حارب بها النبى أهل الطائف ، وكانت تتألف من طبقة أو اثنتين أو طبقات ، ويقربونها من الأسوار ، ثم يقذفون منها النفط الملتهب والأحجار الضخمة ، وهى تندفع ، وربما كان اندفاعها على دواليب ، فتدق جدران الأسوار والقلاع لتثقبها بحركتها وتوهى بناءها . ومهما اتسع وصفها فانها لا تشبه دبابات اليوم التى هى كتل من حديد ونار تتحرك وتقتحم وتدوس .

الاسلحة الخفيفة :

أما الأسلحة الخفيفة فكانت أنواعا من النشاب والنبال تختلف أسماؤها باختلاف قوتها وبعد مرماها والأقواس التى ترميها ، ولا ضرورة لترديد أسمائها وصفاتها فى كتابنا هذا ، فقد حفلت بها الكتب ووفى الكلام عنها شارح كتاب ابن واصل ، غير أننا ننوه عن نوعين من السهام والأقواس كان أحدهما من سهام البر والآخر من سهام البحر :
فالذى فى البر كان اسمه الزيارات وهى أقواس ترمى أشد السهام رميا وأعظمها جرما ، وكانت تنصب على الأبراج وتحتاج فى قذفها الى عدد من الرجال ولا يكاد يثبت أحد أمامها .

والذى فى البحر كان اسمه الزمبوركات وهى سهام تختص بالبحر لأنها طويلة ثقيلة لتكون أكثر ثباتا عند انطلاقها .

فاذا نفد النشاب والنبال التحم الطرفان بالأحجار ثم بالرماح والسيوف والمدى ، أو تشابكوا بالأيدى .

وكان من شأن كبار القادة أن يلبسوا المغافر وقمصان الزرد ، ويتقون الرمى بالتراس ، وأجود ما كان يصنع من التراس والرماح وأحكمه وأقومه

كان من صناعة الموصل ، وكانت تصل منها أيضا أحمال من النفط الأبيض (١) . أما مصانع السيوف فكانت بالقاهرة والموصل ودمشق (٢) .

ولقد تبين أن المنطقة وان لم تكن معنية باخراج الحديد بكميات ضخمة فقد كانت تستخرج بعضه وتصنعه وتكفى نفسها من السلاح الذى هو صنع أيديها ، وكان معظمه من جبال لبنان . وقد عاد لنا هذا المجد اليوم ، فقد قامت المصانع الحربية فى مصر على قدم وساق ، واستطاعت فى قليل من السنين أن تنتج كل الأسلحة الخفيفة التى تحتاجها حروب زماننا ، وتكفى لسد حاجات البلاد العربية كلها ، بل اتجهت نحو صنع الأسلحة الثقيلة والطيارات والصواريخ ، وهو الأمر الذى يمتاز به عصرنا عن عصر صلاح الدين (٣) . ومن يدرى ؟ لعلنا نسمع غدا بأننا صنعنا الأسلحة الذرية ما دمنا قد حطمنا الذرة ودخلنا فى نطاق الأمم المتقدمة فى النوويات .

فرق المقاتلة :

ولقد اشترك فى القتال مع صلاح الدين كل من كان يسكن هذه المنطقة بلا استثناء : الأتراك والأكراد والعرب والأرمن والمسيحيون المشارقة ، لم يتخلف منهم جنس ، وقد غفل بعض المؤرخين المحدثين فقالوا : ان عنصر العرب لم يكن حاضرا لأن مواهبه الحربية كانت قد تخلفت فتخلف عن القتال ، ولكن من يقرأ سيرة صلاح الدين التى كتبها أصحابه فى زمانه يجد سيرة العرب واشتراكهم فى حروبه فى كثير من المواضع ، وقد ذكرهم ابن شداد وحده فى عدة مراضع ولا سيما عند كلامه عن الفروسية والكمين وأهل الغارة فانهم كانوا يختارون فى هذه الفرق لخفتهم وفروسيتهم ، وسكوت بعض المؤرخين القدامى عن عنصر العرب

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٠ ، ٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٣٠٧ .
(٢) نور الدين والصليبيون ص ١٥٥ .
(٣) العلاقات بين العرب والافرنج ص ٩٦ .

انما هو سكوت عن الأغلب الذى لا بد من تمييز غيره ليمتاز ، وما من شك فى أن صلب حروب صلاح الدين كان عنصر العرب ، والعرب كلهم فى المشرق العربى بلا استثناء .

وقد يكون السبب فى اهمال الكلام عن العنصر العربى أن القادة لم يكونوا منهم ، فانفرد الكتاب بذكر القادة وتبع المحدثون القدماء فاغتروا بأقوالهم وساروا على نهجها ، والا فما معنى اشتراك أهل الشام وفلسطين والأردن ومصر والعراق فى حروب صلاح الدين ؟ وما معنى دفاع الاسكندرية ودمياط وبلبيس والرملة والقدس وعسقلان وغيرها ؟

وقد تألف الجيش من عسكر دائم هو العسكر النظامى التابع لصلاح الدين ، وهؤلاء يتقاضون رواتبهم بانتظام ، ثم من الجند وهم عسكر الأمراء ومجندوهم ، ثم من المطوعة وهم الذين ينفقون من أموالهم الخاصة أو من أموال من جندوهم ، ثم من المرتزقة (١) .

وقد قيل ان الجندى كان يمون بأن يحصل على ما يحتاجه فى عدة أشهر ، وكل واحد من السوقة كان يحصل ما يستطيع أن يملأ به منزلا ، وينقله معه من مكان الى آخر مرات متعددة (٢) .

وقد غلب على المحاربة أن يكونوا من المطوعة ، يذهبون الى الحرب بأموالهم ، أو بما يقترضونه من الديون ، أو بما يصيبهم من الغنائم . وكان من اليسير أن يجمع قائد أو أمير جنودا مرتزقة من الفرسان والمشاة ، للروح الدينى الذى ساد . وقد جمع أسامة بن منقذ ثمانمائة وستين فارسا لصد الفرنجة عن عسقلان بستة آلاف دينار لا غير (٣) فخص الفارس أقل من ثمانية دنانير .

(١) انظر كتاب جيش مصر ايام صلاح الدين .
(٢) النوادر السلطانية ص ١٦٦ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٩١ .

وكان الحافز الدينى يدفع الى التطوع فى الطائفتين : المسلمين والصليبيين ، ويلاحظ أن الحرية كانت ملك كل متطوع ، فهو يقوم وينصرف حسبما يرى ، ولكنه عند الاقدام يكون أشد اقبالا بمحض ارادته والدواعى الحافزة لاقباله ، وهذه الدواعى هى التى تجبره على الطاعة وقبول أوامر القادة ، وحينما تزول هذه الدواعى أو يخف أثرها فى نفسه بفعل المعركة والاحساس بالواقع الأليم فهو ينصرف بمحض ارادته كذلك ، ولا يرده عن الهرب الا مخافة رأى الناس أو رجوع القوة الى الدواعى الحافزة كما كانت عند اقدامه .

والفوضى التى حدثت فى كثير من المعارك فسببت الهزائم كانت من ذلك النظام ، ولو كانت الجندية جبرا كما هى اليوم لوقعت الانتصارات والهزائم أكثر نظاما ، ومع هذا السوء الذى رأيناه فى ذلك النظام فان حوافز الاقبال على الحرب كانت أشد جذبا للنفوس من دواعى الجبر والقهر ، وكذلك كانت البطولة أعظم والقتلى أقل عددا منهم فى الكتائب المجبورة .

وقد بدأ كثير من معارك صلاح الدين أكثر نظاما فى أوله وأكثر خللا وتشتتا فى آخره ، بتأثير العوامل التى تحكم الجندى المتطوع أكثر مما كان لسيطرة صلاح الدين .

وكتب الفقه تميز بين المطوعة والمسترزقة ، فتجعل المسترزقة من أهل الفىء والجهاد ، يفرض لهم العطاء فى بيت المال من الفىء بحسب الغنائم والحاجة ، أما المطوعة فهم الخارجون عن الديوان من البوادى والأعراب وسكان القرى والأمصار الذين خرجوا فى النفير الذى ندب الله تعالى اليه بقوله : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله (١) » .

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٩ .

وكل صنف من أولئك المقاتلة كان يتوزع الى فرق : فمنهم الفرسان ومسددو السهام وأصحاب الغارة والتجسس والعمال ونقلة الميرة والذخيرة : كل حسب مقدرته والحاجة له . ولا بد من التنويه عن فرق البدو من العرب : فهؤلاء كانوا يختارون لخفة حركتهم وامتيازهم فى تسديد السهام ، لمعيشتهم فى البادية ويسر تنقلهم من مكان الى مكان فيها ، فنفعت صفاتهم تلك الحروب .

الابطال والمخترعون :

وقدر صلاح الدين كل فرد اشتهر ببطولة أو قدم اختراعا ، وقد كافأ شابا دمشقيا يسمى « عليا » كان خبيرا بالعمل فى النحاس والكيمياء ، يعمل فى الأسطول : أحرق بمخترعه أبراجا ضخمة مخيفة للفرنجة من داخل أسوار عكا ، كانوا قد جاءوا بها لأول مرة فأرعبت الناس ، ولكن الشاب الدمشقى أبى أن يأخذ من صلاح الدين لقاء عمله فى سبيل الله .

وقدر صلاح الدين البطولة فى عدوه ، وحين سلمت اليه قلعة من قلاع أنطاكية أحضر بين يديه صاحب القلعة — وكان قد دافع عنها دفاعا مجيدا — وكان من أكبر أعدائه ، فمن عليه وأعتقه وأعتق سبعة عشر من أهله وسيرهم الى صاحب أنطاكية ليستميله اليه .

وقد كافأ صلاح الدين أصحابه الأوفياء الأبطال فلم يتركهم طول حياته ، والأمثلة على ذلك تفوت الاحصاء .

بطولة بيروت :

ولم تنحصر البطولة على عهده فى قوم دون قوم أو بلد دون بلد ، وكان ما فعله الشاب الدمشقى من ابائه المكافأة على مخترعه أقل الأشياء فى باب البطولة تلك الأزمان . واذا كان لقوم من ميزة فى بطولة الجهاد هنالك فقد كانت لأهل بيروت .

البحارة الابطال :

فقد كانت بيروت أرسلت مركبا عظيما وشحنته بالآلات والرجال ، وكانوا زهاء ستمائة وخمسين رجلا من رجالها الأشداء ، كان صلاح الدين قد أمر بتعبئته وتسييره الى عكا من بيروت ليطبق على العدو مع أسطول مصر . فانحدر المركب سريعا فى البحر مستترا بظلام الليل جاهدا فى الطاعة والابحار فبلغ سريعا مياه عكا .

وما كاد يدنو من مياهها حتى كان العدو قد فطن له وأرسل أربعين مركبا حربيا من خفاف مراكبه فدارت حوله وأحاطت به وقذفته بالنيران .

وفوجىء المركب البيروتى بما رأى فلم يذهل ولم ييأس ، ورأى ألا يسلم دون قتال مرير يكون مثلا مضروبا لكل مقاتل فى البحر والبر ، بل رأى ألا يسلم مهما بلغ الأمر ، فجعل يطلق سهامه ونيرانه على العدو فى كل الجهات وعلى كل مراكبه الخفيفة ، قد تفرق بحارة بيروت على سطح مركبهم العظيم وتولى كل فريق منهم جهة وقتالا .

ورد المركب على الأربعين بمثل ما فعلت ، واستطاع أبطال بيروت أن يجدلوا من عدوهم على ظهور سفنه خلقا كثيرا ، ويسمعوا زعقات الألم وصرخاته تغلب صوت الهدير والأمواج والقذائف والسهام .

ثم تكاثر العدو وضيق الخناق على أبطال بيروت ، ثم ما زال يضيق الحصار حتى أوشك أن ينال المركب وينال بحارته ومقاتلته ، فلما رأى قائد المركب « يعقوب الحلبى » ذلك وكان شجاعا مجربا ، وأيقن أن الغلبة كائنة للعدو لا محالة أقسم ألا يموت الا عن عزة وأنفة ، فأمر رجاله أن يأخذوا بمعاولهم فى مركبهم هدما وتدميرا .

وكان البحارة شجعانا مقاديم ، فاستجابوا له ، ولم يلبث الماء أن تدفق الى المركب من الثقوب التى خرقوها وأوسعوها ، وأخذ المركب يغوص فى الماء ، وما هى الا برهة حتى غاب فى قرار البحر قبل أن تصل اليه والى

بحارته النبلاء أيدى الأعداء . ولم ينج من شجعان بيروت رجل ولا آلة ولا ميرة ، ولم يظفر منهم العدو بشىء (١) .

هذا ولم يزل عرب بيروت كما كانوا بالأمس أبطالا ميامين ، وما حدث منهم فى المواقف الوطنية شىء يجل عن الوصف والحصر ، وكما أقبل آباؤهم على صلاح الدين وجهه أقبل أبناؤهم اليوم على حب رائد العروبة حبا ليس عليه من مزيد .

الاسـطول :

أشرنا فيما مضى الى أنه كان لصلاح الدين أساطيل تصنع مراكبها فى « المَقْس » وهى ميناء قديمة على النيل ، قد طرح النيل عليها أرضا فصارت آهلة بالسكان اليوم ، وكانت فى محلة باب البحر قريبا من محطة باب الحديد بالقاهرة ، وكانت السفن تدفع منها الى النيل ثم تصل منه الى البحر الأبيض من دمياط أو رشيد ، كما كانت السفن تصنع فى دمياط والاسكندرية (٢) وعلى ساحل الشام عند عسقلان أو بيروت .

وكان على أسطول مصر « حسام الدين لؤلؤ » ومن مقدميه « عبد السلام المغربى وبدران الفارسى » وعلى أسطول بيروت «يعقوب الحلبى» . وكانت قطع هذه الأساطيل تروح من اللاذقية الى أقصى ما امتلك صلاح الدين من ساحل أفريقية ، وأحيانا تقصد جزائر البحر وتقف للعدو بها .

وعلى الأسـطول غير القتال أن يراقب الشاطىء اذ كانت مراكب الفرنجة تسير موزعة السلاح والأموال على فرنجة الشاطىء ، فكانت قطع المراقبة تتصدى لها وتكسرها . وعليه أيضا أن يحمل الأزواد لمدن الساحل اذا نفدت منها ، أو توصلها اليها لتدخرها بها للوقائع القادمة أو الحصار المنتظر . وقد كثر ذلك التزويد فى فصول الشتاء استعدادا لحروب الربيع

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٩ .
(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٢ .

والصيف . وعلى الأسطول أيضا أن تغير قطعه الصغيرة الملحقة بمراكبه الكبيرة على سفن العدو الراسية فى الموانى فجأة وتحرقها (١) ، وكأنها زوارق « الطوربيد » اليوم .

وقد وكل الى حسام الدين لؤلؤ قائد البحر المصرى أن يحمى سواحل البحر الأحمر أيضا ، فقاد بنفسه قطعا من أسطوله كان قد عمرها الملك العادل أبو بكر نائب أخيه صلاح الدين فى مصر فى جهة « عيذاب » على البحر الأحمر فكان « لؤلؤ » مظفرا شجاعا (٢) ، وسنعرض فيما يأتى الى مقاتلته صاحب الكرك الفرنجى فى هذا البحر ودحره أسطوله ورجاله.

وسلاح الأسطول كان أهمه الزراقات ، وهى أنابيب تنبعث منها نار النفط مع رعد ودخان كثيف فتحرق السفن ، وقد اشتهر أسطول صلاح الدين ولا سيما عند عكا بأمهر الزراقين .

وقد مرنت أساطيل صلاح الدين على حرب البحر ، ولو كان قدر لها أن تعيش فى البحر وتنمو لكان للشرق اليوم ما للفرنجة من أساطيل . وعرف بحارتها بالحيل والمكر ، وكان من مكرهم اذا رأوا مراكب العدو قد قربت منهم أن يلبسوا زى العدو ويحلقوا لحاهم ويرفعوا أعلامه ويضعون على صدورهم وسطوح السفن علامات الدول الفرنجية ، ولايتكلم منهم أحد الا من يعرف لغة أجنبية حتى تمر مراكبهم بسلام (٣) . ويفهم من هذا أن مراكب البحر كانت متشابهة الصنع فى ذلك الزمان ، ولم تكن عليها فى بنائها علامات مميزة ولا أشكال تعرف بها .

ومهما قوى أسطول صلاح الدين وتشابهت سفنه بسفن الفرنجة فان وقوع الساحل كله تقريبا فى يد الفرنجة ، واستيلاءهم على جزر البحر ، ولا سيما قبرص ، كان من أسباب كوارث أسطوله . وزاد الكوارث أن

(١) ابطال الوحدة ص ٩٩ .
(٢) ذيل النوادر ص ٢٨١ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٣١ .

أساطيل الفرنجة كانت متعددة متتابعة ، لا يفنى لها مدد ، ومع هذا كله فقد كان بالامكان العمل على تقوية الأسطول باستمرار ، ولكن انقطـاع العرب والمسلمين عن البحر مدة طويلة قد أعاد أحيانا صورة البحر مخيفة للناس حين انقطعت سيرتهم عن تاريخهم أيام الأموية والعباسية الأولى ، وعاد الناس حتى عقلاؤهم يخافون البحر :

قال ابن شـداد — حين رأى البحر لأول مرة — : انه لو قال لى قائل : ان جُزْت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيـا ما كنت أفعل ! واستسخفت رأى من ركب البحر رجاء درهم أو دينار !

حقا ، ان هذا لم يكن رأى صلاح الدين ، فقد كان يتمنى اذا ملك الساحل أن يركب البحر حتى يرد عن جزائره — القريبة على الأقل — جيوش الفرنجة ، ويُلجئها الى بلادها . وقد حدث ذات مرة بينه وبين قاضيه ابن شداد حوار فى هذا ، فقال القاضى :

ان البحر سور الاسلام ومَنَعَته ! — وكأنه كان متأثرا برأى عمر ابن الخطاب حين رأى ألا يفصل بينه وبين جيوش المسلمين بحر — فلا ينبغى لك يا مولاى أن تخاطر بنفسك !

فقال صلاح الدين :

أنا أستفتيك : ما أشرف الميتتين ؟

قال :

الموت فى سبيل الله .

فقال صلاح الدين :

غاية ما فى هذا الباب أن أموت أشرف الميتتين !

الوقائع والحروب

- وقعة البابين
- وقعة دمياط
- حملة على الاسكندرية
- أمر الكرك والشوبك
- وقعة مرجعيون
- معركة حطين
- فتح بيت المقدس

وقعة البابين :

كانت معركة البابين أول معركة حضرها صلاح الدين كقائد ثان مسئول فى حرب ، وكانت فى صعيد مصر جنوبى مدينة « المنيا » ومن الممكن أن يقال انه جرب نفسه فيها لأول مرة فاطمأن اليها واعتمد عليها ، ولعل مهارته فيها كانت عود الثقاب الذى أشعل افتتانه بالحرب ، وان كان حصاره بالاسكندرية بعدها قد خذله بعض التخذيل .

كان « شيركوه » أسد الدين لما زحف الى مصر قبل الفرنجة الذين استنجد بهم شاور السعدى ليعينوه على شيركوه قد عبر النيل عند الجيزة ثم اختار مكان الموقعة عند البابين بين النيل والجبل ليحتمى الجناحان بمواقع طبيعية منيعة (١) ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين على القلب والميمنة وبقى هو على الميسرة ، وفى خطط الحروب التقليدية أن يكون القائد الأكبر على القلب ، فبدل شيركوه الخطة ليخدع العدو .

ولحق به الفرنجة فوجهوا هجومهم على القلب ظنا منهم أن شيركوه يقوده لتكون الضربة حاسمة ، فتراجع صلاح الدين — حسب خطة مقررة — بالقلب والميمنة كأنه منهزم فتبعه « امرى » قائد جيش الفرنجة ظنا منه أن تراجعه انهزام ، واستمر صلاح الدين يتراجع والفرنجة يتبعونه بثقل جيشهم حتى صارت مؤخرتهم أمام الميسرة التى لم تتحرك وعليها شيركوه ، فلما صار جيش الفرنجة أمامها تحركت لتعترض طريق تراجعه .

وحين ذلك ارتد صلاح الدين مطبقا على الفرنجة من الأمام وعمه من الخلف فانحصر الفرنجة واستسلموا للضرب والموت ، وأسر قائد قلب العدو وقائد ميسرته ، ونجا « امرى » القائد العام فارا مع من استطاعوا الفرار ، ولم يلق شيركوه فى استيلائه على غنائم الفرنجة أى مقاومة .

---

(١) نور الدين والصليبيون ص ١١٤ — ابطال الوحدة ص ٨٢ .

وأعجب ما حدث فى هذه الموقعة أن ألفى فارس مع شيركوه وصلاح الدين هزمت عساكر شاور وفرنج الساحل معا ، وكان فرسانهم أضعاف فرسان شيركوه . ولعل صلاح الدين خرج من هذه الموقعة وقد وثق بنفسه وكفايته — وليس مثل الثقة يُرزقها المرء فى نفسه بلا غرور — وكان له أن يثق لأنه ظفر وانتصر .

ولكن صلاح الدين ما لبث حين مضى الى الاسكندرية ببعض العسكر وترك عمه بالصعيد أن وقع محاصرا بها ، وظل لا يستطيع فك الحصار مدة ثلاثة أشهر ، وفى هذه الشهور تعلم أقسى دروس الحصار ، فلم يقع بعد طول حياته فيه سوى ما حدث فى بلبيس ، ولكنه كان مع عمه ، ولم يكن كحصار الاسكندرية .

حاصره بالاسكندرية الفرنجة والمصريون من أتباع شاور ، وعاونه على فك الحصار المصريون الأحرار من أهل الاسكندرية وأعداء شاور ، وعرف صلاح الدين متاعب الحصار وأثره فى الجند والأهلين ولا سيما اذا تأخرت مواد التموين ، ولكنه عرف أكثر من ذلك وأهم : عرف شعور أحرار الاسكندرية نحوه ونحو نور الدين أو نحو المدافعين بايمان وصدق عن أكبر ثغور المسلمين ، كما أسف وحزن لأن يجد هؤلاء الأحرار اخوانا لهم من المصريين يحاربونهم مع شاور ويقذفونهم بالنار والنبال ولكنهم كانوا مسوقين . وقد نفعه هذا الدرس فى حصار دمياط الذى جاء بعد ، ولكنه أثر فيه أثرا بالغا فكان يود ألا يعود الى مصر أبدا .

وفى زماننا ، هل يعد حصار الفالوجة شبيها بذلك الحصار ؟ أظنه كامل الشبه به ، اذ ذاق فيه المحاصرون ويلات الحصار مائة وثلاثين يوما عرفوا فيها حاجتهم الى المؤونة والذخيرة ، ثم خرجوا بعدها كاملى العدة فى فهم حاجات المحاربين ومطالب الحروب ، واشتقت من الفالوجة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م وتوالت انتصاراتها ، كما توالت انتصارات صلاح الدين بعد حادثة الاسكندرية وتعلمه منها دروس الحصار .

ولم يكن حصار الاسكندرية أول حصار شاهده صلاح الدين فى حياته ، ولكنه شاهد وهو شاب حصار الفرنجة لدمشق أيام نور الدين ، وكان أبوه أيوب حاميها والمدافع عنها وكان يعمل تحت تدبيره ، فاتخذ أيوب من حيطان الغوطة خطوطا مجيدة للدفاع عن مدينته ثم انصرف الفرنجة دون فتحها فكانت بداية علمه بدروس الحصار (١) .

وقعة دمياط :

كانت وقعة الاسكندرية وصلاح الدين يعمل تحت راية عمه شيركوه لحساب نور الدين ، فلما صار صلاح الدين وزيرا للعاضد — وكان قد ذاق من الفرنجة ما ذاقه فى وقعة البابين وفى حصار الاسكندرية — رأى أن يبدأ جهاده ضدهم حين تم له نصف الأمر ، أى حين صارت له مصر ، أو يلقاهم — على الأقل — من الجنوب حين يلقاهم نور الدين فى الشمال ، فبدأ يشن الغارات عليهم وينازلهم بسرايا من جيشه على طريق الشام عند الكرك والشوبك وغيرهما .

وكما كان استقر فى نفس صلاح الدين من أنه لا بد من امتلاك الساحل كان الفرنجة يرون رأيه ويعملون له ، ورأى الطرفان أن مصر تمكن للمستولى عليها أن يؤثر فى امتلاك الساحل أو زعزعة أمر من يستقر فيه كلما شاءت مصر . فلما استقر الأمر لصلاح الدين بمصر وصار وزيرها خاف الفرنجة على ساحلهم فاجتمعوا هم والروم فى سنة (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) وساقوا أساطيلهم البحرية مجتمعة الى دمياط فى نحو ستين سفينة من مختلف السفن تحت قيادة « كونستفانوس » البيزنطى (٢) ، وحشدوا بها كل آلات الحرب والمجانيق والدبابات وآلات الحصار ونزلوا بها الى البر .

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) نور الدين والصليبيون ص ١٣٥ — أبطال الوحدة ص ٩٦ .

وحتى لا يستطيع نور الدين معاونة صلاح الدين فى دمياط ساق الفرنجة جندا منهم فهاجموا حصن عكا واستولوا عليه من أحد مماليك نور الدين وكان قد ولاه عليه ، وظنوا أنهم فائزون ، فقد شغلوا نور الدين وغابت عنهم كفاءة شيركوه العسكرية بعد أن مات ، وبين الشام ومصر جفوة وقد حان لهم أن يستغلوها .

ولكن الجفوة وسقوط حصن عكا لم يؤثرا على نور الدين فأرسل من فوره أعدادا من الرجال والفرسان والميرة والسلاح الى دمياط ، وأخذ يناوش الفرنجة فى عدة حصون ببلاد الشام حتى يخفف من وطأتهم على دمياط ، وألهب نور الدين ظهور بلادهم وحصونهم بالغارات (١) .

أما صلاح الدين فكان قد سبق أسطول العدو الى دمياط وشحنها بالرجال والسلاح والميرة ، ولم يهمل شيئا مما كان أهمله فى الدفاع عن الاسكندرية من قبل ، ثم لم يلبث المسلمون والمصريون حين أحكموا أمرهم أن أطبقوا على الفرنجة من داخل دمياط ومن خارجها ولم يمكنوهم من استكمال استعدادهم للزحف ، فهزم الفرنجة شر هزيمة ونهبت أموالهم وعدد الحرب التى حملوها وحرقت المنجنيقات الضخمة التى كانوا ابتدءوا فى نصبها ، وزاد هذا النصر لصلاح الدين تأييدا فى مصر ، وزاد له فى سمعته الطالعة تمكينا .

وكأنما عاد حادث دمياط بعد ثمانية قرون فى شاطىء « بور سعيد » ولقى الفرنجة هنا ما لقوا هناك ولم تعظهم الحوادث ولا القرون ، فمن حيث تمت الهزيمة عليهم زاد نصر الرائد العربى تأييده وزاد فى سمعته الطالعة عزا وتمكينا .

ومن الحق أن يعترف لنور الدين وللعاضد بفضلهما فى هذا النصر ، فقد اشترك نور الدين بجند الشام فى المعركة ذاتها ، ثم نزل هو بجند آخر على الكرك وحاصرها فشتت قوى الفرنجة وخفف عن صلاح الدين (٢) .

(١) دول الاسلام ج ٢ ص ٥٦ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢ .

ما الخليفة العاضد فقد بذل أموالا عظيمة لصلاح الدين أعانته على النصر فى المعركة ، ومع أن صلاح الدين كان قد أصبح وزيرا متحكما لا يرد أمره فى شىء فقد أقر بفضل العاضد فقال : ما رأيت أكرم من العاضد ! أرسل الى مدة اقامة الفرنجة على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها (١) .

وفى اثر هذا الانتصار رأى صلاح الدين أن يقلد أباه أمر الوزارة فأبى مفضلا أن يكون فى معونة ابنه خازنا على بيت المال حتى مات العاضد ويقول ابن خلكان : ان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يريد أن تكون قصته مع أبيه مشاكلة لقصة يوسف الصديق ابن يعقوب عليهما السلام (٢) .

حملة على الاسكندرية :

ولم تردع الفرنجة هزيمتهم فى دمياط ، وطمعوا فى صلاح الدين حين صارت له مصر والشام وتوزع جنده على كثير من المواقع والحصون ، وأصيب ببعض المتاعب عند الكرك والشوبك ، فعاودوا سنة (٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م) مهاجمة الاسكندرية ، وكانت قد وقعت فى مصر بعض الأمور التى تحدثنا عنها فى باب سياسة السلطان من قبل ، فظن الفرنجة أن الساعة قد حانت فداخلهم الطمع وجردوا حملتهم البحرية فى سفن كثيرة قدرت ما بين الثلاثمائة والستمائة من مختلف قطع الأساطيل وزحفوا على الاسكندرية فى ثلاثين ألفا أو قريبا منه .

ولكن حرب دمياط كانت قد علمت صلاح الدين وعلمت المصريين أسباب النصر ، فحشد صلاح الدين بالاسكندرية الرجال والسلاح والميرة وتهيأ عسكره وأهل الاسكندرية للقاء الغزاة ، ولم ينس صلاح الدين

(١) ذيل النوادر ص ٢٦٢ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٣٣ — وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٣ .

دمياط مخافة أن ينزلق اليها أسطول العدو اذا رمى صلاح الدين بثقله فى الاسكندرية (١) .

فلما جاء أسطول العدو ونزل بعضه الى الثغر لم يجد بعد ثلاثة أيام الا هزيمة نكراء بعد أن استنفد الفرنجة ما لا مزيد عليه من فنون القتال ، فارتدوا عن الاسكندرية بعد أن خلفوا وراءهم غنائم لا تحصى وآلات عديدة من أحسن آلاتهم فى الحروب .

ولئن كان لشيركوه شركة وفضل مع صلاح الدين فى موقعة البابين وحصار الاسكندرية الأول فان صلاح الدين قد انفرد ببطولة دمياط وحصار الاسكندرية الثانى ، وصار ينفرد وحده بالمجد والذكر .

أمر الكرك والشوبك :

الكرك اليوم اقليم فى الأردن فى مكان جنوبى القدس الى الشرق خلف بحيرة لوط ، وكان بالكرك قديما حصن منيع يشرف على طريق الحج والتجارة . والشوبك فى جنوبى الكرك على الطريق نفسه ، وكانت به قلعة حصينة كذلك ، وموضعهما من الطريق يدل على قيمتهما فى التحكم فى الطريق بين مصر والحجاز من ناحية والشام من الناحية الأخرى .

والمنحدر من الشام الى الحجاز أو مصر اذا فاته أن ينحدر أمام الكرك انحدر فى الشوبك ، والصاعد كذلك ، يتولاه الشوبك فالكرك ، كلاهما قد رقد خلف الآخر واستعد لكل عابر ، ومن قلعتيهما — غير قطع الطريق — مدد السلاح والميرة للفرنجة فقد كانتا مخازن له . ولم يصر لقافلة أن تسير من هناك فتنجو الا اذا رافقتها قوة ضاربة ، وكان على صلاح الدين نفسه أن يترك دمشق أو يترك القاهرة ليرافق كل قافلة يريد

(١) صلاح الدين الأيوبى وعصره ص ٨٩ .

لها أن تمر من هناك (١) . فأراد أن ينهى أمر هذا الممر الشائن لتتصل البلاد وتأمن السابلة وتمر القوافل .

ولم يكن هناك طريق يصل بين الشمال والجنوب غير هذا الطريق الا من جانب الساحل ، عند عسقلان ، وكانت عسقلان أيضا فى يد الفرنجة تقوم بعمل الكرك والشوبك فى قطع الطريق ، ففكر فيها صلاح الدين أيضا ولكنه أجل أمرها لأنها محمية بالأساطيل . وهذا الممر الشائن من ساحل البحر حتى حدود الأردن تحتله اسرائيل اليوم ، قد عاد الأمر الى ما كان .

وكان على الكرك والشوبك فرنجى مقاتل عنيد اسمه البرنس « رينولد » سماه العرب « أرناط » فتوجه اليه صلاح الدين بجنده فى أول غزوة جدية أرادها وحاصره وناوشه ، ولكن الحصار والمناوشات لم تنته بطائل ، فارتد صلاح الدين عن حصاره وفى نفسه غيظ كبير ، ولكنه عزم عزما قاطعا على أن يؤمن الطريق .

والحق ان نور الدين محمود كان له السبق فى مناوشة صاحب الكرك ، فقد حاصره سنة (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) ونصب على قلعته المنجنيق وطلب الى صلاح الدين أن يوافيه عندها فامتنع خوفا من أن تضطرب مصر عليه فبقى واعتذر لنور الدين (٢) .

وبدا للفرنجة بعد هزيمة منى بها صلاح الدين عند الرملة سنة (٥٧٣ هـ — ١١٧٦ م) وأسر عدد من رجال غاراته منهم صديقه الفقيه عيسى الهكارى — بدا لهم أن يحاربوا المسلمين المجتمعين عند « عين جالوت » ولحقت بهم أمداد الكرك والشوبك ، وكان صلاح الدين فى حلب فانحدر مسرعا الى دمشق فبيسان ولحق بأمداد الكرك والشوبك فى طريقها ونازلها من فوره فقتل منها مقتلة عظيمة ، وأسر زهاء مائة من

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣ .
(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٥٦ .

رجالها . ويقول مؤرخو المسلمين ان صلاح الدين لم يفقد فى هذا الاشتباك غير رجل واحد اسمه « بهرام الشاووش » فاذا كان الأمر كذلك فقد أخذ صلاح الدين عدوه على غرة وأوهى قوة عدوه « أرناط » .

وقد حاول صلاح الدين أن يجر الفرنجة جميعا الى معركة فاصلة هناك ، وبذل من الحيل والتعميات كثيرا فلم يمكنوه من اللقاء ، وتركهم متظاهرا أنه يقصد الطور لعلهم يدعون أماكنهم التى تحصنوا بها فيرجع اليهم فلم يدعوها ، فرجع اليهم وسايرهم من « صفورية » الى « عين جالوت » وكان كلما دنا منهم بجنده تداخلوا وادغموا فحمى فرسانهم رجالتهم وحمى الرجالة الفرسان دون أن يلتقوا به أو يمكنوه .

ومهما يكن صلاح الدين قد عاد من عين جالوت منهوك القوى فارغ الزاد فقد أجهد العدو ونال منه وخرب بعض حصونه وقراه ، ثم عاد حتى يستجم المطوعة ويستعد للقاء أشد وجيش أكبر لازالة هذه العقبة الكؤود من الطريق .

وكذلك عوض أسطول مصر كل الخسارات التى منى بها صلاح الدين : فقد كان صاحب الكرك قد طغى وجاوز حده فأعد فى سنة (٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م) أسطولا عند أيلة بالبحر الأحمر وسير فيه فرقتين : فرقة على حصن أيلة تحاصره ، وفرقة سارت نحو «عيذاب» تفسد فى البحر الأحمر ، فبغتت المسلمين ، ولم يكن المسلمون قد عهدوا بالبحر الأحمر فرنجة قط ، ثم مضت نحو « رابغ » تريد الحجاز لتمحو مكة والمدينة ، فقد أراد البرنس أرناط أن يخلع جذور الاسلام .

فسار « حسام الدين لؤلؤ » بقطع من أسطول مصر أعدها على البحر الأحمر ، وبدأ بالفرقة التى تحاصر « أيلة » فأبادها وآفناها قتلا وأسرا ، ثم تبع الفرقة الثانية وكانت قد أمعنت مضيا فى البحر فاقتفى أثرها فلغ رابغ فأدركها بالساحل ، وهناك استيأس « لؤلؤ » فى قتالها فأمكنه الله

منها فأبادها كذلك قتلا وأسرا ، وأهدى اثنين من أغدر رجالها الى « منى » لينحرا بها ، وعاد بالأسرى الى مصر فحصدوا جميعا (١) .

ولم يهدىء ذلك كله من عناد « أرناط » فمضى فى غيه ومكره ، وصار لا يمر رجل ولا قافلة من التجار أو الحجاج الا تعرض له بالشر والقتل ، وكان أشد ما يكون غيه ومكره أيام الحج وأهل الشام ومن وراءهم ماضون الى فريضتهم فى الطريق .

وفى السنة التالية لظفر الأسطول بفرقتى أرناط استعد صلاح الدين فى دمشق ، وأرسل الى أخيه العادل نائبه على مصر أن يلقاه بجند بلده على الكرك ، وارتحل هو الى الشمال فى جولة عند آمد وعينتاب وحلب وحارم ليخفى خطته عن « أرناط » ، حتى اذا تجهز الملك العادل وسار بخلق عظيم من مصر وافاه صلاح الدين هناك بعد أن عبر الأردن وأحرق بيسان ، ولكن العدو ثبت متمكنا فى حصونه فارتد العادل وصلاح الدين عن الكرك يائسين .

وكذلك فعل صلاح الدين فى العام التالى فأطبق على الكرك من الشام وابنه الملك المظفر من مصر ، ثم ارتدا عن الحصن كما ارتدا من قبل ، ولكن بعد هدنة عقدها مع أرناط ، وكان من بنودها أن يدع أرناط قوافل الحجاج تمر دون أن يعترضها .

ولكن أرناط ما لبث أن نقض عهده فاعترض فى سنة (٥٨٢ هـ — ١١٨٦ م) قافلة مصرية عظيمة للتجارة وأسرها وأخذ ما معها فذكره رجالها بالهدنة فغضب وقتل عددا منهم . ويبدو أن الفرنجة كانوا فى ضيق لقلة الموارد ، فجعل « رينولد » أمير الكرك يهاجم القوافل مع أنه خسر فى عملياته معظم كتائبه (٢) . وعلم السلطان فطلب من صاحب الكرك اطلاق

(١) ذيل النوادر ص ٢٨١ .
(٢) تاريخ العرب العام لسيديو ص ٢٦٣ .

القافلة فلم يفعل ، فأسرها له صلاح الدين وأقسم أن يقتله لو أمكنه الله منه !

وقعة مرجعيون :

وقد يبدو أن صلاح الدين مع ما امتلك من حصون وقرى على الساحل وفى الداخل وفى الشمال — قد ضعف نهائيا عن صاحب الكرك ، وأنه لم يكسب أكثر من تردده على الحصن والرجوع عنه ببعض الغنائم فى مقابل بعض الخسائر ، ولكن صلاح الدين كان ينتصر فى معارك أخرى انتصارا حاسما هو أكثر من قيمة الكرك والشوبك وعسقلان لو لم تكن هذه الحصون قائمة تسد الطريق .

فقد حدث فى المحرم سنة (٥٧٥ هـ — ١١٧٩ م) أن رأى السلطان ومستشاروه أن يقتحموا على الفرنجة بلادهم ويستوعبوا فى وثبة واحدة ما بأيديهم من الغلات ، فرحلوا صوب اقليم « البقاع » شرقى جبل لبنان ، فالتقى بهم الفرنجة عند « مرجعيون » فى عشرة آلاف مقاتل ، وما أن التقى الجمعان حتى أسفر اللقاء الأول عن هزيمة مشاة الفرنجة ثم تبعهم الفرسان والشجعان يقعون قتلى وأسرى .

ووقع فى الأسر مقدم «الداوية» أو الهيكليين فرسان المعبد ، وكانوا فرقة من الرهبان قد حبسوا أنفسهم على الجهاد وزهدوا فامتنعوا عن الزواج والشهوات ثم تعاونوا القوة وعالجوا السلاح ، ولا طاعة عليهم لأحد (١) . وقد صارت لهم أموال وحصون أهمها ما كان بين الرقة وحلب بلاد الشام .

ووقع فى الأسر كذلك مقدم « الاسبتارية » — وهو لفظ محرف عن الفرنجية قليلا — وكانوا يسمون « ضياف الغربا » وقد بدءوا فى القرن التاسع الميلادى بايطاليا ، ثم فى بيت المقدس ، فلما اشتركوا فى الحروب

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٦٤ .

المقدسة انقلبت حالهم من علاج المرضى وايواء الغرباء فصاروا من أشد الفرق قساوة وضراوة فى الحروب والعناد .

ووقع فى الأسر « ريمون » صاحب طرابلس « وهوج القيصرى » أمير طبرية و « بولدوين » أمير الرملة ثم أصحاب جبيل وجنين ، ويافا وابن صاحب « مَرقية » وعدد كبير من خيالة القدس وعكا ما يزيد على مائتين ونيف وسبعين ، ولم يفك مقدمو هؤلاء أنفسهم الا بعشرات الألوف ومئاتها من الدنانير الصورية أو القطائع التى كانت بأيديهم واطلاق من كان لديهم من أسرى المسلمين ، وقد هلك منهم فى الأسر كثيرون منهم مقدم الداوية الذى سلمت جثته لقاء فك أسير من أسرى المسلمين .

وقد بعث صلاح الدين الى بغداد بجماعة من أسرى « مرجعيون » وتحف ونفائس فوصلت قبل أن يموت الخليفة المستضىء بقليل من الأيام (١) .

ثم انصرف صلاح الدين عن مرجعيون مفرقا جيشه الى فرق تغزو الفرنجة فى بقاع الشام كافة وخارج حدودها ، فنازلتهم هذه الفرق فى « بانياس » على أبواب دمشق ، وفى « جب جنين » بسهل البقاع ، وفى غور الأردن ، وفى بيروت ، وعلى الفرات والرها ونصيبين وسنجار وحران .

غير أن أهم ما حدث فى تلك الغزوات استيلاء صلاح الدين على قرية فى الأردن تسمى «طبرية» وكانت تابعة لريمون صاحب طرابلس الفرنجى ، وكان هذا قد هادن السلطان حين أطلقه ودخل فى طاعته ، فأرسلت الفرنجة اليه بطريركا وقسوسا ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه على ما فعل ، فانقلب معهم ورجع فعادى السلطان (٢) .

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٥ — دول الاسلام ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) ذيل النوادر ص ٢٨٩ .

معركة حطين :

وحين مكن الله لصلاح الدين فى معركة « مرجعيون » من رقاب قادة الفرنجة ورؤسائهم رأى أن يَستبْر غور المجد كله فتابع الجهاد ، ونادى فى عسكره وعساكر النواحى أن يجتمعوا لديه فى مرج صفورية ، فلما اجتمعوا سار بهم الى طبرية . وما كاد يطأ أرض القرية فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) حتى سلمت له فى ساعة من نهار ، فقد فتحها عنوة وعملت فيها أيدى الجند ما شاءت ، ولم ينج فيها مكان من الويل الا قلعتها وحدها فقد تأخرت عن التسليم .

ومنذ وقعت طبرية فى يد صلاح الدين أوشكت معركة الجليل أن تكون ، حتى يتم فيها مجد بطل المسلمين ، ثم ما لبثت أرض الجليل أن شهدت مشاهد لخسائر صليبية فادحة منذ أقبل اليها صلاح الدين يقود عسكراً جراراً مخيفاً من المسلمين يبلغ عدده ثمانين ألف محارب ، امتلك بهم طبرية فى بضع ساعات من نهار ، حيث تنحى عنها « ريموند » حاكم طرابلس الصليبى على الفور (١) .

وحيع شاهد الفرنجة مصرع طبرية العاجل الرهيب تجمعوا والتأموا فى خمسين ألفاً تحت راية « جوى » ورأى مجلس المشورة فى القدس أن يجتمع الصليبيون فى « صفورية » ، ولكن «ريموند» صاحب طرابلس — وكان قد علم باتساع الخطة التى دبرها صلاح الدين ورأى جيوشه وقوته بعينيه فترك له طبرية — خطب فى الصليبيين يقول :

« انه لأمر" ذو حماقة أن نخاطر بعساكرنا فى أرض قفر أمام صلاح الدين . وان صلاح الدين لابد من أن يرحل عن طبرية اذا لم تتقدم اليه وقد تركتها بارادتى للعدو لكى أحمى معكم مدينة أورشليم . وان طبرية اذا ضاعت فلن تضير المملكة اللاتينية بالقدس شيئاً .. وان انقاذ طبرية

---

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٨٣ .

يهمنى شخصياً أكثر مما يهمكم أنتم يا أصحاب السمو الأمراء ، فهى خاضعة لسلطانى وفيها امرأتى وأولادى وثروتى . ولكنى لا أرى ما ترونه من وجوب مهاجمتها . لأننا حين نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا فى الشرك الذى نصبه لنا صلاح الدين . وليس من غرض له الا استدراجنا الى الخروج من صفورية لمنطقة صحراوية قاحلة فى شهر تموز (يوليو) حتى نهلك فيها من العطش وحد السيف (١) .

ولكن هذا الرأى الذى يعده مؤرخو الفرنجة ممتلئاً حكمة واتزاناً لم يتقبل من القواد الآخرين ، وشكوا فى « ريموند » للمودة التى كانت بينه وبين صلاح الدين ، فصدر الأمر لعساكر الفرنجة بالزحف من فورها الى الحرب واتخذت طريقها الى طبرية لتلقى صلاح الدين (٢) .

وتحرك الجيش الصليبى فى ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ فى اليوم الثانى من حزيران (يونيو) سنة ١١٨٧ م من سهل صفورية قاصداً طبرية كأنه جبال تتحرك أو أمواج بحر تثور وتتزبد ، فلما تحقق صلاح الدين من سيرهم اليه قرت عينهُ وابتهج قلبه ليقينه بالنصر ، وبات هو وجنده فى ليلة كليالى العيد .

فلقد طالما تمنى لقاء عدوه فى معركة مكشوفة فلم يمكنه عدوه ، فحان له فى طبرية ما تمنى ، وكان صلاح الدين فارسا جرىء الجنان ، مثل ذلك العربى الذى سأله الحجاج بن يوسف يوماً أن يفسر له جرأة جَنانه حين ادعاها فقال له : أما جرأة جنانى فانى لم ألق فارسا قط الا كنت عليه فى نفسى مقتدرا ! فكذلك كان صلاح الدين قائدا جرىء الجنان وكان عليهم مقتدرا فى نفسه فبات ليلته فرحان .

وكان على « ريموند » صاحب طرابلس أن يطيع أوامر الفرنجة فسارت عساكره فى المقدمة خضوعاً لرأى الأغلبية ، وسار فى القلب جمهور

---

(١) صلاح الدين الأيوبى ص ٧٤ .
(٢) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٥٩ .

عظيم من أعيان العساكر وأبطالهم مع عود الصليب الحقيقى — كما قيل — يحمله مطران عكا ، وسار ملك « أورشليم » مع الخيالة الهيكليين وجماعة ضياف الغربا فى مؤخرة الجيش .

فلما صاروا على ثلاثة أميال من طبرية التقت مقدمتهم بمقدمة صلاح الدين ، وبدأ التناوش من بعيد ، وما كادت شمس الجمعة ثالث أيام حزيران تطلع حتى التحم العسكران التحاماً متواصلا ، ذاق فيه الفرنجة طعم موت مرير ، ورأوا فيه فنونا من القتال لا قبل لهم بها ، وبعد مقتله فظيعة فَصَل الليل بينهما فهدأ الميدان .

حتى اذا أشرقت شمس السبت فى الرابع من حزيران أسرعت مؤخرة الصليبيين وفيها ملك القدس وأشد فرسانهم وأبطالهم ، لتدرك بحيرة الجليل فأطبق عليها المسلمون من كل جهة يرشقونها بالنبال كأنها شآبيب المطر ، فدخل الملك خيمته وهو خائف مرتعب وقد وثق أن الموت قد أحاط بهم .

وكانت حرارة حزيران تلتهب فوق قضبان من الأعشاب اليابسة التى تكسو أرض المعركة كلها ، قد رمى المسلمون عليها النيران فاشتعلت وتأججت ، وكان الصليبيون قد وردوا هذه النار عطاشاً فبحثوا عن الماء وراحوا وراءه فى كل مطرح فلم يجدوه ، ووقف المسلمون حائلا بينهم وبين بحيرة الجليل .

وبعد نهار وبيل غطاهم ليل من الضيم والذل ، فلما طلع النهار التالى أخذوا بالمسير عرضاً يصعدون فى التلال العسرة قرب البحيرة فاندفعت نحوهم عساكر صلاح الدين بصيحات ترعش المفاصل . ولقد جال فرسانهم مرة ومرتين واستبسل أبطالهم وخاضوا بخيلهم فى صفوف المسلمين ، ولكن الخوف الذى ملكهم والاضطراب الذى ساد صفوفهم والعطش الذى أصابهم وأخذ عود الصليب من يد حامله — كل ذلك دفع

بهم الى اليأس والانتحار فجعل من لا تأكله النيران يلقى بنفسه على الحدائد والسيوف أو يلقى سلاحه مستسلماً لعسكر صلاح الدين .

وسرعان ما كان الفرنجة متمزقين قطعا قطعاً ، وجنود صلاح الدين تحيط بهم فرقة فرقة ، وجعلت كل قطعة منهم تذوب بين أيدى المسلمين ذوباً سريعاً ، الا قطعة واحدة كانت قد تجمعت بكامل عدتها واعتصمت بتل هناك يقال له « حطين » بين طبرية وعكا ، بينه وبين طبرية مسافة فرسخين (١) ، وما أن تجمعت هذه القطعة حتى رأت نفسها محاصرة من المسلمين والموت يتلقفها من كل جانب ، وبلغ من قُتل منهم فى ذلك اليوم أكثر من عشرة آلاف (٢) ، ولم ينج من الموت الا هارب أو أسير .

ولم يجد قواد الفرنجة الا أن يجيئوا مسلِّمين ، ومن ورائهم أعداد هائلة متهافتة على الأسر تنتظم فى حباله ، حتى لقد رؤى جندى من جنود حوران يجر فى طنب خيمة واحد نيفا وثلاثين أسيرا ، أخذهم وحده ، ونظمهم فى حبل خيمة وجرهم به لفرط ما أصابهم من الرعب والخذلان ولم تكفِ أطناب الخيام لربط الأسرى . ثم رؤى المائة والمئتان قد اجتمعوا فى مكان واحد تحت حراسة جندى واحد من جنود صلاح الدين (٣) .

ووقع فى ذلك اليوم من الأسرى ملك بيت المقدس « جوى » وصاحب جبيل وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الأسبتار ، وهؤلاء غير من قتلوا وأسروا ، وكان الصيد الثمين فى معركة حطين البرنس « أرناط » صاحب الكرك والشوبك وعدو الاسلام اللدود .

أما « ريموند » صاحب طرابلس وقائد المقدمة فانه لما لقى المسلمين ووجد بأسهم — وكان فارساً جباراً — فقد فتح له منفذا فى صفوفهم

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ .
(٢) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٥٩ .
(٣) النوادر السلطانية ص ٦٣ .

فأفسحوا له ليقطعوه وفرقته عن بقية الجيش الزاحف ، فلما وجد نفسه قد انعزل عن الجيش رأى أن يفر ففر ومعه بعض جنده الى طرابلس ، ولم يعش طويلا فقد أصابته ذات الجنب فهلك من قريب (١) .

وقد اتفق رواة العرب ورواة الفرنجة على هول الكارثة فقال ابن الأثير : ان الذى كان يشاهد عدد القتلى لم يكن يظن أن هناك غيرهم أسرى ، ومن كان يشاهد عدد الأسرى لم يكن يظن أن هناك غيرهم قتلى . وأخبر بعض مؤرخى الفرنجة أنه مر فى مكان المعركة بعد عام فشاهد عظام القتلى من الفرنجة فى أرض المعركة ما تزال آكاماً متراكية أو نثاراً مبددة ، غير ما أكلت السباع والجوارح وما ساقت المياه الى الوديان .

وكان جبل حطين ذلك الذى كسى بالدم جبلا متواضعاً ، سمى — من قبل — جبل التطويبات ، اذ صعد فيه السيد المسيح حين أنذر البشر بديانة ذات صلح وسلام ومحبة ، فأكثر من قوله : طوبى .. طوبى .. ولم يكن يُثنى فى تطويباته الا على الفقراء والمتواضعين دون الطغاة والمتكبرين .

وقد عجب بعض رجال الكهنوت من أن يكسى جبل التطويبات بالدم ، ولكنها كانت نبوءة صادقة للسيد المسيح ، اذ نكس البطاشون عليه رؤوسهم ، وأصبح الأمراء المختالون المعاندون فى ذلة الصعاليك ، وصارت الأسد الزائرة كالأغنام المبددة فى كل واد ، وأقبل على حطين مصرع طاغية متجبر لم يرع للعهد حقا ولا ذمة ولم يخش الله فى دم برىء .

وكان البرنس « أرناط » « رينولد دى شاتيون » صاحب الكرك قد أُسر فى عهد نور الدين محمود وبيع بحلب ، ثم انتصر الفرنجة فانطلق أرناط فى وقعة الرملة (٢) ، فكان جزاء المسلمين منه تكبره وتجبره واشتداد قسوته ، فكان اذا غلب لا يخفر ذمة ولا يرعى عهداً .

(١) النوادر السلطانية ص ٦٢ — ذيل النوادر ص ٢٨٩ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٤٢ .

وهادنه صلاح الدين على أن يدع قوافل السلم للحج أو التجارة تمر دون أن يعترضها ، فاجتازت به حين الهدنة قافلة مصرية تريد الحج فغدر بها وأخذها فنكل برجالها وعذبهم وأدخلهم المطامير والحبوس الحرجة ، فذكروا له الهدنة والعهد ورعاية الميثاق ، فتناولهم بالأذى وسب نبيهم بلسان بذىء ، ولعله سبه بالعربية فقد كان أوفر أمراء اللاتين الماماً بها .

وبلغ صلاح الدين كل ما فعل وقال فأخذته حمية الدين فنذر لله أن يقتله بيده ان أظفره الله عليه . فلما دارت الدائرة على الفرنجة فى حطين نصب السلطان خيمته ومر جنده أمامها بالأسرى فى أيديهم ، وجىء بالملك « جوى » وقريبه البرنس « أرناط » — كما قيل — فلقيهم السلطان فى خيمته ، وأجلس « جوى » ملك القدس الى جانبه ، وكان يلهث من العطش فأمر له السلطان بُجلاب مثلوج من نقيع الزبيب ، فشرب بعضه فأطفأ عطشه — والجلاب معروف الى اليوم بالشام ولبنان يطفئون به العطش فيطفئه من قريب — فلما رَوِى مد يده ببقية الكأس الى « أرناط » فمنعه صلاح الدين أن يشرب أمامه لأنه لم يأذن له .

وكانت عادة العرب قد جرت على أن الأسير يأمن القتل اذا أذن له بطعام أو شراب ، وجرت عادة صلاح الدين على ما كان العرب يفعلون ، فكان شرب أرناط للجرعة المثلوجة من الجلاب ايذاناً له بالنجاة من الموت ، ولكن صلاح الدين كان قد أقسم أن يقتله ان أظفره الله به ، وأقسم على ذلك مرتين .

ولم يحنث صلاح الدين فى قسمه ، ولم يهمل عادة العرب ، فان البرنس لم يشرب باذن منه ، وانما ناوله صاحبه ليحتال لخلاصه ، فقال صلاح الدين : انه لم يأذن له . ونقل الترجمان لهما ما قال صلاح الدين .

ورأى صلاح الدين أن يُبْرِىء ذمته من دمه فعرض عليه الاسلام لعله ينجيه فأبى ، فقال له صلاح الدين : أَتَرى لو ركبت أنا رأسى وسلكت مسلكك ثم وقعت أسيرا فى قبضتك فأى المواقف يكون موقفك

منى ؟ فأجاب أرناط فى غلظة وغفلة وقحة : أقطع رأسك دون تردد ! فانتفض السلطان وصاح به : يالك من وقح ! أفى خيمتى وتحت رحمتى تجيبنى بهذه اللهجة (١) ؟ ثم تقدم منه وسل خنجره وضربه ضربة حلت كتفه ، ثم أشار الى الحراس أن يجهزوا عليه ، فأخذته السيوف ، ثم طرحت جثته خارج باب الخيمة .

ولم يعتب أحدٌ على جزائه فقد رآه كثير من المؤرخين أشد زعماء اللاتين مغامرة وأكثرهم تعديا ونقضا للعهود (٢) ورأى بعضهم أن مغامراته كانت الثغرة التى سببت انهيار المملكة اللاتينية فى القدس أو عجلت بانهيارها . وطالما أنذره صلاح الدين وطلب منه ارجاع ما اغتصبه من قوافل التجار والحجاج فتمادى ولم يأبه فكان عقابه الخلاص منه (٣) .

ولما رأى الملك قتل أرناط فزع على نفسه فأمنه صلاح الدين وطيب خاطره اذ لم يجن جناية أرناط وان كان عدواً ، وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فانه تجاوز حده فلقى ما لقى . وكأن قولة صلاح الدين فى عادة الملوك ألا يقتلوا الملوك قد جرت الى زماننا وفى مصر وحدها فقد تُرك فى مصر ملك مخلوع دون أن يمس بالأذى وودع بالحفاظ عليه وعلى ماله الذى يحمله ، وكأنما جرى عليه حكم صلاح الدين وكان حكما كريما نبيلا .

حتى اذا انتهى صلاح الدين من أمر أرناط أمر أن يؤتى بالجماعات المتعصبة المعاندة من فرسان الداوية والاسبتارية فمروا بهم قدامه وهم فى كبول الحديد فصرخ فيهم قائلا : أريد تطهير الأرض منكم . ثم سلط عليهم الفرسان فأخذوهم بظبات السيوف وطرحوا أجسادهم كل مطرح .

وهكذا قضت وقعة حطين على قوى الفرنجة التى تجمعت حول التل ، وتخطت فى سرعة مذهلة ذلك المكان الى كل الأمكنة حوله من قريب

(١) صلاح الدين الأيوبى ص ٧٨ .
(٢) تاريخ العرب المطول ص ٧٦٦ .
(٣) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٥٨ .

أو من بعيد ، ولم يصب الفرنجة ولا وقعت بهم كريهة منكرة منذ خرجوا الى الشام فى سنة (٤٩١ هـ — ١٠٩٦ م) أشد وأدهى مما وقع بهم فى حطين (١) .

وأحس المسلمون بقوتهم ولم يضيعوا نصرتهم فى زهو أو خيلاء ، فمضوا تحت راية قائدهم العظيم فأزالوا الحامية الفرنجية من قلعة طبرية ، ثم مضوا الى عكا فاحتلوها وأنقذوا منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، واستولوا على ما فيها من أموال وذخائر ، ووقعت فى قبضتهم متاجر ضخمة لا تعد صنوف بضائعها ، فقد كانت عكا موطن تجارة ومرفأ بضاعة وتصدير .

وتفرقت العساكر على الساحل وفى الداخل ، فسقطت فى أيديهم الحصون والقلاع ، واستولوا على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة ثم قصد السلطان « تبنين » فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور (٢) فاحتلها ثم مضى الى صيدا فأذعنت له ثم الى بيروت فأذعنت وأسلمت اليه القيادة .

وكر صلاح الدين راجعا من طريق الساحل عابرا بعيدا عن « صور » لتجمع عساكر الفرنجة بها ، فوطىء أرض فلسطين بالرملة فالدارون فعسقلان ، ثم أجلى الفرنج عنها واحتلها بعد أن احتلوها خمسة وثلاثين عاما (٣) . وقصد بعض جنده القلاع حول القدس ثم احتلوا غزة والبطرون وبيت جبرين (٤) .

وقد بدت عظمة صلاح الدين فى القيادة فى فتوحه بعد حطين ، اذ قسم جنده أقساماً : فسار ثقل جيشه معه يطوف الساحل جنوباً حتى

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٠ — معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ .
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ١٤ .
(٣) النوادر السلطانية ص ٦٥ .
(٤) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٨ .

عسقلان ليؤمن طريق مصر من الساحل ،فيما عدا صور ، واتجهت فرقة من جيشه الى الساحل الشمالى من صيدا حتى جبيل قرب طرابلس ، واتجهت ثالثة من الناصرة عرضا حتى غزة ، وأما مصر حتى اليمن والشام حتى آمد والموصل فكان قد أمنهما من الداخل منذ عهد بعيد . وبذلك طهرت منطقة القدس أو كادت تطهر من الأعداء (١) ، وبات الأمر أمر صور وبيت المقدس ، أما الكرك والشوبك فقد قتل عنهما أرناط وتوشكان أن تسلما .

فتح بيت المقدس :

كان المسلمون قد أهملوا العمل ، حتى علماؤهم أهملوه ، ولجأ ألوف منهم من مختلف الآفاق الى بيت المقدس يعيشون فيه ويجاورون المسجد الأقصى ، فعادت للمسجد الجامع أبهته وتم رواؤه من حيث تعطلت مرافق كثيرة فى البلدان بسبب هذه الأبهة وهذا الرواء .

ولم تجد العبادة هؤلاء نفعاً حين تركوا أمر الجهاد فقتلت منهم مقتلة عظيمة ذهبوا من بين سبعين ألفاً من سكان القدس أبادهم الفرنجة قتلا وذبحا واحراقا سنة (٤٩٢ هـ — ١٠٩٩ م) بل امتدت أيدى الصليبيين أيضاً الى اليهود فنالتهم بالتقتيل والاحراق والتعذيب .

وصارت مملكة بيت المقدس التى انتزعها الصليبيون من الدولة العبيدية أعظم دولة للفرنجة أقيمت فى المنطقة ، وأوسعها رقعة ، اذ امتدت حدودها من شمال بيروت الى جنوبى عسقلان ، واشتملت على جميع الأراضى المحصورة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط ، كما شمل نفوذها المنطقة الشرقية للاردن والبحر الميت وبلغ خليج العقبة ، وكانت هذه المنطقة الشرقية للأردن تعرف بامارة الكرك ، ومتولى مملكة القدس يلقب ملكاً .

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٨ .

ومنذ وقعة حطين وقع فى قلوب المسلمين والفرنجة أن يوم القدس قد حان ، ولم يصبح بعيداً ، وقد هان أمر القدس ولم يبعد مخوفاً لأن معظم حاميتها قد هلك فى حطين ، ومع من صار اليها من هاربى طبرية وحطين وعسقلان وكل الحصون التى فتحت بعد حطين فان أمرها أصبح ميسوراً ، ونية فتحها باتت معلومة مشهورة وان كان صلاح الدين قد عمى خطته اذ فرق جيشه الى جهات غيرها ثم أذن لمن شاء من المنفكين من أسره أن يسيروا هم ونساؤهم وأولادهم اليها .

وكان صلاح الدين والمسلمون يرون امتلاك الفرنجة لبيت المقدس أمراً قد وسع الخرق على المسلمين ، وقد فكر فى أمره وهو فى مصر ، ولكنه رأى أنه لا يتمكن منه وهو بمصر ، لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب عن المسير ومتابعة الجهاد ، وقد جرب فهلكت القوافل عند الكرك والشوبك عدة مرات ، فرأى أنه لا يمكنه فتح البيت الا من الشام ، فرأى أن يملكها ويسوق الجند منها فيكون الفتح قريباً والحرب سهلة التموين (١) .

وما حدث فى زماننا عند العدوان الثلاثى وسحب الجيش المصرى حين ذاك من صحراء سيناء توضح حكمته تجارب صلاح الدين عند الكرك والشوبك ، فكيف وقد كان طيران الأعداء فوق رؤوس جندنا فى العدوان الثلاثى والصحراء مكشوفة واسعة المدى ، والعدو محكم خطته وغدره ، فكان الأمر بانسحاب الجيش احدى فرائد رائدنا العظيم تؤيده فيها تجارب صلاح الدين .

ووحدة مصر والشام كانت سر خوف العدو الدائم أيام صلاح الدين كما هى اليوم سر خوفه ، اذ يد الشام أقرب وأطول لتنال كل جيب فى هذه المنطقة وتقدر عليه ، وهذا سر ما قاله « سيديو » : من أن توحيد البلدين كان فيه سر ما أصاب الصليبيين من قوارع .

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩ .

وبعد وقعة حطين أصبحت آمال صلاح الدين نية واجبة التحقيق ، فقد بلغ فى المعركة أوج عظمته وانتصاره ، كما بلغ الفرنجة حضيض انهزاماتهم ، ولفظت الحملة الصليبية الثانية الروح ومعها رمق الحملة الأولى ، وتطلعت عيون المسلمين مع عينى صلاح الدين تريد القدس .

وكل ما حدث بعد حطين من تطهير انما حدث من أجل القدس ، بل كان هو الهدف الأكبر الذى يريده العرب والمسلمون منذ سقطت فى أيدى الصليبيين ، ومهما فعل صلاح الدين من اخفاء الخطة فقد وضحت ، كما أن الكتب والقصائد وحملة الدعاية فى كل مكان كشفت الخطة بالتنبؤ بالفتح والتحريض عليه ، ولا سيما كتب العماد الأصفهانى والقصائد التى أنشدت فى انتصار حطين .

والتنبؤات كلها خبط وأمانى ، وانما حظ من يتنبأ اذا جاءت الأقدار بتصديق ما قال . وقد أكثر الشعراء من التنبؤ لصلاح الدين بفتح القدس ، ولكن الذى أصاب الحظ الأكبر منهم — فيما قرأنا — انما هو القاضى محيى الدين بن زكى الدين قاضى دمشق وخطيبها بعد حلب ، اذ تنبأ بأنه يفتح القدس فى رجب ، وكان ذلك قبل وقعة حطين ، وحين فتح صلاح الدين حلب ، ففتحت فيه .

ومع أن القافية كانت تستوجب ما قال ، فقد كانت نبوءة صادفها حظ التصديق وكأنما كان القدر قد كتب ولبى : قال :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر   مبشرٌ بفتوح القدس فى رجب

فكان فألا حسناً ، ولكن لم يكن فى السنة نفسها التى فتحت فيها حلب .

وحين قضت عساكر صلاح الدين لباناتها من فتح بلاد الساحل وسقطت القرى والقلاع فى منطقة القدس اجتمعت على قائدها العظيم عند

عسقلان : اجتمع عليه منهم ما يقرب من ستين ألفاً ، عدا من انتظم فى سلك المقاتلة من النساء والصبيان — فقد حلا الجهاد ولمعت الغنائم — ولعلها أول مرة يشترك فيها النساء ، أما الصبية فطالما عاونوا فى القتال ، ولكن فى حدود ضيقة ، وكان اشتراكهم عراكاً كما سنعرض له عند الكلام على مرج عكا .

ولعل الذى منع نساء العرب والمسلمين من الحرب فى كل المواقع انما كان أمر الدين للمرأة بالاحتجاب ، والذى منع الصبيان الشفقةُ عليهم حتى يشبوا ويكبروا ، ولكن جرت فى الاسلام حوادث اضطرت القادة والأئمة الى استخدام النساء والصبيان .

فقد أمر على بن أبى طالب أن يُسَار بأم المؤمنين عائشة بعد وقعة الجمل الى بيتها فى المدينة فى كوكبة من جند النساء لم يُسير مثلها فى الاسلام ولا العرب من قبل : فى أربعين فتاة أو سبعين من بنات عبد القيس قد لبسن ملابس الجند من الرجال ، وأمرهن أمير المؤمنين أن يمضين ثم يعدن اذا وافين بعائشة المدينة (١) ، فلم يَعُدْ بعد ما فعل على كرم الله وجهه أن لا يستخدم النساء ، وعلى أصدق الناس عملا وفتوى .

أما الصبيان فان رسول الله قد أخرجهم حقاً من صفوف من أرادوا القتال معه فى بدر ، شفقة عليهم وعلى المسلمين حتى يشبوا ويكثر المسلمون ، ولكن لم يعد هناك مانع من استخدامهم حين كثر المسلمون ، وقد استخدمهم الحجاج بن يوسف فى فتح حصون فارس ، فأفلحوا وانتصروا : ففى الأغانى أن الحجاج ضرب البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان واستعمل عليهم « بلالا الضبى » وأغزاهم قلاع فارس ، وكان يقال لذلك الجيش « جيش بيبى » سمى كذلك لأن المرأة كانت تجىء ابنها وقد جُرد فتضمه اليها وتقول له « بأبى » جزعاً عليه فسمى جيش

(١) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢ — اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٠ — جعفر بن محمد ص ٨ .

بأبى ثم سهلت الهمزة الى ياء . ولعله أول نفر لكشافة الصبيان أعد فى حروب العالم . فلم يكن من بأس على صلاح الدين أو غيره أن يستخدم فى حروبه النساء والصبيان ليزيد من قوته وبأسه ، ما من ذلك ريب . وقد استخدموا فى عصرنا الى أبعد حد وجنى من وراء اشتراكهم ظفر كبير .

ونعود بعد ذلك الى ما كنا بسبيله فى فتح القدس فنقول :

فلما تم اجتماع المقاتلة من الفرسان والرجالة عند عسقلان زحف بهم صلاح الدين الى ناحية القدس ، فنزل عند جانبها الغربى فى منتصف رجب سنة (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) ولكنه لم يستقر عنده لأنه ظل خمسة أيام يطوف حوله لينظر من أين يقاتله ، فرآه حصناً ممتنعاً ، الا من الشمال عند خندق محفور ، فمضى اليه ونصب مجانيقه ورمى بها .

ثم أرسل صلاح الدين الى فرنجة القدس بكتاب يقول فيه :

« اننى أنا نظيركم أيضاً وأعرف أن أورشليم هى بيت الله ولستُ آتيا لكى أدنس قدسيتها بسفك الدماء فعليكم أن تدعوها وأنا أكفيكم أمركم وأهبُ لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون أن تعملوا فيه » .

فرد فرنجة القدس على صلاح الدين قائلين : « اننا لا نسلمك المدينة ولا نبيعها » فلم يبق الا أن يتقاتل الفريقان (١) .

ثم تقاتل الفريقان أشد قتال ، ولم يلبث الذين خرجوا من الفرنجة أمام السور أن زالوا عن مواقفهم فبلغ المسلمون الخندق وجاوزوه الى السور ونقبوه ، ثم حشوا ما نقبوا منه بالأخشاب ليحرقوه ، فلما رأى الفرنجة ذلك انزعجوا وارتاعوا وشرعوا يطوفون شوارع المدينة بالصلوات والتضرعات وسكب الدموع ثم رأوا (٢) أنهم مهزومون لا محالة وأنه لا مدد لهم من الخارج فاتفق رأيهم على طلب الأمان .

---

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٩٠ .
(٢) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٩٢ .

وكان صلاح الدين رجلا حصيفاً يرى النصر فرصة ، وقد فُتح له باب الخير فانتهزه ولم يوصده ، لأنه لا يعلم متى يغلق دونه — كما أشار حديث نبوى شريف — فمضى لفتح القدس (١) ، فحين كاتبه الذين فى القدس من الفرنجة على الأمان والتسليم قبل على الفور ، وتسلمها فى اليوم السابع والعشرين من رجب ، وكان يوم جمعة وفيه ليلة الاسراء ، ولم يفعل السلطان بأهله كما فعلوا بالمسلمين من القتل والسبى يوم فتحوه ، فحين برز البطريرك يطلب لنفسه وقومه الأمان لبى صلاح الدين .

وقطع العدو فى الصلح الذى عقد بين الطرفين على نفوسهم عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة ، وعن كل صغير من ذكر أو أنثى دينارين ، والدنانير صورية ، وذلك هو الفداء لكل من ابتغى الخروج ، فمن لم يقدر أخذ أسيراً .

وخرج العدو فحصل صلاح الدين ممن خرجوا نحواً من مائتى ألف دينار وعشرين ألفا (٢) ، وعجز كثير منهم عن الفداء فقدروا ما بين ثلاثة آلاف وستة عشر ألفاً ، ما بين رجل وامرأة وصبى ، فأخذوا أسرى .

وأنزل الصليب عن قبة الصخرة ، ومحيت التصاوير وعلقت القناديل ، ولكن كنيسة القيامة لم تمس جرياً على القاعدة التى كان اختطها عمر بن الخطاب (٣) . وصليت الجمعة فى المسجد الجامع ، وخطب لها القاضى محيى الدين بن الزكى ، وكان قد صاحب صلاح الدين من حلب فولاه خطبة الفتح ، فجمع فيها الخطيب كل تحميدات القرآن .

وكان نور الدين محمود بن زنكى قبل أن يموت قد صنع منبراً فى حلب ، تعب عليه مدة ، ونذره للقدس ، فأرسل صلاح الدين فجاء بالمنبر من حلب ونصبه فى المسجد الأقصى (٤) .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٨ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٦٧ .
(٣) دول الاسلام ج ٢ ص ٧١ .
(٤) ذيل النوادر ص ٢٩٢ .

وشاع فتح القدس فى الساحل والبلدان ، فوفد المهنئون من مصر والشام والنواحى : من كل رجل له اسم وشأن ، وقد قال بهاء الدين بن شداد : انه لم يتخلف رجل معروف عن الحضور ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل .

ثم جاءت رسل الملوك بالتهانى : رسل الروم وخراسان والعراق الشمالى وصاحب العجم السلجوقى ، جاءت كلها تهنيه ، الا خليفة بغداد ، فقد أرسل يعاتبه (١) حين خوفه مستشاروه من قوة صلاح الدين ، ولكن السلطان تلقى عتابه بصدره واسع رحب .

وكان عاما خصبا ، كثر فيه الخير وعم النصر ، فأقبل الحجاج المسلمون من كل حدب وصوب يريدون بيت الله الحرام ، فقد أمن الطريق ، وبات السعى الى بيت الله ميسورا ، فاجتمع أكثر الوافدين بدمشق ثم ساروا منها مارين بالكرك والشوبك بعد أن خلصت من شقيها العنيد .

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٩ .

بداية المتاعب

- غنائم القدس
- كسرة صور
- فتح اللاذقية
- الحملة الصليبية الثالثة
- قلعة الشقيف
- وقعة الجسر
- عند عكا
- الوقعة الكبرى
- اضطراب الأحوال
- سقوط عكا

غنائم القدس :

كانت جملة ما أخذ من بيت المقدس من مال الفداء مائتا ألف دينار وعشرون ألفاً صـــورية ، وهى أقـــل من المصرية قيمة ووزناً : وهو مال ضئيل القدر اذا قيس بما كان فى القدس من مال ، بل اذا قيس بما ترك فى أيدى الخارجين به متى دفعوا الفداء ، فقد كان يترك الرجل اذا دفع عشرة دنانير أن يمضى بمئات الألوف من المال والتحف والجواهر وغالى الأثاث دون مراقبة ، حتى سرقت أموال القدس وذهبه وجواهره بغير حساب .

وغالى صـــلاح الدين وأهله وأمراؤه كل المغـــالاة فى الاحسان ، فجمعوا مال الفداء ثم ما لبثوا أن فرقوه عـــلى الجند والأمراء والعلماء والشعراء وأهل النهبى ، وليت الأمر كان سديدا ، فقد وقف الملك العادل أخو صلاح الدين ووقف مثله الأمراء من آل أيوب ومن غيرهم يشفعون فى الأسرى فيطلقهم صلاح الدين من غير فداء ، ثم فعل هو كما فعل أهل بيته وأمراؤه ، ولم يدر صلاح الدين ولا بنو أيوب أنهم يحفرون بأيديهم متاعب الغد .

قال ابن واصل :

ثم ان كل واحد من الأمراء وأصحاب الأطراف ادعى أن جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالقدس ، فكان يطلقهم ويأخذ منهم القطيعة ، كمظفر الدين بن زين الدين : ادعى أن جماعة من أهـــل « الرها » بالقدس ، وعدتهم ألف نفس . وكذا صاحب « ألبيرة » ادعى أن فيـــه جماعة من أهل بلده من الأرمن وعدتهم خمسمائة نفس .

وجعل جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زى الجند من المســـلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطائع قرروها . واستوهب جماعة من السلطان عدداً من الفرنجة فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم .

وكان فى القدس بعض نساء ملك الروم قد ترهبت وأقامت به ، ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ولمن معها فأمنها السلطان وسيرها .

وأطلق السلطان من القدس ابنة الملك « امرى » وزوجة « أرناط » والبطريرك الكبير بما معه من أموال وجواهر وكان مقدم عسكر الفرنجة قد أخذ زينة الكنائس والذهب والفضة التى تجملت بهما دائرة قبر المسيح وضربها نقوداً فلم يبق بكنيسة القيامة شيء من جوهر أو ذهب وفضة (١) ، وقد قيل للسلطان : خذ ما معه لتقوى به المسلمين ، فقال : لا أغدر به ! ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير (٢) ، وهم الأمراء بنهب البطريرك لما رأوا معه من الأموال فمنعهم صلاح الدين وقال لهم : الوفاء خير ، وكان بها ملكا (٣) .

وقد ترك صلاح الدين كل من دفع مال الفداء يذهب الى صور بما معه من مال ومتاع ، ومنذ انتصر فى حطين وهو يدع كل هارب من كل حصن أو بلد يذهب اليها ويحتشد فيها ، وصاحبها المركيز يؤويهم ويقوى جانبه فى صور ، فاشتدت شوكتهم وحميت جموعهم .

وبعد قليل أدرك صلاح الدين أنه أخطأ ، وعرف غلطته فى تأمين أعدائه وابلاغهم مأمنهم فى صور ، وهى بلدة من مملكة القدس ، فقد اجتمعوا فيها وصاروا عليه خطراً داهماً . وهى غلطة وقى الله داعى الجهاد منها اليوم فلم يقع فيها ، فانه طرد الى خارج البلاد كل عدو عرفه أو شك فيه ، ولم يبلغ أحد" منهم مأمنا فى داخل البلاد ، لأنه يعلم أنه ربما أتى الحذر من مأمنه .

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٩١ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٥ .
(٣) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٠ .

وبدل أن يفرح صلاح الدين بانتصاره فى القدس ويستجم عض بنانه أسفا ، وشمر ساعده للقتال عاجلا قبل أن يدهم ، وأسرع ليؤمن خطوطه الى صور من الساحل قبل أن يهاجمها ، فارتحل من فوره الى عكا وشحنها بالأسلحة والرجال والذخيرة والميرة — كخطته فى دمياط والاسكندرية — وأعدها للقتال .

وكان على صلاح الدين وأهله أن يخافوا ، فان الخوف من النكسة فى زهوة النصر أولى ، ولكن يبدو أنهم غفلوا قليلا ولم يكونوا خائفين ، فكانوا مخطئين .

ويبدو أن صلاح الدين كان يترك الفارين من كل مكان يذهبون الى صور حتى يضربهم فيها الضربة الأخيرة ولكنه لم يتمكن . وكان يريد التشبه بعمرو بن العاص حين فتح مدينة « اخنا » قرب الاسكندرية وفرض على صاحبها الجزية فخرج الى الروم فقدم بجيش منهم فهزمهم الله وأسر صاحب « اخنا » فقال الناس لعمرو : اقتله ، فقال : لا ، بل نطلقه لينطلق فيجيئنا بجيش آخر (١) .

هذا عمرو بن العاص ، فلعل صلاح الدين كان قد أضمر فى نفسه ما أضمره عمرو لما كان عليه من الثقة والشجاعة ، وربما حرضه على هذا زهوه بالانتصار تلو الانتصار ، فلما فشل رمى بالخطأ ولو انتصر ومكن الله له منهم فى صور لكان أنضج رأى وأحسن حظ ، ولم يسبقه اليه غير عمرو بن العاص .

كسرة صور :

فلما فرغ من اعداد عكا رجع الى صور وحاصرها من بعيد بما تكامل لديه من آلات الحصار فى البر ، وأسطول مصر من البحر ، وتم

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٢٤ .

حصارها وبدا الرجحان فى جانب صلاح الدين ، ولكن ما لبث هذا الرجحان أن انقلب الى كرب مفاجىء شديد :

ذلك أنه كان على الأسطول « بدران الفارسى » ، ومع أنه كان رجلا ناهضاً جلداً فى البحر ، فقد غفل عن وصية قائده « عبد المحسن » أمير البحر بأن يأخذ حذره ويتيقظ ، لأن الفرنجة أقدر فى البحر وأمكن ، ومتى سنحت لهم الفرصة فلن يهملوها . ولكن بدران وبحارته كانوا مأخوذين بانتصارات صلاح الدين وقوته فغفلوا عن الوصية وأهملوها ، وباكرهم أسطول الفرنجة من صور فلم يطيقوا قتاله ، وقتل العدو جنداً عظيماً بعد أن أصابوا السفن وغنموا خمساً منها وعليها مقدمو المقاتلة فى الأسطول .

هذا فى البحر . أما فى البر فكان الشتاء قد اشتد وقرس برده وتراكمت أمطاره ، فلما رأى الناس ما حل بالأسطول توارى كثير منهم عن القتال فلم ير السلطان الا أن يدع المعركة ويستعد من جديد ، فرحل ضيق الصدر مكتئباً حزيناً ، لأنها كانت أول كسرة شديدة أصيب بها .

فتح اللاذقية :

ورأى صلاح الدين أن يتابع الجهاد حتى لا يطمع فيه الفرنجة فشغلهم بغزو حصون متفرقة ، وجعل يطهر البلاد فى دائرة تقع على محيطها حلب وأنطاكية واللاذقية ودمشق ، ثم أرسل أخاه العادل فتسلم الكرك والشوبك وما هناك من بلاد (١) .

ومع أن صلاح الدين قد ارتد عن صور ، ثم ارتد كالمنهزم عن حصن كوكب لأن طريقة كانت مغمورة بالثلوج ، وكان هو محشوداً بالجنود الأشداء مملوءاً بالميرة والسلاح — فانه استطاع أن يعوض عن خسائره بانتصار فى اللاذقية كثير الغنائم والأموال .

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٤ .

وقد حدث عندما غزا اللاذقية أن جمع لها جنداً من دمشق ، ثم سار بهم مخترقاً طريق الساحل من طرابلس فأنطرسوس فجبلة ، وكانت اللاذقية فى تلك الأزمنة بلد التجار — كما يحاولون اليوم أن تكون ويعود اليها مكانها القديم — فلما دخلها صلاح الدين غنم منها مغنمة عظيمة من الأموال والمتاع .

وعند اللاذقية حدثت معركة الأحجار ، فقد نفد السلاح من الفرنجة والعرب جميعاً ، فأخذوا يتقاذفون بالأحجار ، وتكاثر المسلمون فغلبوا وسلم الفرنجة . وكتب قاضى جبلة الأمان الذى طلبوه : كتب أن يطلقوا بأنفسهم وذراريهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات الحرب والدواب ، ما عدا ما يركبونه منها ليصلوا بها الى مآمنهم ، وتسلمها صلاح الدين سنة (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) .

وأدرك صلاح الدين فى اللاذقية ما فاته فى القدس فلم يُلدغ مرة أخرى ، وصارت القاعدة عنده : أن ينزل الأعداء متى سلموا بأنفسهم وثياب أبدانهم . وكما جرى صلح اللاذقية على هذه القاعدة جرى صلح أنطاكية وزاد عليه أن يُطلق أهل أنطاكية ما كان بأيديهم من أسرى المسلمين .

الحملة الصليبية الثالثة :

كان النصر فى حطين والقدس بالنسبة للعدو أمراً مثيراً ، وكأنه تأميم قناة السويس فى عصرنا ، فحين بلغ صلاحُ الدين قمة مجده اجتمعت أوروبا عليه أكثر من ذى قبل ، وساقت اليه الحملة الثالثة الصليبية مع الفرنجة المتبلدين فحاربوه فى عكا ، كما ساقت فرنسا وانجلترا جيوشهما فى عصرنا مع اليهود فحاربوا الرائد عبد الناصر فى بور سعيد لأنه بتأميم القناة بلغ قمة المجد ، وان يكن أولئك أفلحوا فى زمنهم فان العدو فى عصرنا لم يفلح ، فانصرف عن بورسعيد وجر معه أذيال الخيبة والعار .

وقبل أن تصل هذه الحملة كان الفرنجة الذين اجتمعوا فى صور من أهل الحصون والبلاد التى احتلها صلاح الدين قد صاروا فى عالم لا تحصى كثرته وأخذوا يستنجدون بمن وراء البحر ، واتخذوا وسائل التعصب والاثارة فى استنجادهم ، فهلع النساء ووصل من الأمداد ما لا يحصى عداً.

وقد بلغ من اهتمام أوروبا هذه المرة أنهم فرضوا على كل من لم يرغب التطوع فيها أو تعذر عليه ، أن يدفع عشر مداخيله مع عشر ثمن أملاكه المنقولة وسموها « العشور الصلاحية » وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها (١) .

وقاد هذه الحملة « فردريك بارباروس » أمبراطور المانيا « وفيليب أوجست » ملك فرنسا و « ريتشارد » قلب الأسد ملك الانجليز .

أما الجيش الألمانى فقد وجد فى طريقه البرى عداوة بيزنطة وقوات السلاجقة ، وغرق أمبراطوره فى نهر « سالف » بجبال أرمينية فرجع معظمه الى المانيا ومضى أقله فى بقية من السفن الى عكا وصور بقيادة « فردريك الثانى » نجل الأمبراطور الغريق ولم يلبث الامبراطور الابن أن مات قبل الوصول الى عكا ، فلم تكن لبقية الجيش الألمانى التى وصلت أثر كبير .

وأما الجيشان الفرنسى والانجليزى فقد التقيا فى صقلية — وما أشبه اليوم بالأمس — ولما لم يكن ملكاهما على اتفاق فقد أبحر الفرنسيون الى عكا وحدهم فبلغوا شاطئها فى ٢٠ نيسان (ابريل) سنة (٥٨٧ هـ — ١١٩١ م) .

وأما « ريتشارد » فقد استقر فى قبرص بعد احتلالها من البيزنطيين ثم أبحر الى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس « جوى » المطلق من أسر صلاح الدين .

---

(١) صلاح الدين الايوبى ص ٨٧ .

وتتابعت أمداد الفرنجة ، اذ طاف الرهبان والقسوس وبطريرك القدس الذى أطلقه صلاح الدين بما معه من مال فى أوروبا يستنجدون أهلها ، وقد لبسوا السواد وأظهروا الحزن واقتدوا ببطرس السائح ، فعظم ذلك على الفرنجة فحشدوا وحشروا ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطع الخروج استأجر له عوضاً أو أعطى معونة ، فاجتمع من المحاربة ما لا يقع عليه الاحصاء .

وهذا كله نراه فى زماننا ، حيث يطوف اليهود فى البلدان يستنجدون ويجمعون الأموال ويسهلون الرحلة للرجال وهم يتباكون ويتحازنون !

ولقد كانت صور شغلت بال السلطان زمناً ولكنه لم يجد اليها سبيلا ، ثم شغله أمر عكا ، فقد صارت مثل صور مهددة بالضياع ، وكلا الثغرين يؤثر فى الآخر ويستطيع أن يتحكم فيه ، ولم تكن هذه الفكرة فى حاجة لذكاء خارق وانما هو أمر بديهى يدركه كل رجل يعرف موقع البلدين ويدرك المدى الذى يجب أن تكون عليه سياسة الساحل .

ومن ثَمّ انطلق صلاح الدين فطهر المواقع حول عكا ورتب أمورها هى ، وولى عليها اثنين من خاصة رجاله : بهاء الدين قراقوش ، وأمره بعمارة أسوارها وأمده بمهندسى مصر وعمالها وآلاتها ، وسيف الدين المشطوب أمير الأكراد الأكبر ، ولم يكن أحد من أمراء الدولة يضاهيه فى المنزلة أو يدانيه .

قلعة الشقيف :

وقصد صلاح الدين الى قلعت الشقيف ، وهى اليوم فى أرض لبنان فى طريق مرجعيون ، وكانت — ولم تزل — قلعة خطيرة قائمة على قمة جبل قائم فى اعتدال وعلو شاهق كأنه حائط بنيان ، فأحاط بها وحاصرها ، فقصده صاحب الشقيف ووقف على خيمته فأذن له وأكرمه وأبدى له

وقبل أن تصل هذه الحملة كان الفرنجة الذين اجتمعوا فى صور من أهل الحصون والبلاد التى احتلها صلاح الدين قد صاروا فى عالم لا تحصى كثرته وأخذوا يستنجدون بمن وراء البحر ، واتخذوا وسائل التعصب والاثارة فى استنجادهم ، فهلع النساء ووصل من الأمداد ما لا يحصى عداً.

وقد بلغ من اهتمام أوروبا هذه المرة أنهم فرضوا على كل من لم يرغب التطوع فيها أو تعذر عليه ، أن يدفع ُعشر مداخيله مع عشر ثمن أملاكه المنقولة وسموها « العشور الصلاحية » وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها (١) .

وقاد هذه الحملة « فردريك بارباروس » أمبراطور المانيا « وفيليب أوجست » ملك فرنسا و « ريتشارد » قلب الأسد ملك الانجليز .

أما الجيش الألمانى فقد وجد فى طريقه البرى عداوة بيزنطة وقوات السلاجقة ، وغرق أمبراطوره فى نهر « سالف » بجبال أرمينية فرجع معظمه الى المانيا ومضى أقله فى بقية من السفن الى عكا وصور بقيادة « فردريك الثانى » نجل الأمبراطور الغريق ولم يلبث الامبراطور الابن أن مات قبل الوصول الى عكا ، فلم تكن لبقية الجيش الألمانى التى وصلت أثر كبير .

وأما الجيشان الفرنسى والانجليزى فقد التقيا فى صقلية — وما أشبه اليوم بالأمس — ولما لم يكن ملكاهما على اتفاق فقد أبحر الفرنسيون الى عكا وحدهم فبلغوا شاطئها فى ٢٠ نيسان (ابريل) سنة (٥٨٧ هـ — ١١٩١ م) .

وأما « ريتشارد » فقد استقر فى قبرص بعد احتلالها من البيزنطيين ثم أبحر الى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس « جوى » المطلق من أسر صلاح الدين .

(١) صلاح الدين الايوبى ص ٨٧ .

وتتابعت أمداد الفرنجة ، اذ طاف الرهبان والقسوس وبطريرك القدس الذى أطلقه صلاح الدين بما معه من مال فى أوروبا يستنجدون أهلها ، وقد لبسوا السواد وأظهروا الحزن واقتدوا ببطرس السائح ، فعظم ذلك على الفرنجة فحشدوا وحشروا ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطع الخروج استأجر له عوضاً أو أعطى معونة ، فاجتمع من المحاربة ما لا يقع عليه الاحصاء .

وهذا كله نراه فى زماننا ، حيث يطوف اليهود فى البلدان يستنجدون ويجمعون الأموال ويسهلون الرحلة للرجال وهم يتباكون ويتحازنون !

ولقد كانت صور شغلت بال السلطان زمناً ولكنه لم يجد اليها سبيلا ، ثم شغله أمر عكا ، فقد صارت مثل صور مهددة بالضياع ، وكلا الثغرين يؤثر فى الآخر ويستطيع أن يتحكم فيه ، ولم تكن هذه الفكرة فى حاجة لذكاء خارق وانما هو أمر" بديهى يدركه كل رجل يعرف موقع البلدين ويدرك المدى الذى يجب أن تكون عليه سياسة الساحل .

ومن ثَمّ انطلق صلاح الدين فطهر المواقع حول عكا ورتب أمورها هى ، وولى عليها اثنين من خاصة رجاله : بهاء الدين قراقوش ، وأمره بعمارة أسوارها وأمده بمهندسى مصر وعمالها وآلاتها ، وسيف الدين المشطوب أمير الأكراد الأكبر ، ولم يكن أحد من أمراء الدولة يضاهيه فى المنزلة أو يدانيه .

قلعة الشقيف :

وقصد صلاح الدين الى قلعت الشقيف ، وهى اليوم فى أرض لبنان فى طريق مرجعيون ، وكانت — ولم تزل — قلعة خطيرة قائمة على قمة جبل قائم فى اعتدال وعلو شاهق كأنه حائط بنيان ، فأحاط بها وحاصرها ، فقصده صاحب الشقيف ووقف على خيمته فأذن له وأكرمه وأبدى له

الطاعة ووعـد أن يسلمه القلعة لقـاء مكان ُيقطعه له فى دمشق لتعسر معاشرته الفرنجة بعد تسليم قلعتها ، كما طلب أن يؤمن له السلطان اقامته بالقلعة حتى يخلص أهله وأتباعه من صور .

وكان الرجل داهية ماكراً ، قد تعلم العربية من عربى مسلم كما كان تعلمها أرناط صاحب الكرك ، فظل يتردد على السلطان ويناظره فى الدين ويحسن محاورته ويتأدب فى كلامه ، فلما عرف صاحب الشقيف بضعف السلطان عن صور وقلقه عند عكا ماطله ونـوى الغدر وخيانة العهد ، وأدرك السلطان سره فلم يكاشفه به وجعل يلقاه ويلاطفه ، حتى اذا كان عنده ذات يوم وقد أمن واطمأن وناظر السلطان وحادثه ثم قـام ليودعه ويمضى الى قلعته منعه السـلطان وضرب له خيمة قريباً من خيمته وأقام عليه حرساً خفيا ، ولم يأذن له بالرجوع الى الشقيف .

وكان قد ضرب للسلطان موعداً ليسـلمه القلعة ، فلما فات الموعد أرسل السلطان معه عدداً من رجاله لينادى نائبه من خارج القلعة ليسلمها ، فلما دنا من القلعة بحيث ُيسمع صـوته لو نادى ، تكلم ورفع صوته وتحدث مع نائبه بلغة رمزية يحرضـه فيها على ألا يسلم . فلما كوشف السلطان بما فعل أرسله الى دمشق مهيناً مرذولا .

وقعـة الجسر :

ولم يمض غير قليل حتى وقع ما ظنه صلاح الدين ، فقد ظهرت نية الفرنجة فى محاربته ، وكان معظم جنده فى أرض تقع بين صيدا وصور ، والأولى فى شمالى الثانية وكلاهما عـلى البحر ، والمسـافة بينهما اليوم مسيرة ساعة بالسيارة ، فاتجه الفرنجة نحو صيدا الى الشمال فتبعهم عدد من رجالة المسلمين بين المائة والمائتين وعبروا وراءهم على جسر هناك فلما صار الجسر وراء الرجالة أقبلت أمداد الفرنجة فقطعت الجسر وارتدت المقدمة عليهم فحصدتهم حصداً .

ولقد أحدثت هذه الفعلة فى نفس صلاح الدين ألماً بالغاً ، فقرر أن يقتص من الفرنجة بحرب الكمين فرتب له ثم استخرج من جنده عشرين فارسا من الشجعان على جياد الخيل وأمرهم أن يناوشوا العدو ثم يتراءوا له منهزمين حتى يبلغوا الكمين فيقعوا فيه .

وفعل الفرسـان ما أراد وتبعهم الفرنجة يحملون عليهم ويرهقونهم ، فلما رأى الفرسان عنف القتال أنفوا التظاهر بالانهزام وحملوا على العدو دون أن يتراجعوا بالحيلة للكمين فقتل منهم الفرنجة عدداً كبيراً . ومع أنهم أصابوا الفرنجة وقتلوا منهم فقد تلقى عسكر المسلمين فى يوم الجسر ضربتين شـديدتين : أولاهـما من خطأ السرعة والغفلة ، وثانيتهما من عصيان القائد وتفويت الحيلة .

عنـد عكا :

ثم بلغ صلاح الدين أن جموع الفرنجة قد خرجت من صور منحدرة الى عكا ، وهى فى جنـوبى صور ، وهى رحلة شاطئية يسيرة على من ُلزم الشاطىء ، فأسرع هو ليعوض فرق المسافة اذ جنده فى شمالى صور ، وسار من طريق الداخل وهو أوعر من الشاطىء وأصعب ، فاخترق عدداً من القرى والجبـال ، ثم استطاع مقـدم عسكره أن يدخل عكا قبل الفرنجة ، وانضم الى حاميتها ، ثم أرسى السلطان جنده على « تل كيسان » فى ظاهر عكا وجعل يرسل الى داخلها البعث بعد البعث حتى اجتمع فيها خلق لا يحصى ، أما هو فقد رتب جيشه للمعركة وقسمه الى قلب وجناحين وأحاط بعسكر العدو دانياً من خيامه .

وكان العدو كثير العدد ، يتجاوز فرسانه الألفين ، وتتجاوز رجالته الثلاثين ألفاً ، أما المدد من البحر فكان لا ينقطع . وكان العدو بالنسبة لعكا فى وضع أفضل من وضع صـلاح الدين اذ كان أقرب اليها والى

أسوارها منه وحولهم خندق قد حفروه يحجز بينهم وبين المسلمين (١) ، وأما هو فمحيط بالعدو من خارجه ومن خارج الخندق .

وتهافت جند المسلمين على الالتحام بالعـدو وقتاله فنهاهم صلاح الدين حتى تأذن ساعة القتال بالبدء لحصانة الفرنجة فلم ينتهوا ، فأوجس القائد العظيم خيفة وأيقن أنه مقبل على خسائر فادحة اذا ظل هذا التهافت والعصيان ، وما لبث أن تحقق ظنـه فأحاط الفرنجة بعكا وحاصروها وقطعوها ، والخندق يحميهم وراءهم من المسلمين .

ولم يفزع صلاح الدين مما حدث ، وصمم هو وأمراء عسكره أن يفتحوا فى صفوف العدو طريقاً الى عكا فحملوا على الفرنجة حتى فتحوا الطريق وأوسعوه فمرت به الباعة والسـوقة ، ودخل صلاح الدين منه مستخفياً اليها فتفقد سورها ، ولكنه شاهد عسكر العدو قد صار تحت الأسوار .

وحدثت مناوشات كثيرة لم تنته بطائل ، ولكن عدوى الخطف والأسر سرت وفشت ، وتقاتل صبيان العرب وصبيان الفرنجة فتصارعوا وتخاطفوا أسرى ، وضرب بعضهم بعضا ، وقد شوهد صبيان العرب يتصالحون بعد موقعة ويفكون أسيراً من صبيان الفرنجـة بدينارين ، قد حفظوا بنود تأمين القدس فنفذوه .

الوقعة الكبرى :

ودامت المعركة حـول عكا الى ما يقرب من سـنتين لم تنته بيوم حاسم ، حتى اذ كان يـوم الأربعاء الحادى والعشرون من شـعبان سنة (٥٨٥ هـ — ١١٨٩ م) فوجىء المسلمون بوثبة هائلة من جيش الفرنجة احتلوا فيها رؤوس التلال فبدأت المعركة الحاسمة على الفور .

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢٤ .

وضع المسلمون ميسرتهم قبالة ميمنة العدو ، ووضعوا الميمنة أمام الميسرة ، وتواجه القلبان . وكان على القلب الأفضـل بن صلاح الدين وعيسى الهكارى الفقيه ثم عسكر الموصل وديار بكر ونابلس وعلى الميسرة سيف الدين المشطوب وعلى بن أحمد الكردى ثم عسكر الأكراد والمهرانية والهكارية وعسكر سنجار والأسدية وأما الميمنة فكانت ضعيفة ، وكان فى القلب ضعف أيضاً : كان فى عسكر ديار بكر ، اذ كانت فيهم غرة عن الحرب .

وكأنما لمح العـدو ضعف الميمنة فهاجمهـا بميسرته القوية فخف القلب ليعاونهـا فضعف القلب أيضـا أمام قلب العدو فحمل عليه معظم جيش العدو ، فاضطرب القلب وانكسر ، وكانت الضربة شـديدة فى عسكر ديار بكر ، ثم ما لبثت الميمنة أن ذابت وانهزم الناس متبددين وبلغ العدو قريبا من خيمة السلطان .

وأما الميسرة فلم تهجها ميمنة العدو فظلت ثابتة لا تتحرك ، وكأنهـا لم تكن ، ونادى السـلطان يشجع ويستنهض ويرد ، فتـابع المنهزمون الفرار ، حتى بلغوا سواحل طبرية ومشارف الشام . ثم حان للميسرة أن تتحرك فردها العدو على أعقابها .

وقد اشترك صبيان المسلمين مع الميسرة فى المعركة ، وكأنما أخذهم الحماس فأرادوا الأخذ بالثأر ، وظلوا يقحمون أنفسهم فى النـار حتى فقد منهم ما يقرب من مائة وخمسين من الغلمان المجهولين كما قتل عدد كبير من الغلمان المعروفين . وهذا كله كان فى البر . أما فى البحر فقد تأخر الأسطول !

وازداد الكرب وساء النظام فأعمل الغلمان النهب فى جميع الخيام حين خلت من الجند ، فلم يدعوا غاليا ولا رخيصا الا ذهبوا به ، واشتركت معهم العامة وفشا اللصوص ، ثم تخاذل الأمراء حين رأوا الضربة تأتى من العدو والصديق على سواء ، فودوا العودة الى بلادهم رغبة فى الامارة

وعزة الملك ، ولم يدر السراق والأمراء أنهم بالسرقة والتخاذل قد هدوا قوتهم وأوهنوا صفوفهم .

وحين هذا الانخذال أحس كثير من الفرسان أنهم تعبوا فقد أقاموا تحت المعركة وفوق متون الخيل خمسين يوما ، حتى ملت الشجاعة وضجرت الخيل ، وكان صلاح الدين أحوج ما يكون الى صحة وقوة وصف مرصوص ، فأوهن صحته وأضعف قوته أولئك الذين هم بلية كل معركة مهزومة ، وأولئك هم السراق ، فقد هجموا على خيام القادة والأمراء وخيام صلاح الدين نفسه لينتهبوها ، وهم ينتهبون غب كل هزيمة أو الشعور بها ، فكانوا كالذين نسميهم الصف الخامس فى زماننا ، تتخذ المنايا أيديهم وأقوالهم جسورا الى أغراضها .

وقد كثر هؤلاء فى معركة عكا كما يكثرون فى كل زمان مدبر : يكثرون فى نكبة القدر حين لا يستطيع القدر أن يتخذ جسورا لعبوره من أيدى العدو المغير . والقائد المحظوظ فى المعركة المحظوظة هو الذى يفتح عينيه لهؤلاء ويقطع أيدى السراق قبل أن تمتد فى حماية الجهل المظلم والشر المبيد .

ولم يعد راجعا بأى نجاح نداء السلطان برد المنهزمين ، أو بجمع ما نهب من أيدى السراق ، ولم يعد راجيا أن ينتظر المدد أو تصلح أرض المعركة لمعركة أخرى ، فقد تراكمت القتلى من الجانبين ، وثارت أنفاس الوخم تهدد بالمرض كل باق فيها ، وأشار عليه الأطباء بالتحول عن المكان ، فاستقر أمره على التحول عن المكان كما أشار الأطباء .

ولسنا ننسى أن الاعتماد على البطولات الفردية عند عكا قد صنع بعض خيوط الهزيمة ، وأن الجيش لم يتوزع توزيعا عادلا على القلب والجناحين فتتوازن قواه ، وقد نامت الميسرة فلم تستيقظ الا بعد أن ذابت الميمنة وانحطم القلب ، ثم لم يخفف البحر عمن فى البر شيئا لأن الأسطول تأخر وكذلك وصلت أمداد مصر من البر بعد فوات الأوان .

اضطراب الاحوال :

وبرغم الأهوال التى رآها صلاح الدين قد ثارت من حوله وتحوله عن المعركة فانه أخذ يرسل الى عكا من البر والبحر بكل ما يستطيع من حيلة ذخائر وميرة ورجالا وعددا لتظل قوية من الداخل ، ثم نوى أن يعاود العدو بالهجوم لينهى حصارها ، فأشار عليه مؤتمره فى « مرجعيون » أن يؤخر المنازلة حتى تجتمع عليه عساكر الأطراف فى مستهل الربيع .

وكان صلاح الدين قد أرسل الى الخليفة الناصر ابن المستضىء فى بغداد يستنجده كما أرسل الى ملوك المغرب والى أمراء سنجار والجزيرة والموصل واربل ، وسار برسائل استنجاده الى الشرق قاضيه بهاء الدين بن شداد ، ثم أرسل الى مصر باعداد أسطول لحملة جديدة .

أما أمراء الشرق فاستجابوا بأنفسهم وأموالهم ورجالهم ، وأما ملك المغرب فلم يرد ، وأما خليفة بغداد فوعد وعدا جميلا ، ثم ورد رده مع رسول يصطحب جماعة من رماة النفط ومعه رقعة من الخليفة تتضمن الاذن لصلاح الدين أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ، لينفقها فى الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز !

وكان أمرا عجبا مثيرا للضحك والحزن ، ولكن صلاح الدين قبل رماة النفط مع استغنائه عنهم ، ورد الرقعة التى تحمل فتوى الاجازة باقتراض المال ، وسير أخاه الملك المظفر ليعبر الأطراف ويسير الى العراق فى جمع العساكر المطوعة ، فأرسل الديوان العزيز الى صلاح الدين ينكر على المظفر مسيره فى البلاد واستيلاءه على مساكن بغير اذن ، وجاء صلاح الدين ذلك العتاب والاستنكار حين كان فى هم يكمد النفوس .

ورافق الشؤم رسول الخليفة فزحف الفرنجة يوم وصوله على أسوار عكا ونصبوا ثلاثة أبراج ضخمة لم يأتوا بمثلها من قبل ، قد ركبت على

دواليب ورتبت طبقات وشحنت بالسلاح والمقاتلة وطليت بمواد لا تحرقها النار (١) .

وفى أثناء ذلك جعلت أمداد المسلمين تصل ، وجعل صلاح الدين يعرضهم بأعلامهم وبيارقهم وطبولهم وبوقاتهم ليزعج العدو ويقلق باله ، ولكنه — وهو يفعل ذلك — كان منصرف الفكر الى احراق الأبراج قبل أن تندفع الى أسوار عكا ، فحشد جموع رماة النفط ووعدهم بالمكافأة الجزيلة ان هم أحرقوها ، فجربوا ثم عجزوا .

وحين فرغت منهم الحيل تقدم شاب دمشقى بحار يسمى « عليا » كان يعرف الكيمياء والنحاس معرفة أهل زمانه ، فكان يعرف المواد التى اذا مزجت أذابت مواد طلاء الأبراج ، فتقدم هذا الشاب من صلاح الدين وعرض عليه أن يعاونه فى الحصول على ما يريد من داخل الأسوار فمكن له صلاح الدين ، فمزج الشاب مواده فى قدور كبيرة من النحاس ثم صير الخليط جمرة نار ثم قذف بالجمرات من داخل السور برجا فاشتعل لوقته كأنه بركان . قد أفلح الاختراع .

وفى فرحة من جنون رمى الدمشقى برجا ثانيـا فاشتعل ، ثم رمى الثالث فى ثورة من ضجيج العدو فالتهب ، وتحمس صلاح الدين وجنده فزحفوا يستدرجون العدو للقتال فلم يبرز لهم ، وحاول صلاح الدين أن يثيره فلم يثر ، فركدت المعركة عدة أيام .

ثم عادت أنباء الشؤم تفد وأقداره تجرى : فقد علم صلاح الدين بأمر فردريك أمبراطور ألمانيـا الزاحف اليه من طريق البر ، فسير اليه جيوش منبج وكفر طاب وبارين وحلب وحماة ليرده ، وكان هؤلاء جميعا من الميمنة فخفت وضعفت بمسيرهم ، فلما رأى الفرنجة عند عكا خفـة الميمنة هاجموها فنالتها أيديهم ، وبلغوا خيمة الملك العادل ذاتها ، وان كان

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٧ .

المسلمون قد ردوهم فى آخر الأمر فقد كانت هزيمة جديدة لصلاح الدين .

وحينئذ بلغت الفلول الألمانية أبواب صور ، ودارت على الفور بينهم وبين المسلمين من خارجها معارك هائلة ذاق الألمـان فيها مرارة قتال لم يشهدوه فتركوا صور وانحدروا الى عكا وانضموا الى محاصريها هناك ، ثم بدأت تظهر فى المعارك حيل الألمان فى الصناعة والآلات ، التى وصفها ابن شداد وصف رجل مرتاع لما شاهد ورأى ، ومع أننا — فى عصرنا — نستطيع أن نتصـورها فى بعض الدبابات وقنـاطر الجسور فانها كانت بالأمس شيئا عجيبا مخيفا ، ولكن الفتى الدمشقى كان لها بالمرصاد من وراء الأسوار .

ودامت المعركة مائعة حتى وفد الشتاء الثانى ولم يلتحم الفريقان فى معركة حاسمة ، ورأى صلاح الدين أن يسرح العسكر للراحة وأن يستبدل بالذين ضنوا وتعبوا داخل عكا غيرهم ، مهما كان الداخلون من جديد غير مجربين ، ففعل ، ولكنها كانت غلطة من السلطان وارادة من القدر ، ثم حدث تفريط فى الاحصاء فكان الذين خرجوا منها أضعاف من دخلوا اليها (١) .

فلما جاء الربيع وطاب الهواء ورجع اليه الأمراء والعسكر من كل البلدان قدم أسطول فرنسا ثم تبعه الأسـطول الانجليزى واستدارت أساطيل العدو كلهـا حول عكا لتمنع المؤونة عنهـا ، وتبتـدىء المعركة الحاسمة مع صلاح الدين .

سقوط عكا :

وجرت اشتباكات كثيرة بين الطائفتين ، ولكن لم تغلب واحدة منهما الأخرى ، فأخذ الضيق بصلاح الدين كل مأخذ ، وصارت قلوب الناس

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٨ .

دواليب ورتبت طبقات وشحنت بالسلاح والمقاتلة وطليت بمواد لا تحرقها النار (١) .

وفى أثناء ذلك جعلت أمداد المسلمين تصل ، وجعل صلاح الدين يعرضهم بأعلامهم وبيارقهم وطبولهم وبوقاتهم ليزعج العدو ويقلق باله ، ولكنه — وهو يفعل ذلك — كان منصرف الفكر الى احراق الأبراج قبل أن تندفع الى أسوار عكا ، فحشد جموع رماة النفط ووعدهم بالمكافأة الجزيلة ان هم أحرقوها ، فجربوا ثم عجزوا .

وحين فرغت منهم الحيل تقدم شاب دمشقى بحار يسمى « عليا » كان يعرف الكيمياء والنحاس معرفة أهل زمانه ، فكان يعرف المواد التى اذا مزجت أذابت مواد طلاء الأبراج ، فتقدم هذا الشاب من صلاح الدين وعرض عليه أن يعاونه فى الحصول على ما يريد من داخل الأسوار فمكن له صلاح الدين ، فمزج الشاب مواده فى قدور كبيرة من النحاس ثم صير الخليط جمرة نار ثم قذف بالجمرات من داخل السور برجا فاشتعل لوقته كأنه بركان . قد أفلح الاختراع .

وفى فرحة من جنون رمى الدمشقى برجا ثانيا فاشتعل ، ثم رمى الثالث فى ثورة من ضجيج العدو فالتهب ، وتحمس صلاح الدين وجنده فزحفوا يستدرجون العدو للقتال فلم يبرز لهم ، وحاول صلاح الدين أن يثيره فلم يثر ، فركدت المعركة عدة أيام .

ثم عادت أنباء الشؤم تفد وأقداره تجرى : فقد علم صلاح الدين بأمر فردريك أمبراطور ألمانيا الزاحف اليه من طريق البر ، فسير اليه جيوش منبج وكفر طاب وبارين وحلب وحماة ليرده ، وكان هؤلاء جميعا من الميمنة فخفت وضعفت بسيرهم ، فلما رأى الفرنجة عند عكا خفة الميمنة هاجموها فنالتها أيديهم ، وبلغوا خيمة الملك العادل ذاتها ، وان كان

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٧ .

المسلمون قد ردوهم فى آخر الأمر فقد كانت هزيمة جديدة لصلاح الدين .

وحينئذ بلغت الفلول الألمانية أبواب صور ، ودارت على الفور بينهم وبين المسلمين من خارجها معارك هائلة ذاق الألمان فيها مرارة قتال لم يشهدوه فتركوا صور وانحدروا الى عكا وانضموا الى محاصريها هناك ، ثم بدأت تظهر فى المعارك حيل الألمان فى الصناعة والآلات ، التى وصفها ابن شداد وصف رجل مرتاع لما شاهد ورأى ، ومع أننا — فى عصرنا — نستطيع أن نتصورها فى بعض الدبابات وقناطر الجسور فانها كانت بالأمس شيئا عجيبا مخيفا ، ولكن الفتى الدمشقى كان لها بالمرصاد من وراء الأسوار .

ودامت المعركة مائعة حتى وفد الشتاء الثانى ولم يلتحم الفريقان فى معركة حاسمة ، ورأى صلاح الدين أن يسرح العسكر للراحة وأن يستبدل بالذين ضنوا وتعبوا داخل عكا غيرهم ، مهما كان الداخلون من جديد غير مجربين ، ففعل ، ولكنها كانت غلطة من السلطان وارادة من القدر ، ثم حدث تفريط فى الاحصاء فكان الذين خرجوا منها أضعاف من دخلوا اليها (١) .

فلما جاء الربيع وطاب الهواء ورجع اليه الأمراء والعسكر من كل البلدان قدم أسطول فرنسا ثم تبعه الأسطول الانجليزى واستدارت أساطيل العدو كلها حول عكا لتمنع المؤونة عنها ، وتبتدىء المعركة الحاسمة مع صلاح الدين .

سقوط عكا :

وجرت اشتباكات كثيرة بين الطائفتين ، ولكن لم تغلب واحدة منهما الأخرى ، فأخذ الضيق بصلاح الدين كل مأخذ ، وصارت قلوب الناس

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٨ .

كصفحة الماء تتأثر بأى نسمة تهب ، وتتعاقب عليها المسرات والأحزان كما تتعاقب الرياح المختلفة بسطوح المياه فتدور معها من جانب الى جانب وتثور .

ولما كان انفرنجة أدنى الى الأسوار من جند صلاح الدين فقد استطاعوا بدباباتهم ومنجنيقاتهم ان يهدوا جزءا من الأسوار . ولما عرفوا أن البلد قد ضعف من داخله بما فعله صلاح الدين من الاستبدال ركزوا هجومهم عليه وزحفوا من كل جانب ، فتوزع أهل عكا وعسكرها للدفاع عند الأسوار وعلى المجانيق وفى الخنادق وتجاه الساحل ، ولكن السور تخلخل وضعف وبدأ ينهار ، فغادر الأهلون عكا وتركوا بها المحاربة والميرة والسلاح .

أما صلاح الدين وجنده المحيطون بالفرنجة فقد كانوا يستعدون لفك الحصار عن أهلها ، ثم طال بهم الاستعداد ، فلما هموا فوجئوا بأن جند عكا قد طلبوا الأمان ، فكان الخبر المفاجىء أكبر من الفواجع ، لأن عكا كانت تحتوى على كبار أمراء المعسكر وشجعان الجند . واستيأس السلطان وجنده وقاتلوا حتى كان الرجل من رجاله يصاب بعشرات الضربات فلا يمنعه ذلك من القتال ، وكذلك استيأس الفرنجة واستبسلوا ، وأبلى نساؤهم فى القتال كما أبلى الرجال (١) .

ومضى العدو فى تقدمه فتمكن من الخنادق ثم تابع الزحف ، فلما رأى سيف الدين المشطوب رئيس الحامية أنه لا رجاء فى الخلاص تقدم من قائد الفرنجة يطلب الأمان .

« ثم سلمت عكا ، على أن تعطى للفرنجة كل ما فيها من العدد والآلات والمراكب ، وتؤدى لهم مائتى ألف دينار ، ولا يفك الأسرى حتى تدفع اليهم الأسلحة والأموال وعود الصليب الذى أخذ فى القدس ، بينما

(١) النوادر السلطانيه ص ١٥٧ .

بفك أسرى الفرنجة الذين عند صلاح الدين ، أما غير المقاتلة فيخرج من شاء سالما بنفسه ونسائه وذريته ومتاعه ، ويكافأ من توسطوا فى الصلح بأربعة عشر ألف دينار » .

وأرسلت الشروط للسلطان فاستكبرها ، وبينما هو يستشير فيها كعادته ولم يبت فيها برأى لأنه كان يفكر فى انقاذ عكا ، فوجىء بأعلام الفرنجة وشعائرها ونيرانها تخفق على الأسوار والقلعة وبرج القتال ومئذنة الجامع الكبير ، وكان ذلك بعد معارك مريرة دامت حول عكا سنتين كاملتين . وحبس الفرنجة من احتجزوهم فى أماكن متفرقة من البلد مقابل الوفاء بالشروط (١) ، ثم طلبوا من السلطان ما فرضه الصلح فخشى أن يعطى المال قبل فك الأسرى فيأخذوه ويغدروا ، فتوقف دون البذل ، فلما علم ريتشارد ملك الانجليز بذلك غدر بأسرى المسلمين :

أخرجهم من حبوسهم مقيدين الى تل العياضية ، وجر ثلاثة آلاف منهم فى الحبال ، ثم حملوا عليهم فقتلوهم صبرا : ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح . وحاول المسلمون من الخارج رد الكيد عن أسراهم فلم يفلحوا ، وتسلموا فى اليوم التالى جثثهم من مصارعها : وقد عرف أنهم قتلوا كل مقدام ، وكل من كانت له يد قادرة فى الاختراع أو البناء أو القتال ، وأخذ الفرنجة بالاستيلاء على عكا كل سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر فكان أخذها أنكى خبر ورد على المسلمين .

وأدخل العدو الى عكا كل من كان منه خارجها ، وسدو ثغرها ، وأصلحوا ما تهدم من السور وما فسد من الثغر ليحموا أنفسهم فيها ، وكان يوما بيوم ، وعادت أغانى العرس رجع نواح !

وقد عادت عكا فيما بعد للسلمين ولكن أحفاد ريتشارد لم يغفلوا ، نأعطوها — فى عصرنا — لاسرائيل سنة ١٩٤٨ م ، ونحن اليوم فى عام (١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م) وهى فى أيدى اليهود ، ولكنها ستعود .

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٩ .

وأما صلاح الدين فيصوره أحـد كتاب عصرنا حين سقطت عكا فيقول (٢) :

ووقف صلاح الدين عـلى رابية عالية يطيـل منها النظر الى عكا الأسيرة بعد صراعها الجبار . وقد بدا فى جلاله ونبله وحزنه العميق كأنه قد استرسل فى صلاة صامته ذات خشوع . ولبث وقتاً طويلاً وهو فى موقفه ذاك ما يريم ولا يتحول بوجهه عن المدينة ، كأم تنظر الى قبر ابنها القتيل ، وفى نفسها عوامل شتى من الفجيعة والنقمة والتمرد الكظيم . ثم لوى عنق جواده وأطلق عنانه ، فانطلق يشق به الرمال السوافى ، وكأن له جناحى نسر ، كما أن لصاحبه اباء النسور .

ثم عرف أصـحابه أنه يريد الانفراد بنفسـه ، فى نزهة من تلك النزهات الكثيرة التى يقوم بها الى تخوم البادية أو قلب الصحراء كلما ألم به ما يؤلمه ويشجيه ، ثم يعود منها أقوى عزيمة وأصلب مراساً وأشد صبرا على أعباء الكفاح .

---

(١) صلاح الدين الأيوبى ص ٩١ .

أخريات الأيام

- على ساحل فلسطين
- جس النبض
- حريق عسـقلان
- شئون وأقدار
- أمر غريب
- المركيز والملك
- عنـد يافا
- صلح الرملة
- بدء الاختلاط
- نية الحـج
- مرض السلطان
- نهاية الأيام

على ساحل فلسطين :

وخرج « ريتشارد » قلب الأسد من عكا فى جمع عظيم من المشاة والفرسان فى مستهل شعبان سنة (٥٨٧ — ١١٩١ م) وضرب خيامه فى طريق الساحل نحو الجنوب ، ثم شرعوا فى الزحف قطعا متتابعة بموازاة الساحل ، فسار صلاح الدين بازائهم من طـريق الداخل واندفع مسرعاً يقصد الى عسقلان .

وكان الفرق بين الخصمين عظيماً : ذلك أن العدو عدو جديد ، لم يحارب طويلاً بعدُ فهو فى كامل عدته ورجاله وانتظام أمره ، أما صلاح الدين فقد ارتحل بازائه فجأة ، فهلكت حاجات المطوعة حين أمروا فجأة بالرحيل ، ثم أسرع فى سيره تاركاً جماعة من خاصة جنده يراقبون العدو ، وسبق هو فأرسى بثقـل جيشه على « قيسارية » ، حـين رآها صالحة للقاء اذا حدث لقاء .

وقد شوهد من نظام الفرنجـة ما أعجب وأدهش ، فقد سار جيش البر وأسـطول البحر متقـابلين فى خطا واحدة وئيدة . وكان جديرا بالمسلمين ألا يستهينوا بعدوهم ، فقد كانت الاستهانة به ركناً من أركان الهزيمة ، وتبدو هذه الروح فى قول ابن شداد : فانظر الى صبر هؤلاء على الأعمال الشاقة من غير دين و لانفع (١) .

جس النبض :

ولقد كان نظام الفرنجة واحتـمالهم وهم على شاطىء البحر أمراً عجيباً ، فقد كان الرجل ينغرز فى درعه عدة سهام وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، ولا يخرج عن صـفه ولا يتأخر عن سيره ، وكان هذا جديراً أن يخيف المسلمين .

(١) النوادر السلطانية ص ١٧١ .

ولكن لم يكن هذا النظام والتداخل وشدة الانضباط الا ليحفظوا أنفسهم ، حتى لا يشذ أحد فيلتحموا فى معركة ، فقد باتوا يعتقدون أن المعارك التى مضت — منذ بدأت الحروب المقدسة — لم تأت الا بفقدان الأنفس والأموال ، ومهما فعل الفرنجة فلن يأخذوا القدس ولن يجاوزوا الساحل ، ومهما فعل المسلمون فلن يدخلوا عكا أو يقهروا عدوهم فى البحر . وسرعان ما بدأت هذه العقيدة تؤتى ثمارها ، فاتصل الفرنجة بالجند الموكل بمراقبتهم وطلبوا اليه الاتصال بالملك العادل .

وسرعان ما اجتمع الملك العادل بريتشارد وبدأت المفاوضات ، وشرع الملك فطلب أن تسلم اليه البلاد كلها ، فجرت منافرة أخشن كل منهما فيها لصاحبه فانفصلا ، ولم يعد بد من معاودة القتال ، فالتحم الفريقان عند « أرسوف » وحمل الفرنجة حملة شديدة على الجيش كله ، فاندفع الناس بين أيديهم فراراً وكسراً ، ثم اجتمع الناس وتفرقوا واجتمعوا وتفرقوا فقتلت من الأمراء والأبطال والناس والخيل مقتلة عظيمة ، ولولا أن العدو وقف دون اتمام الزحف مخافة أن يكون فى طريقه كمين لباد الناس .

حريق عسقلان :

كان العدو منتصراً ولا سبيل الى رده ، وكان صلاح الدين والناس معه قد أثخنوا بالجراح ، ولو اندفع العدو فى طريقه فأخذ عسقلان لسهل عليه أن يجعلها مفتاح القدس ، ثم يقطع بها طريق مصر ، ويعود خطب الكرك والشوبك مرة أخرى ، وكان صلاح الدين قد أخذها من الفرنجة بعد أن احتلوها خمسة وثلاثين عاماً (١) .

فلما أدرك صلاح الدين ذلك ترك أخاه العادل لمراقبة العدو عند يافا والرملة وأسرع هو الى عسقلان ليحميها ، ثم مالبث أن رأى نفسه يعجز

(١) آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٢٢ .

عن حمايتها ، فاستشار فيها ، فأشار عليه « سليمان بن جَنْدر » بخرابها واحراقها لئلا يتم عليها ما تم على عكا ، وكان سليمان من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية ، وكان رجلاً مخلصاً ، شهد مع السلطان حروبه كلها (١) ، فقرر السلطان احراقها ، وطلب من أخيه العادل أن يراسل الفرنجة فى الصلح حتى يفرغ من احراقها .

ولم يكن تخريب المدينة بالأمر الهين على نفس صلاح الدين ، فقد حدث أن فقد أولاده كان أهون عنده من تخريبها ، وهذا شعور لصلاح الدين أخبر به كاتبه ابن شداد ، وليس فيه أدنى مبالغة ، لأنه — بعد هزيمة عكا — رأى قيم الأشياء قد هانت عليه حتى قِيَمَ أولاده ، وانقلبت رقة صلاح الدين الى عنف لا يطاق .

ثم دعا الناس الى الاخراب ، وكانت عسقلان بلدا نضرا مرغوب السكنى محكم الأمور عظيم البناء ، — وكان يقال لها عروس الشام لحسنها ، وكانت العروس الثانية غزة — (٢) فحزن الناس عليه من أهله وغير أهله ، ولكنهم أطاعوا ، وفقد الناس فى الهجرة منها ما يفقدونه دائماً عند غارة مفاجئة أو حريق داهم .

وكان أمر أهلها كأمر أهل فلسطين اليوم : فقصد قومٌ مصر ، وهاجر قوم الى الشام ، وجرت فتنة هائلة ، ولكن لم يصب أحد من أهلها بسوء فى عرضه أو نفسه ، كما حدث من اليهود حينما احتلوا فلسطين .

ثم أضرمت النيران فى السور والأبراج والدور والأمتعة والأطعمة وكل شىء ، وما كاد صلاح الدين يراها طعمة للنيران حتى التاث مزاجه وامتنع عن الركوب والأكل يومين كاملين حزنا وكمدا . ثم سرت حمى التخريب والاحراق فأحرق صلاح الدين برج « الاشيار » وكان مشرفاً

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ .
(٢) آثار البلاد واخبار العباد ٢٢٢ .

ولكن لم يكن هذا النظام والتداخل وشدة الانضباط الا ليحفظوا أنفسهم ، حتى لا يشذ أحد فيلتحموا فى معركة ، فقد باتوا يعتقدون أن المعارك التى مضت — منذ بدأت الحروب المقدسة — لم تأت الا بفقدان الأنفس والأموال ، ومهما فعل الفرنجة فلن يأخذوا القدس ولن يجاوزوا الساحل ، ومهما فعل المسلمون فلن يدخلوا عكا أو يقهروا عدوهم فى البحر . وسرعان ما بدأت هذه العقيدة تؤتى ثمارها ، فاتصل الفرنجة بالجند الموكل بمراقبتهم وطلبوا اليه الاتصال بالملك العادل .

وسرعان ما اجتمع الملك العادل بريتشارد وبدأت المفاوضات ، وشرع الملك فطلب أن تسلم اليه البلاد كلها ، فجرت منافرة أخشن كل منهما فيها لصاحبه فانفصلا ، ولم يعد بد من معاودة القتال ، فالتحم الفريقان عند « أرسوف » وحمل الفرنجة حملة شديدة على الجيش كله ، فاندفع الناس بين أيديهم فراراً وكسراً ، ثم اجتمع الناس وتفرقوا واجتمعوا وتفرقوا فقتلت من الأمراء والأبطال والناس والخيل مقتلة عظيمة ، ولولا أن العدو وقف دون اتمام الزحف مخافة أن يكون فى طريقه كمين لباد الناس .

حريق عسقلان :

كان العدو منتصراً ولا سبيل الى رده ، وكان صلاح الدين والناس معه قد أثخنوا بالجراح ، ولو اندفع العدو فى طريقه فأخذ عسقلان لسهل عليه أن يجعلها مفتاح القدس ، ثم يقطع بها طريق مصر ، ويعود خطب الكرك والشوبك مرة أخرى ، وكان صلاح الدين قد أخذها من الفرنجة بعد أن احتلوها خمسة وثلاثين عاماً (١) .

فلما أدرك صلاح الدين ذلك ترك أخاه العادل لمراقبة العدو عند يافا والرملة وأسرع هو الى عسقلان ليحميها ، ثم مالبث أن رأى نفسه يعجز

(١) آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٢٢ .

عن حمايتها ، فاستشار فيها ، فأشار عليه « سليمان بن جَنْدر » بخرابها واحراقها لئلا يتم عليها ما تم على عكا ، وكان سليمان من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية ، وكان رجلاً مخلصاً ، شهد مع السلطان حروبه كلها (١) ، فقرر السلطان احراقها ، وطلب من أخيه العادل أن يراسل الفرنجة فى الصلح حتى يفرغ من احراقها .

ولم يكن تخريب المدينة بالأمر الهين على نفس صلاح الدين ، فقد حدث أن فقد أولاده كان أهون عنده من تخريبها ، وهذا شعور لصلاح الدين أخبر به كاتبه ابن شداد ، وليس فيه أدنى مبالغة ، لأنه — بعد هزيمة عكا — رأى قيم الأشياء قد هانت عليه حتى قِيَمَ أولاده ، وانقلبت رقة صلاح الدين الى عنف لا يطاق .

ثم دعا الناس الى الاخراب ، وكانت عسقلان بلدا نضرا مرغوب السكنى محكم الأمور عظيم البناء ، — وكان يقال لها عروس الشام لحسنها ، وكانت العروس الثانية غزة — (٢) فحزن الناس عليه من أهله وغير أهله ، ولكنهم أطاعوا ، وفقد الناس فى الهجرة منها ما يفقدونه دائماً عند غارة مفاجئة أو حريق داهم .

وكان أمر أهلها كأمر أهل فلسطين اليوم : فقصد قوم مصر ، وهاجر قوم الى الشام ، وجرت فتنة هائلة ، ولكن لم يصب أحد من أهلها بسوء فى عرضه أو نفسه ، كما حدث من اليهود حينما احتلوا فلسطين .

ثم أضرمت النيران فى السور والأبراج والدور والأمتعة والأطعمة وكل شىء ، وما كاد صلاح الدين يراها طعمة للنيران حتى التاث مزاجه وامتنع عن الركوب والأكل يومين كاملين حزنا وكمدا . ثم سرت حمى التخريب والاحراق فأحرق صلاح الدين برج « الاشيار » وكان مشرفاً

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ .
(٢) آثار البلاد واخبار العباد ٢٢٢ .

على البحر هناك كالقلعة ، ومضى الى اللد والرملة فخرب قلعتيهما ، وأمر بتخريب قلعة النطرون .

وما أصاب عسقلان كان كأنه تخريب أبدى ، فلم تقم لها قائمة أبداً ، وكأنها مدينة يثرب ، منذ رميت فى وقعة الحرة لم تفق من رميتها حتى اليوم ، بل كأنما نسيت اليوم عسقلان فقد مر على خرابها قرابة ثمانمائة عام .

شئون وأقدار :

وفى غمرة هذه البؤس والأحزان أصاب الله العدو بالفرقة والخصومة ، فجرت بين المركيز صاحب صور وبين ملوك الفرنجة فتنة ، وأشدها ما كان بينه وبين ملك الانجليز ، ومات « فيليب » ملك فرنسا عند انطاكية فى مرض أصابه ، ومضى ريتشارد الى عكا خائفا عليها من صاحب صور .

فلما بلغ الخصام أوجه بين الفرنجة كتب ريتشارد الى العادل ما كتب به العادل الى السلطان يقول : لقد مضى الأمر الى غايته ، ولم يعد هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، فأما القدس فهو متعبدنا ما نتزل عنه ، وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو عندنا عظيم ، نأخذه ونصطلح ونستريح .

فكتب السلطان بعد المشورة يقول له :

ان القدس هو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ، لأنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلن نتزل عنه ولن نفرط فيه . وأما البلاد فهى أيضاً لنا أصلا ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين . وأما الصليب فلن نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام (١) .

(١) النوادر السلطانية ص ١٨٧ .

أمر غريب :

ثم تراسل السلطان والفرنجة فى الصلح على أمر غريب :

ذلك الأمر أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الانجليز ، ويكون لهما ملك القدس وعكا ، ويتوجان ملكين . وهو أمر غريب لم يكشف المؤرخون عن سره ، فظل غريباً عجيباً ، وقد كانت الحال بين العادل وريتشارد قد حسنت فاذا لقى أحدهما الآخر لقيه بالهدايا والتحف والتجمل والمواكب ، وكانا يلتقيان على مودة ومحبة أكيدة .

ولعلها كانت حيلة انجليزية ، ولكنها لم تتم — على كل حال — لأن المسلمين والمسيحيين على السواء لم يوافقوا عليها ، وأنكر القساوسة الزواج الا أن يتنصر العادل ، ورفض صلاح الدين الرأى واستنكره (١) وعده مكرة انجليزية . وكانت أخت ريتشارد زوجة لصاحب صقلية من قبل ، فلما مات زوجها جاء بها أخوها من الجزيرة ليتوجها ملكة على القدس وبلاد الساحل ، ورأى فى تزويجها العادل أيسر سبيل .

وعرض ملك الانجليز أنه متى تم الزواج وتسلم الملك عود الصليب واستقر الداوية والاسبتار فى القرى والحصون وفك الأسرى من الجانبين واستقر الصلح ، فانه يرحل الى بلاده على الفور ، وينفصل الأمر .

قال ابن شداد :

فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة ، بمحضر من الجماعة ، فبادر الى الرضا معتقداً أن الملك لا يوافق على ذلك أصلاً ، وهو مكر وهزل منه ، وسير صلاح الدين والعادل بهذا الرضا رجلا اسمه « ابن النحال » فلما وصل الى مخيم العدو ولقى الملك بادره الملك قائلاً : ان أخته رفضت الزواج الا أن يتنصر العادل ، ثم ادعى الملك أن الكهنة قد أنكروا عليه هذا التزويج ، فأرسل الى البابا

(١) النوادر السلطانية ١٩٥ — ذيل النوادر ص ٣٠٠ .

رسولا يعود فى ستة أشهر ، فان أذن البابا وقع الزواج والصلح ، وان لم يأذن فمن حق الملك أن يزوج العادل بنت أخيه بدون اذن لأنها بكر . فانفصل القوم .

وحتى يدل الملك على حسن نيته فقد أطلق من أسره « سيف الدين المشطوب » أحد أبطال المسلمين ، وكان من أسرى عكا ، اذ كان على حمايتها وحراستها وهو الذى سلمها طالباً الأمان ، ولكن صلاح الدين كان — فى ظنه بأنها حيلة — مدركاً صادقاً .

ثم تابع الملك مراسلاته بعد انقطاع قصير وطلب لقاء السلطان ، ففضل السلطان أن يتفاوضا بالرسل بينهما مبديا رأيا نبيلا : ذلك أنه يرى أن اجتماع الملوك لا تجوز بعده العداوة ، وهو أدب سياسى رفيع . فظلت المفاوضات بالرسل وظل صلاح الدين لابسا لبدة الحرب مستعدا فقد خاف غائلة الغدر ، وظن أنه لو وقع به الموت فان عساكر المسلمين ما تكاد تجتمع ، وتقوى الفرنجة ، فالمصلحة أن يبقوا على الجهاد حتى يخرجوا من الساحل أو يأتى الموت (١) .

وكان الحق ما ظنه فى نفسه صلاح الدين ، فقد أصبح المحور الذى تدور عليه المعركة ، وكان هو قائدها ومشعلها وميزانها ، فلم يكن جائراً حين نظر الى من حوله من أهله ومن غيرهم فوجدهم دونه ، فتمنى أن يبقى ليظل مجاهداً ، أما اذا وقع به الموت فان عساكر المسلمين تتفرق ويقوى عليهم الأعداء ، وهكذا يكون قدر كل زعيم يبلغ فى قومه وعند عدوه ما بلغه صلاح الدين : النصرة فى بقائه والخوف كل الخوف من ورائه .

المركيز والملك :

وعرض المركيز صاحب صور محالفة صلاح الدين على أن يقاتلا الفرنجة معاً ، فما يأخذه منفرداً يصير له ، وما يأخذه المسلمون منفردين

(١) النوادر السلطانية ص ١٩٦ .

يصير لهم ، وما يأخذانه معاً يقتسمانه بينهما فيكون البلد للمركيز والأموال والأسرى للمسلمين .

ومال صلاح الدين الى المركيز ومال أصحابه الى الملك ، وكل منهما أيد رأيه بالدليل ، ولكن المركيز ما لبث أن قتل غيلة بيد رجلين من الباطنية أو من رجاله دسهما عليه الملك ، دخلوا عليه فى زى الرهبان فقتلوه سنة (٥٨٨ هـ — ١١٩٢ م) (١) فلما قتل توقف الملك عن طلب الصلح ، وأجرأه على ذلك موت المركيز وتظاهر المنصور بن الملك المظفر على عمه صلاح الدين بالعصيان .

وما أن مات المركيز حتى جعل السلطان يتخطف العدو على طريق « يافا » فى اشتباكات متفرقة لم يلبث « ريتشارد » أن عوضها جملة بمهاجمة قافلة مصرية دله عليها عملاؤه من خونة البادية ، فتبدد رجالها فى البرية ورموا أموالهم ، وجمع الفرنجة ما أمكنهم جمعه من دوابها وأحمالها ورجع الملك فى جحفل من غنائمه ، وقد قالوا : ان الجمال فى تلك القافلة كانت زهاء ثلاثة آلاف والأسرى خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل .

وجاء السلطان أن الفرنجة — بعد أن جربوا قواهم وحصلوا على ما حصلوا عليه من الغنائم — قد طمعوا فى القدس ، فأسرع اليه السلطان يرتب حمايته ويفسد المياه ويخرب الصهاريج حوله ، وأطنب فى ذلك اطنابا عظيما بحيث لم يبق حول القدس نقطة ماء تشرب أصلا .

وأرض القدس يصعب أن تُطلب فيها بئر أو تحفر ، لأنها جبل وحجر صلب ، فافساد المياه والصهاريج حولها يُعطِش الغزاة ، والمياه بعيدة اذا أرادوها ، وكانت هذه خطة من خطط الحرب فى هذه المنطقة ، حتى فى عصرنا الحديث .

(١) ذيل النوادر ص ٣٠٣ .

ورجحت — بعد المشاورة — كفة أصحاب السلطان الذين أرادوا لقاء العدو خارج القدس ، مخافة أن يحصروا بها اذا دافعوا من داخلها ، وتعاد كارثة عكا ، وكانت أقسى درس وأمر تجربة ، فاستقر الأمر على هذا الرأى لتبقى القدس فى أيديهم اذا انتصروا واذا انهزموا .

وبينما كان المسلمون يتشاورون كان الفرنجة كذلك يتشاورون :

كانوا انتخبوا ثلاثمائة من أعيانهم ، فانتخب هؤلاء اثنى عشر رجلا منهم ، فانتخب هؤلاء ثلاثة : كان انتخاباً من ثلاث درجات ، وقد اعتادوه ، فما قضى به الثلاثة المنتخبون أخيراً فعلوه لا محالة . واجتمع الثلاثة وأعلنوا قرارهم ، وكان الرحيل عن القدس دون مهاجمتها .

ومن قِبَل هذا التحكيم كان الفرنسيون أشد القوم حماساً لمهاجمة القدس ، بحجة أنهم لم يجيئوا الا من أجله ، واستصعب الانجليز الحرب فى موضع فسدت مياهه وغاضت ، وخافوا أن يديل الله عليهم فيحدث بحملتهم ما حدث من قبلُ فى حطين فرأوا المحاسنة أولى ، وكذلك قضى الثلاثة أصحاب التحكيم .

ثم راسل الملك صلاح الدين فى وجوب حقن الدماء ، وعرض كل من الطرفين بأسه وقوته ، وأبدى أنه لا يرهب الآخرين . والحقيقة أن كلاً منهما رهب الآخر وخافه ، اذ كانت المخاسر ماثلة أمام عين كل منهما أكثر من المرابح : كانت خسائر عكا أمام عين صلاح الدين ، وكانت خسائر حطين أمام عيون الفرنجة جميعاً .

واستقر رأى المسلمين على جواب أرسلوه للملك يقول :

اذا دخلتَ معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان . ان ابن اختك يكون عندى كبعض أولادى . وسيبلغك ما أفعل به . وآنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القيامة . وأما بقية البلاد فنقسمها : فالساحلية التى بيدك تكون بيدك . والذى بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا : وما

بين العملين يكون مناصفة . وعسقلان وما وراءها يكون خراباً ، لا لنا ولا لكم (١) .

ومع أن الصلح لم يتم من قريب فان قواعد هذا الجواب أصبحت أساس كل المفاوضات ، وليس شىء دونها يقبله صلاح الدين مهما حدث من أمور .

عند يافا

وبينما كان الطرفان يتراسلان للصلح علم المسلمون أن ملك الانجليز قد ترك يافا التى كان يتراسل منها وقصد بجنده الى بيروت ، وتركها — كما ظن — محصنة مدججة بالسلاح لا يقوى عليها أحد ، فرآها المسلمون فرصة لاحتلال يافا ، وما لبثوا أن كانوا أمام أسوارها يهدمونها ، فتصدى لهم الفرنجة تصديا شديدا ، فكانوا كلما خرقوا خرقا فى السور سده الفرنجة بالأسنة والرماح وصبروا صبرا مذهلا ، ولكن المسلمين استبسلوا ، ولم يبق رجل فى قلبه بقية من ايمان الا زحف وقاتل ، فلما أيقن الفرنجة بالهزيمة طلبوا الأمان .

ولم يقبل السلطان الا بأن يجاوز العدو البلد الى القلعة ، فانحاز العدو اليها ، فتحول الناس الى القلعة وحاصروها ليلا . وبينما هم كذلك واذا أبواق الأساطيل الفرنجية تزعق فى البحر عند السحر ، فأمر صلاح الدين أن تقتحم القلعة على الفور ، فتهيأ الناس للاقتحام .

واتضح للأسطول حين وضح الصبح أن أعلام المسلمين ترفرف على البلد كله ، وضجيج الناس فيها بالتهليل والتكبير يغمرها فظن القلعة قد سقطت أيضا ، فتوقف فى عرض البحر ، ولكن جنديا من حرس القلعة

(١) النوادر السلطانية ص ٢١٧ .

قفز منها الى الماء ثم سبح سبحا قويا حتى بلغ مركب الملك فصعد اليه وأخبره بحقيقة الحال فاندفع الأسطول يطلب الساحل .

ورجع حرس القلعة فتشبثوا بها — بعد أن كانوا قد تهيأوا للتسليم — حين رأوا نيفا وخمسين مركبا بينها مراكب « ريتشارد » تقصد البر ، وما هى الا ساعة حتى نزل الجند ودخلوا الميناء وحملوا على المسلمين ، ففروا بين أيديهم حتى جاوزوا خيمة السلطان .

ويافا وان كانت قد أخذت ثم سقطت فى ساعات ، فان ملك الانجليز دهش لما فعله المسلمون من أخذها ، وقد كان يظن أنها لا تسقط بأيديهم فى شهرين ، فأخذوها فى يومين ، وكان الملك قد تركها مدججة بالسلاح ، مشحونة بأقوى الرجال ، فهل أخذها السلطان الا وهو قوى شديد ؟!

وأضاع الناس — للمرة الثانية — بفرارهم أمام الأسطول انتصار صلاح الدين ، كما أضاعوا كرامة الانتصار وعظمته اذ كانوا قد أطنبوا فى الفوضى عند دخول يافا ، وانهالوا على البلد ينهبونه ويسرقونه ، وقد انبرى لهم « عز الدين جرديك » — الضابط المعروف فى قتل شاور — واشتد فى ردعهم وضربهم ولكنهم كانوا غير مضبوطين بعد ولا محصورين فى مكان .

وهكذا صرعت الشهوات قوم صلاح الدين مرتين : مرة فى مروج عكا ، ومرة عند يافا ، ولم تنفع التجربة الأولى فعادت الكارثة ، ولا سبب الا سوء النظام والاغترار بالنصر ، ولو وكل بهذه العامة من الناس قساة فى المواقف الحرجة لم يفسدوا ولم يعتدوا .

وليس على صلاح الدين من لوم ، فقد كان يحذر دائما أن تكون الغنائم سببا فى النكسة ، فكان يمنع العسكر غب الانتصار من النهب والاستحواذ على الغنائم ، وكان العسكر يعرف منه ذلك ويكرهه ، وقد تصدى ذاته يوم يافا للعسكر يمنعه من النهب فأضمر له بعض العسكر

الغيظ ، فكأنهم انتقموا لطمعهم حين الهزيمة ولم يستطع أحد أن يردهم عما أرادوا (١) .

صلح الرملة :

قال « ريتشارد » ذات مرة لبعض من صادقوه من خاصة السلطان — فى جد مرة وفى هزل مرة أخرى — : ان هذا السلطان عظيم ، وليس فى أرض المسلمين من هو أكبر منه وأعظم ، وان هذا الأمر لا بد أن يكون له من آخر ، وقد هلكت بلادنا وراء البحر ، وما فى دوام الحروب مصلحة لأحد . فذهب من سمع هذا الكلام وأبلغ السلطان .

وقال أحد ملوكهم — ولعله ريتشارد أيضا — : ان صلاح الدين عمل ما لم يعمله أحد مثله . اننا أحصينا من جاء فى البحر فكانوا سبعمائة ألف مقاتل ، ما رجع منهم العشر ، والباقون ماتوا قتلا أو غرقا أو أسروا (٢) .

ثم ترددت الرسل بين الطرفين لتعديل أساس الصلح وقاعدته ، فتنازل السلطان عن يافا للملك ، فطلب عسقلان أيضا ، وطلب الموافقة العاجلة حتى يستطيع أن يرتحل الى بلاده قبل حلول الشتاء ، فأرسل اليه السلطان يقول :

وأما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه ، وأما بقاء الملك هنا فى الشتاء فلا بد منه ، لأنه يعلم أنه متى غاب عن البلاد التى استولى عليها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضا اذا أقام ، ان شاء الله تعالى (٣) .

وفى تلك الأثناء اشتدت الخصومة بين الانجليز والفرنسيين فعبر الفرنسيون البحر الى بلادهم ، ومرض « ريتشارد » فأرسل الى صلاح

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠١ .
(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٥ .
(٣) النوادر السلطانية ص ٢٧٨ .

الدبن يطلب ثلجا وفاكهة : خوخا وكمثرى ، فأرسل له السلطان ما اشتهى ، ورد الملك شاكرا للهدية ملحا فى طلب الصلح شارطا أن يأخذ عسقلان ليكون له بذلك جاه فى بلاده فرفض السلطان .

وذات مساء أرسل الملك خمسة من مقدميه يخبرون السلطان أن الملك تنازل عن عسقلان ، وقد صحت نيته على الصلح على القاعدة التى تقررت من قبل ، فلما استوثق السلطان كتبت شروط الصلح بين الفريقين :

وكان من بنودها أن يستقر بيد الفرنجة يافا وقيسارية وحيفا وعكا وكل عمالات تلك البلاد . وأن يدخل صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وبلاد الاسماعيلية والولايات الاسلامية فى عقد الصلح . وأن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما . اما عسقلان فتبقى خرابا . وتدوم الهدنة بين الطائفتين ثلاث سنين تبدأ من يوم الأربعاء ٢٢ من شعبان سنة ٥٨٨ هـ — (٢ آيلول (سبتمبر) سنة ١١٩٢ م) .

وكانت حوادث يافا ماثلة أمام عينى السلطان ، فأقر الصلح مخافة أن يحتاج الى الناس فلا يجدهم ، ثم رضى الهدنة ليستعد فيها ويتجهز ويشحن القدس والبلاد بالعمارة والآلات .

وتبادل الطرفان نسخة كتاب الهدنة ، وحلف نواب الملوك ، وطاف الرسل فى البلدان ليحلف الأمراء الذين لم يحضروا الصلح من الفرنجة ومن المسلمين .

وكان من المترسلين بين صلاح الدين والفرنجة رجل يقال له « العدل الزبدانى » من كورة الزبدانى المعروفة بين دمشق وبعلبك وهى مصيف دمشق . كان يترسل بين صلاح الدين والفرنجة ، ولم يكن محمودا فى طريقته فكرهه الناس ، فقال الشهاب الشاغورى الدمشقى يهجوه :

بالعدل تزدان الملوك وما ... شان ابن أيوب سوى العدل
هو دلو دولته بلا سبب ... فمتى أرى ذا الدلو فى الحبل (١)

بدء الاختلاط :

ثم أمر صلاح الدين فنودى فى البلاد والطرق والأسواق أن الصلح قد انتظم سائر البلاد ، فمن أراد من أحد الجانبين أن يدخل بلاد الآخر فهو حل له ، ونودى فى المسيحية أن طريق الحج للقدس قد فتح لمن أراد .

فلما كان التاسع والعشرون من شعبان رحل السلطان الى النطرون ورحل ريتشارد الى عكا ، ثم اختلط العسكران ، وخرج جماعة من المسلمين الى يافا طلبا للتجارة ، ووصل خلق عظيم من الفرنجة يريدون القدس حجاجا ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الحراس يحفظونهم حتى يرجعوا ، وسرح السلطان العسكر ، ودخل السلم البلاد .

نية الحج :

وكان السلطان حذرا من عدوه حين عقد الهدنة معه ، فحين أمضى عقدها سير عسكرا وعمالا لهدم سور عسقلان خشية أن يعود ريتشارد عما مضى فيه ، ويزحف الى المنطقة الحرام فيملك عسقلان .

وكما كان يخاف غدر الفرنجة كان يخاف اهمال المسلمين ، وقد شهد القاضى ابن شداد أنه لم يكن يؤثر الصلح ، لأنه لا يدرى ماذا يكون بعده ، فلعل المتبلدين من الفرنجة يخرجون غدا لاسترداد بقيتها ، ويقعد كل وارث من ورثته فى رأس قلعته لا ينزل للحرب والمدافعة فيهلك المسلمون (٢) .

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٢٣٧ .

ولكن صلاح الدين حين أقبل على الصلح هـذه المرة كان صـافى النفس ملهما ، فقد أسرعت الأيام الباقية فى حياته تمضى على عجل الى نهايتها ، وكان من الخير أن يعقد الصلح والناس ضعاف من كل جانب فلا يستطيع الفريقان الالتقاء فى معركة حاسـمة . وكان الضعف الذى أصاب المسلمين يمس جمهورهم ، أما ضعف الفرنجة فكان فى اختلاف ملوكهم . ولم يطلب صلاح الدين الصلح مع علمه بضعف قومه ، وانما طلبه أعداؤه ، فكان توفيقا من الله له وسعادة لتاريخه .

وما لبث صلاح الدين أن رأى الفرنجة تفد جماعات الى بيت المقدس تؤدى الفريضة عنده — كما كانت تؤديها قبل بطرس الناسك — فقرت عينه وأبى أن يمنع أحدا عن عبادته ، وكان « ريتشارد » الملك قد اعترض على فتح الباب على مصراعيه لكل حاج ، فاعتذر صـلاح الدين بأنه لا يستحل منع قوم يرون زيارة بيتهم المقدس . فزحفت كل يوم جموع غفيرة تريد الزيارة ، وتنكر الملوك والرؤساء فى زى السياح والتجار فأكرمهم السلطان وأكرم كل قادم .

ثم هاجه ما رأى من اقبال الناس على بيت المقدس فهتفت نفسه بأن يحج هو أيضا فى عامه الى بيت الله الحرام . ثم أشاع نيته فى البلدان ، وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت اسمه ليحصى الذاهبين معه فى الطريق . ثم كتب بيـانات وجرائد بما يحتاج اليه من الثياب والأزواد وسيرها الى البلاد ليعدوها ، والتزم أن يبتدىء الاحرام من بيت المقدس مع الناس .

وعلى فجأة شاع أن السلطان قد امتنع عن أداء الفريضة ، لأمر دفن سره فلم يذع قط ، وقال الناس : انهم خوفوه من خليفة بغـداد اذ لم يستأذنه فى الحج ، فقد يظن بمسيره الظنون (١) . وقالوا : ان الأمراء ثبطوه قائلين : لا تعتمد على هدنة الفرنجة خوفا من غدرهم (٢) . وقالوا :

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٨ .
(٢) ذيل النوادر ص ٣٠٤ — النوادر السلطانية ص ٢٤٢ .

أقام السلطان يتصيد هو واخوته وأولاده ، ويتفرجون فى أراضى دمشق ومواطن الظباء والصبا ، وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ، فنسى عزمه على الحج ، واعترضته أمور وعزمات .
وقالوا ان القاضى الفاضل كتب اليه يقول : ان كشف مظالم الخلق أهم من كل ما يتقرب به الى الله (١) .

مرض السلطان :

لم يكن هذا الفارس الشجاع سليم البدن والأيام ، بل كان ذا علة تعاوده ويكاد يموت منها كل مرة (٢) . وكان الأطبـاء فى انتظار دعوته المفاجئة كلمـا مرض (٣) . وأكثر ما كانت تعاوده العـلة عند الكسرة والهزيمة ، فيثور به مزاجه الحاد ويغلب عليه اليبس وقلق الليل .

ولقد صح أن يقال : ان جسد صلاح الدين كان مرآة قلبه ، فكان يصح ويمرض فى المعركة الواحدة مع تيارها وأمواجها ، وكثيرا ما التاث مزاجه بحمى صفراوية (٤) ، ولعله كان مكبودا وداء الكبد يتحرك عند الحزن والهم الثقيل . ولم يكن صلاح الدين حين ذلك يقبل تسلية أو تسكينا .

وأحيانا كان السلطان يصاب بالمغص (٥) . وأحيانا بالرمد فيغسل عينيه بالماورد ، يستشفى به . وكان جلده شديد الحساسية : يلتهب اذا حزن فيحتجب فى خيمته عاجزا عن الأكل والشرب متقلبا على جنبيه لايهدأ ولا ينام ، فاذا دعته المعركة اليها نسى ما به من آلام .

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٠ — غوطة دمشق ص ١١٣ .
(٢) ذيل النوادر ص ٢٨٧ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ — المنجد : حرف الهاء .
(٤) النوادر السلطانية ص ٥٣ ، ١٢٧ .
(٥) ذيل النوادر ص ٢٩٨ .

وقد مرض صلاح الدين فى سنة (٥٨١ هـ — ١١٨٥ م) بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته ، فارتحل طالبا « حران » وهو يتجلد ، وكان خليقا به أن يرتحل على محفة ، فوصل حران وقد بلغ غاية الضعف حتى يئسوا منه وأرجفوا بموته (١) .

ومرض السلطان فى مرج عكا حتى طمع فيه عدوه ، ولكنه صار ينازلهم فى معارك صغيرة متفرقة مع التياث مزاجه وضعف بدنه ، وكان أحيانا — وهو يمسك على الألم — يأمر أولاده بمخالطة الحرب ويظهر من خيمته لتحميس الناس .

وجاء عام الصلح بالشتاء والأنواء فأقام صلاح الدين بدمشق يستجم بعد رحلاته على الساحل واشاراته بتقوية الحصون والأسوار ، وكانت دمشق حين ذلك تحت زميله القائد المظفر « عز الدين جرديك » فوفر له ما طلب من الراحة والاستجمام .

نهاية الايام :

وعلى حين فجأة أمسك صلاح الدين عن خليط الطعام وكثيره ، ثم اعتكف معتذرا عن لقاء الناس ، وأحس بضيق فى صدره وكسل والتياث ، ثم رأى ذات يوم أن يخرج راكبا فى ثياب عادية نازعا عنه ثوب الفارس ، ولم يكن ينزعه أبدا ، فلما علم الناس خرجت دمشق على بكرة أبيها كى تراه . وكان يوما قد عاد فيه الحجيج من مكة فخرج لاستقباله (٢) مستعبر العين والفؤاد .

ورأته دمشق وهو خارج الى الغوطة يتنزه ، ثم انتظرته حتى يعود — كعادة دمشق فى اكرام العظماء — وطال بالناس الانتظار — ثم انصرفوا دون أن يروه ، فقد سلك طريقا أخرى بعيدة عن الناس فى الرجوع ، بين الزروع والظلال ، وكان آخر ركوب له ، وآخر يوم رآه الناس فيه .

(١) النوادر السلطانية ص ٥٦ .
(٢) الناصر صلاح الدين ص ١٣٧ .

وفى وهن تلك الليلة ذاتها غشيت صلاح الدين حمى صفراوية ، وشكا قلق الليل ، وأصبح وعليه أثر الحمى ، فلما أحضر طعام الظهر وجلس الكبار للغداء على موائده كعادتهم لم يستطع أن يقوم الى مكانه بينهم ، فجلس ابنه الملك الأفضل مكانه ، وغاب هو عن عادته ، فانحدرت دموع الناس .

ثم أخذ المرض يزداد حتى وجد الألم فى رأسه (١) ، ثم لزمه الأطباء ، اذ غلب عليه اليبس فلم يلفظ رطوبات بدنه ، وصار يتألم من كل ما يشربه ويحسه غريبا مرا غير مألوف .

وفى ثامن صفر سنة (٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م) أخذ ذهنه يغيب ، وتقاربت نوبات الغشى عليه ، فاشتد الخوف فى دمشق ، وترقب الناس أفواجا أخباره عند باب داره وتوسموها فى صفحات الوجوه .

وفى السادس والعشرين من صفر كانت قد عجزت حيل الأطباء فيه ، فرؤى أن يحلف الولاة والأمراء لابنه الأفضل فحلفوا . فلما كانت الليلة التالية دخل فى النزع ، وحال بينه وبين أصحابه النساء ، ثم توفى بعد صلاة الصبح فى مطلع نهار الأربعاء السابع والعشرين ، بعد أن غاب ذهنه ثلاثة أيام ، فكان يوما لم يصب المسلمون فيه بمثله من عهد بعيد .

ولقد صار هذا البطل العظيم فى يد الموت كأحد الأفراد ، همه فى جسده ، وما يصنع بطعامه وشرابه ، وما ترتفع حرارة بدنه وتنخفض . غير الذكر الطيب والمجد الذى لا يغيب .

قال الحافظ شمس الدين :

لقد غشى أهل دمشق يوم موته من البكاء والهول والضجيج ما لا يعبر عنه ، حتى كانت الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وعظم الأسف واشتد القلق (٢) .

(١) النوادر السلطانية ص ٢٤٦ .
(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٥ .

وقال بهاء الدين بن شداد :

وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بأنفسهم ، وما سمعت هذا التمنى الا على ضرب من التجوز والترخص ، الا فى ذلك اليـوم ، فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفـداء لفـدى بالنفوس (١) .

ثم جلس الناس ، وجلس ابنه الملك الأفضل للعزاء (٢) ، وشـغل الحزن كل واحد من النظر الى غيره ، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل أو واعظ ، كان أولاده يخرجون فتكاد تزهق الأرواح لهول منظرهم . ثم خرجت جنازته الى الجامع الأموى الكبير ، فصلى عليه الناس أرسالا . ثم دفن فى الدار التى فى البستان — وكان متمرضا فيها — خلف الجامع بالكلاسة . ودفن فى الضفة الغربية منها . وكان نزوله فى حفرته قريبا من صلاة العصر .

ومات صلاح الدين وعمره يقرب من سبعة وخمسين عاما ، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحوا من أربعة وعشرين عاما ، وملكه للشـام قريبا من تسعة عشر عاما ، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ، وبنتا واحدة تزوجها الملك الكامل بن العادل فيما بعد . وكان أكبر أولاده الملك الأفضل على ، ولد بمصر سنة (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) فكانت سنه لا تزيد عن خمسة وعشرين عاما .

ولم تكن قصة رجل فى المسلمين شبيهة بأسطورة الا قصة صلاح الدين ! كان فارسا لم ينزل عن صـهوة جواده أكثر من ربع قرن طارحا فرسه للهيجاء ، قارعا باب كل حصن ، مقتحما بنفسه كل معركة : افتتح بسيفه وباخوته بلادا من اليمن الى الموصـل ومن طرابلس الغرب الى أسوان (٣) ، وحمى فيها دينه من كل زيغ ، ورد عنها كل عدوان .

(١) النوادر السلطانية ص ٢٥٠ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٢ .
(٣) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٥ .

مراجع الكتاب

١ ـ الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ... ... ط مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٦م لاسعد طلس

٢ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ... ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٦٠م للقزوينى

٣ ـ آداب الشافعى ومناقبه ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٣م لابن أبى حاتم

٤ ـ أبطال الوحدة ... ... « الحكومة دمشق لمفلح على

٥ ـ الابيوردى ... ... « دار اليقظة دمشق لممدوح حقى

٦ ـ الاحكام السلطانية ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٩م للماوردى

٧ ـ أسامة بن منقذ (محاضرة) ... « المكتبة الوطنية حماة ١٩٢٩م لطاهر الغسانى

٨ ـ الاعتبار لاسامة بن منقذ ... ... « جامعة برنستون بأمريكا ١٩٣٠م تحقيق فيليب حتى

٩ ـ تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق لمكسيموس موندوند ... « دير الرهبان أورشليم ١٨٦٥م ترجمة بطريرك أنطاكية مكسيموس مظلوم

١٠ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمن ... ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٨م ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى

١١ ـ تاريخ العرب لسيديو ... ... « عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٤٨م ترجمة عادل زعيتر

١٢ ـ تاريخ العرب المطول ... ... « دار الكشاف بيروت ١٩٤٩م لفيليب حتى وصاحبيه

١٣ ـ تاريخ اليعقوبى ... ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٦٠م

١٤ ـ ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ... ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٧م لنظير حسان سعداوى

١٥ ـ جعفر بن محمد ... ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٤م للمؤلف

١٦ ـ جيش مصر أيام صلاح الدين ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٦م لنظير حسان سعداوى

١٧ ـ الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ... ... « دار الكتب الشرقية تونس ١٩٥٤م لمحمد الدوسى المطوى

١٨ ـ الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى بمصر والشام ... « دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٤٩م لمحمد سيد كيلانى

١٩ ـ حياة صلاح الدين الأيوبى ... « المكتبة التجارية القاهرة ١٩٣٦م لأحمد بيلى

٢٠ ـ الحياة العملية فى الحروب الصليبية بمصر والشام ... ... « مكتبة نهضة مصر القاهرة لأحمد أحمد بدى

٢١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب ... ... « المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٥٥م تحقيق شكرى فيصل

٢٢ ـ خمسة من معاصرى صلاح الدين « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٩م لنظير حسان سعداوى

٢٣ ـ دار الطراز لابن سناء الملك ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩م تحقيق جودت الركابى

٢٤ ـ دول الاسلام ... ... « دار المعارف بالهند الدكن ١٣٣٧هـ للحافظ شمس الدين

٢٥ ـ ديوان ابن عنين ... ... ط مطبعة دمشق دمشق ١٩٤٦م تحقيق خليل سردم

٢٦ ـ ذيل النوادر ... ... « مطبعة المؤيد القاهرة ١٣١٧هـ لشاهنشاه بن أيوب

٢٧ ـ روضة المناظر ... ... « بهامش ابن الاثير القاهرة ١٣٠٣هـ لابن الشحنة

٢٨ ـ سيرة القاهرة « لستانلى لنيبول» « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥١م ترجمة حسن ابراهيم وآخرين

٢٩ ـ الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ... ... « مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٥٠م لحافظ حمدى

٣٠ ـ صلاح الدين الايوبى ... ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٦م لقدرى قلعجى

٣١ ـ صلاح الدين بطل حطين ... ... « دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٨م لعبد اللطيف حمزة

٣٢ ـ صلاح الدين الايوبى وعصره ... « مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٢٧م لمحمد فريد أبو حديد

٣٣ ـ العلاقات « بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية » ... « م الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٥٨م لزكى النقاش

٣٤ ـ الفنون الاسلامية م س ديماند ... « دار المعارف القاهرة ١٩٥٤م فرنكلن ... ... ترجمة أحمد محمد عيسى

٣٥ ـ فوات الوفيات ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥١م لابن شاكر الكتبى

٣٦ ـ الكامل ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٣٠٣م لابن الاثير

٣٧ ـ كتاب الروضتين ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٦م لأبى شامة

٣٨ ـ كنوز الاجداد ... ... « مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٠م لكرد على

٣٩ ـ مجالى الاسلام لحيدربامات ... « داراحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٦م ترجمة عادل زعيتر

٤٠ ـ مظاهر الحضارة المغربية ... ... « الدار البيضاء مراكش ١٩٥٧م لعبد العزيز بن عبد الله

٤١ ـ معجم الادباء ... ... « دار المأمون القاهرة لياقوت

٤٢ ـ معجم البلدان ... ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٥٥م لياقوت

٤٣ ـ مفرج الكروب ... ... « المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧م لابن واصل

٤٤ ـ الناصر صلاح الدين سلسلة « اقرأ » ... ... « دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م لسامى الدهان

٤٥ ـ النوادر السلطانية ... ... « مطبعة المؤيد القاهرة ١٣١٧هـ لبهاء الدين بن شداد

٤٦ ـ نور الدين والصليبيون ... ... « دار الفكرالعربى القاهرة ١٩٤٨م لحسن حبشى

٤٧ ـ نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى ... ... « الشركة العربية القاهرة ١٩٥٦م تحقيق ابراهيم الابيارى

٤٨ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٨م تحقيق محيى الدين عبد الحميد

١ ـ الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ... ... ط مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٦م لأسعد طلس

٣ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ... ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٦٠م للقزوينى

٣ ـ آداب الشافعى ومناقبه ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٣م لابن أبى حاتم

٤ ـ أبطال الوحدة ... ... « الحكومة دمشق لمفلح على

٥ ـ الابيوردى ... ... « دار اليقظة دمشق لمدوح حقى

٦ ـ الأحكام السلطانية ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٩م للماوردى

٧ ـ أسامة بن منقذ (محاضرة) ... « المكتبة الوطنية حماة ١٩٢٩م لطاهر الغسانى

٨ ـ الاعتبار لأسامة بن منقذ ... ... « جامعة برنستون بأمريكا ١٩٣٠م تحقيق فيليب حتى

٩ ـ تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق لمكسيموس موندوند ... « دير الرهبان أورشليم ١٨٦٥م ترجمة بطريرك أنطاكية مكسيموس مظلوم

١٠ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمن ... ... « دار العلم للملايين بيروت١٩٤٨م ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى

١١ ـ تاريخ العرب لسيديو ... ... « عيسى البابى الحلبى القاهرة١٩٤٨م ترجمة عادل زعيتر

١٢ ـ تاريخ العرب المطول ... ... « دار الكشاف بيروت ١٩٤٩م لفيليب حتى وصاحبيه

١٣ ـ تاريخ اليعقوبى ... ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٦٠م

١٤ ـ ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ... ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٧م لنظير حسان سعداوى

١٥ ـ جعفر بن محمد ... ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٤م للمؤلف

١٦ ـ جيش مصر أيام صلاح الدين ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٦م لنظير حسان سعداوى

١٧ ـ الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ... ... « دارالكتب الشرقية تونس ١٩٥٤م لمحمد الدوسى المطوى

١٨ ـ الحروب الصليبية وأثرها فى الادب العربى بمصر والشام ... « دار الكتاب العربى القاهرة١٩٤٩م لمحمد سيد كيلانى

١٩ ـ حياة صلاح الدين الأيوبى ... « المكتبة التجارية القاهرة ١٩٣٦م لأحمد بيلى

٢٠ ـ الحياة العملية فى الحروب الصليبية بمصر والشام ... ... « مكتبة نهضة مصر القاهرة لأحمد أحمد بدى

٢١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب ... ... « المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٥٥م تحقيق شكرى فيصل

٢٢ ـ خمسة من معاصرى صلاح الدين « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٩م لنظير حسان سعداوى

٢٣ ـ دار الطراز لابن سناء الملك ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩م تحقيق جودت الركابى

٢٤ ـ دول الاسلام ... ... « دارالمعارف بالهند الدكن ١٣٣٧هـ للحافظ شمس الدين

٢٥ ـ ديوان ابن عنين ... ... ط مطبعة دمشق دمشق ١٩٤٦م تحقيق خليل سردم

٢٦ ـ ذيل النوادر... ... ... « مطبعة المؤيد القاهرة ١٣١٧هـ لشاهنشاه بن أيوب

٢٧ ـ روضة المناظر ... ... « بهامش ابن الاثير القاهرة ١٣٠٣هـ لابن الشحنة

٢٨ ـ سيرة القاهرة « لستانلى لنيبول» « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥١م ترجمة حسن ابراهيم وآخرين

٢٩ ـ الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ... ... « مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٥٠م لحافظ حمدى

٣٠ ـ صلاح الدين الأيوبى ... ... « دارالعلم للملايين بيروت ١٩٥٦م لقدرى قلعجى

٣١ ـ صلاح الدين بطل حطين ... ... « دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٨م لعبد اللطيف حمزة

٣٢ ـ صلاح الدين الأيوبى وعصره ... « مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٢٧م لمحمد فريد أبو حديد

٣٣ ـ العلاقات « بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية » ... « م الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٥٨م لزكى النقاش

٣٤ ـ الفنون الاسلامية م س ديماند ... « دار المعارف القاهرة ١٩٥٤م فرنكلن ... ... ترجمة أحمد محمد عيسى

٣٥ ـ فوات الوفيات ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥١م لابن شاكر الكتبى

٣٦ ـ الكامل ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٣٠٣م لابن الأثير

٣٧ ـ كتاب الروضتين ... ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٦م لأبى شامة

٣٨ ـ كنوز الأجداد ... ... « مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٠م لكرد على

٣٩ ـ مجالى الاسلام لحيدربامات ... « داراحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٦م ترجمة عادل زعيتر

٤٠ ـ مظاهر الحضارة المغربية ... ... « الدار البيضاء مراكش ١٩٥٧م لعبد العزيز بن عبد الله

٤١ ـ معجم الأدباء ... ... « دار المأمون القاهرة لياقوت

٤٢ ـ معجم البلدان ... ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٥٥م لياقوت

٤٣ ـ مفرج الكروب ... ... « المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧م لابن واصل

٤٤ ـ الناصر صلاح الدين سلسلة « اقرأ » ... ... « دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م لسامى الدهان

٤٥ ـ النوادر السلطانية ... ... « مطبعة المؤيد القاهرة ١٣١٧هـ لبهاء الدين بن شداد

٤٦ ـ نور الدين والصليبيون ... ... « دار الفكر العربى القاهرة ١٩٤٨م لحسن حبشى

٤٧ ـ نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب للقلقشندى ... ... « الشركة العربية القاهرة ١٩٥٦م تحقيق ابراهيم الابيارى

٤٨ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان ... ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٨م تحقيق محيى الدين عبد الحميد

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

عبد العزيز سيد الاهل

ولد بالمنصورة فى الثانى من يناير ١٩٠٢م . بدأت رحلته الأدبية منذ كان طالبا بالثانوى وإستمرت فى كلية دار العلوم العليا بالقاهرة ثم نضجت وفاضت فيما لحق من سنوات قضاها متنقلا بين فلسطين وسوريا ولبنان وكافة بلاد المشرق .

ولقد كان - غير الأب الصديق - من خيرة العلماء فيما تعلمه وعلمه للناس ، وقد وهبه الله مع كثرة العلم وفرة التواضع ، وكان يتعامل مع الناس بشمائل العلماء فيكثر من العطاء فى العلم ويجله عن مقابلته بالمال . وكان يكتب بأسلوب فريد لمن يستحق أن يقرأ له ، ولمن يرغب فى أن يمتع عقله .

توفى يوم الأحد أول مارس ١٩٨١م وترك وراءه تراثا عظيما فى الفقه والشريعة والسنة بجانب التاريخ والأدب والشعر .

رثاه أحد تلاميذه فى مرثية رائعة مطلعها :

ما كان ستر وراء الغيب مستورا
فهل كشفت لنا تلك المقاديرا
كنت المقدم فينا ما يضيرك لو
كان التقدم نحو الموت تأخيرا

رحم الله عبد العزيز سيد الاهل ونفع بتراثه غائبا عن دنيا الناس كما نفع بذلك التراث العظيم كل من صحبوه أو قرأوا له .

عمر سيد الاهل